

THE BOOK WAS DRENCHED

TIGHT BINDING BOOK

Pages missing
within the book

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190191

UNIVERSAL
LIBRARY

مَحَاتِمَا غَانِدِي

نَشْأَتُهُ وَعَمَلُهُ فِي جَنُوبِ إِفْرِيقِيَّةِ

مِنْ سِيرَتِهِ كَمَا كَتَبَهَا بِقَلَمِهِ وَنَشَرَهَا مَسْتَرَانْدُرُوزُ الْإِنْجَلِيزِي أَحْدَمَرِيدِيهِ

تَرْجُمَةٌ

إِسْمَاعِيلُ مَظْهَرُ

سَنَةِ ١٩٣٤

طُبِعَ بِمَطْبَعَةِ عَيْسَى الْبَابِي الْجَلْبِي وَشِرْكَاهُ بِبُصْرَ



الاهراء

مع كثير من المحبة والعطف
إلى الدكتور بهادر سنغ وزوجه
وإلى المقيمين من بنى جلدتى بجزائر الهند الغربية

قصيدة شوقي بك

في غاندى — بطل الهند

نمهد لهذا الكتاب بالقصيدة الفريدة
التي حياها المرحوم شوقي بك غاندى
عند ما مر بمصر في طريقه إلى انجلترا
ليحضر مؤتمر المائدة المستديرة ، تحية
من مصر إلى بطل الهند .

وَحَيُّوا بَطْلَ الْمَهْنَدِ	بَنِي مِصْرَ أَرْفَعُوا الْفَارَ
حُقُوقَ الْعِلْمِ الْفَرْدِ	وَأَدُّوا وَاجِبًا وَاقْضُوا
وَعَرَّكَ الْمَوْقِفِ النَّكَدِ	أَخُوكُمْ فِي الْمَقَاسَةِ
وَفِي الْمَطْلَبِ وَالْجَهْدِ	وَفِي التَّضَحِّيَةِ الْكُبْرَى
وَفِي النَّفْيِ مِنَ الْمَهْنَدِ	وَفِي الْجُرْحِ وَفِي الدَّمْعِ
وَفِي مَرَحَلَةِ الْوَفْدِ	وَفِي الرِّحْلَةِ لِلْحَقِّ
عَلَى الْفُلْكِ وَمِنْ بَعْدِ	قِفُوا حَيَّوْهُ مِنْ قُرْبِ
وَعَطُّوا الْبَحْرَ بِالْوَرْدِ	وَعَطُّوا الْبَرَّ بِالْأَسِ

عَلَى أَفْرِيزِ رَاجِبُوتَا نَ تِمَشَالُ مِنَ الْمُجْدِ

نَبِيٍّ مِثْلَ كُنْفُو شِيُو	سَ أَوْ مِنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ
قَرِيبُ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ	مِنْ الْمُتَنْظَرِ الْمَهْدِي
شَبِيهُ الرُّسُلِ فِي الذَّوْدِ	عَنِ الْحَقِّ وَفِي الزُّهْدِ
لَقَدْ عَلَّمَ بِالْحَقِّ	وَبِالصَّبْرِ وَبِالْقَصْدِ
وَنَادَى الْمَشْرِقَ الْأَقْصَى	فَلَبَّاهُ مِنْ الْأَحَدِ
وَجَاءَ الْأَنْفُسَ الْمَرْضَى	فَدَاوَاهَا مِنَ الْحَقْدِ
دَعَى الْهِنْدُوسَ وَالْإِسْلَامَ	مَ لِلْأَلْفَةِ وَالْوُدِّ
بِسِحْرِ مِنْ قُوَى الرُّوحِ	حَوَى السِّيفَيْنِ فِي غَمْدِ
وَسُلْطَانٍ مِنَ النَّفْسِ	يَقْوَى رَائِدَ الْأَسَدِ
وَتَوْفِيقٍ مِنَ اللَّهِ	وَتَبْشِيرٍ مِنَ السَّعْدِ
وَحَظَّ لَيْسَ يُعْطَاهُ	سِوَى الْمَخْلُوقِ لِلْخُلْدِ
وَلَا يُؤْخَذُ بِالْحَوْلِ	وَلَا الصَّوْلِ وَلَا الْجُنْدِ
وَلَا بِالنَّسْلِ وَالْمَالِ	وَلَا الْكَدْحِ وَلَا الْكَدِّ
وَلَكِنْ هِبَةُ الْمَوْلَى،	تَعَالَى اللَّهُ ، لِعَبْدِ

سَلَامُ النَّيْلِ يَا غَنْدِي	وَهَذَا الزَّهْرُ مِنْ عِنْدِي
وَإِجْلَالٌ مِنَ الْأَهْرَا	مَ وَالْكَرْمُ نَكِّ وَالْبَرْدِي

وَمِنْ مَشِيخَةِ الْوَادِي وَمِنْ أَشْبَالِهِ الْمُرْدِ
 سَلَامٌ حَالِبَ الشَّاةِ سَلَامٌ غَازِلَ الْبُرْدِ
 وَمَنْ صَدَّ عَنِ الْمِلْحِ وَلَمْ يُقْبِلْ عَلَى الشَّهْدِ
 وَمَنْ يَرْكَبُ سَاقِيَهُ هِ مِنْ الْهِنْدِ إِلَى السِّنْدِ
 سَلَامًا كُلَّمَا صَلَّيْ تَ عُرْيَانًا وَفِي اللَّبْدِ
 وَفِي زَاوِيَةِ السَّجْنِ وَفِي سِلْسِلَةِ الْقَيْدِ

مِنْ الْمَائِدَةِ الْخَضْرَاءِ خُذْ حِذْرَكَ يَا غَنْدِي
 وَلَا حِظُّ وَرَقِ السَّيْرِ وَمَا فِي وَرَقِ اللُّورْدِ
 وَكُنْ أَبْرَعَ مَنْ يَدُ عَبُّ بِالْشَّطْرَنْجِ وَالنَّزْدِ
 وَلَا قِي الْعَبْقَرِيِّينَ لِقَاءَ الدِّدِّ لِلنِّدِّ
 وَقُلْ هَاتُوا أَفَاعِيكُمْ أَتَى الْخَاوِي مِنْ الْهِنْدِ
 وَعُدْ، لَمْ يَجْهَلِ الدَّامُ وَلَمْ يَغْتَرَّ بِالْحَمْدِ
 فَهَذَا النَّجْمُ لَا تَرَقِي إِلَيْهِ هِمَّةُ النَّقْدِ
 وَرَدَّ الْهِنْدُ لِلَّامَةِ هِ مِنْ حَدٍّ إِلَى حَدٍّ

ديباجة

صورة بقلم الناقل

امبراطورية لا تغيب الشمس عن أملاكها . فكرة الأرض تحمل من ألوانها الجغرافية زناً يحوطها مع خطوط الطول وخطوط العرض ، ولسلطانها يخضع الأبيض والأسمر والأصفر والنحاسى والأسود من سلالات البشر . وفى داخل أملاكها تدين أقوام بصور من الأديان وألوان من العقائد لا يحصرها العد ، وينطق بلغات وألسنة تمثل ما بلبل الله من لهجات أهل الأرض فى بابل القديمة . امبراطورية تسود البحار ، ومن ساد البحار فقد حاصر اليابسة وأذلها فى عصر كعصرنا قوام الحياة فيه الاتصال لا الانفصال . امبراطورية تقدر ثروتها بالملايين وآلاف الملايين من الأصفر الرنان ، وتحصى مواردها بأرقام يخيل اليك أنها موهومة . ونخير للحساب أن يخترعوا طريقة حسابية لحصر تلك الموارد شبيهة بطريقة الفلكيين إذ يقيسون أبعاد الشمس والسيارات بالسنين النورية ، لا بالأميال الأرضية . هذه الامبراطورية يقيمها ويقعدها هيكل بشرى من الدم واللحم والعظام ، لا يزيد وزنه على وزن كرة مدفع من أصغر مدافع بريطانيا العظمى . وأما هذا الهيكل البشرى الضئيل ، فغاندى العظيم .

كم من مرة في بضع السنوات الأخيرة تحركت هذه الامبراطوية ، وأعدت عدتها برأ وبجرأ ، كما يتحرك « امفيان » لا تصوره إلا الميثولوجيا القديمة ، استعداداً للقبض على غاندى لتضعه بين أربعة جدران من اللبنة المرسومة . ولعمري إن هذا لأبلغ ما يصل اليه الوهم الديوى . فان جسم غاندى الضئيل ليس بشيء إذا هو حبس بين أربعة جدران من الحجارة أو الفولاذ ، مادامت روحه محلقة في سماء الحرية الفسيحة، فتكهرب جوار الشر ، بل جو الكرة الأرضية ، لا جو الهند وحدها .

انما تكون الامبراطورية البريطانية جديرة بعظمتها، اذا هي استطاعت أن تسجن روح غاندى في « ققم » كما كان يسجن سليمان بن داود الجن والشياطين في روايات ألف ليلة ، وتمحو أثرها من الوجود . فأما وروح غاندى تسبح في فضاء الحرية ، وتفدى الأرواح الأخرى بمبادئها ، فأى أثر يمكن أن يحدته سجن الهيكل الترابي ، في حجرة عرض جدرانها نصف قيراط ، أو نصف ميل من حجارة أوفولاذ .

وفي اكتمال رجولته يأتى «غاندى» ، الخالد الفانى، بالمعجزة الكبرى، فيسوى بين الانجاس النبوزين في الهند ، الخارجين من قديم بوذا ، والهندوكيين الأطهار ، الخارجين من رأسه ، ويقضى على العقائد والفوارق المقدسة التى غذاها الزمان الطويل بكل ما يستطيع أن يخلق التكوين البشرى من الأوهام . ثم يهدد بالصيام الى الموت اذا لم تتم المعجزة ، لانه

لم يستطع أن يوقظ ضمير الهند النائم ، ولم يستطع أن يوقظ ضمير الانجليز ؛ فيضطرب جو الكرة الأرضية ، وتفتح له أبواب السجن ليكون حراً ، فيأبى إلا أن يموت سجيناً . ثم يخاطب الملوك والحكومات وهو بعد في السجن ، مستلقياً تحت ظلال شجرة من « المانجو » منصرفاً إلى صلواته العميقة ، يستقبل الموت في أسماه باسماً راضى النفس .

وهنا يستيقظ ضمير الهند فتفتح الهياكل المقدسة للأنجاس النبوزين ويتساوى كل أهل الهند في الحقوق المدنية والسياسية ، وتتم المعجزة الكبرى لأول مرة في تاريخ الشرق ، لا من طريق الشعوذة ، ولا من طريق السيف ، بل من طريق الاقتناع . ولعمري إن هذا لأول حجر يبنى في استقلال الشرق بقوة الايمان ، لا بقوة الحديد والنار . وهنا يستقر الروح الحائر ، ويرضى بأن يظل ملازماً للجسم الترابي الى حين .

فيا لعظمة غاندى ، ويا لنبل الرسالة التى أداها ، والتضحية التى ضحّاها .

على أن لهذا الهيكل الضئيل تاريخاً تكونت خلاله عناصر القوة والعظمة التى يمتاز بها غاندى ، وأكبر ميزة لهذا التاريخ أنه يظهر على غاندى فى أطواره المتلاحقة ، ويكشف لك عن كلالته ونقائصه ، فى صباه ، ثم تحوله فى شبابه ، ثم قنوته ونسكه فى شيخوخته . ومن هذا التاريخ تعرف كيف تكونت مع عناصر قوته وعظمته ، عناصر مبادئه السياسية التى استخلصها من عمليات ووقائع مشهودة ، لا من نظريات خاوية فارغة ، كثر ماخطها غيره من الزعماء على الورق ، أو استخلصوها

من التاريخ ، وكثير ما خاب حدسهم وغشهم التاريخ .
فاذا أنت استوعبت تاريخ غاندى العظيم ، أمكنك أن تعرف كيف
يكون أثر المبدئ من القوة اذ يتكون على مدى الدهر بعد أن تصقله
الحوادث والكوارث ، وكيف يكون أثر المبدئ من الضعف والفساد اذ
يعمد إلى النظريات دون العمليات .

أما هذا التاريخ فجزء من سيرة غاندى نفسه كما كتبها هو ونشرها
رجل انجليزى من مؤيديه المعجبين بشخصه يدعى مستر « اندروز » . وقد
راجعها غاندى قبل نشرها . وسوف نتوخى فى التلخيص طريقة الترجمة
الكلية لفصول الكتاب ، بحيث يظهر تاريخ « بشير القرن العشرين »
مفصلاً مطرداً بقدر ما تسمح بذلك الظروف . على أنى لم أهمل إلا بضع
جمل ، ولم أتصرف الا قليلا . واذا تتالت الصفحات وتعاقبت ، فعذرنا أننا
ترجم عن حياة رجل هز أعظم امبراطوريات الأرض ، بعد أن أفلت
روحه من أقفاص الفولاذ والحجارة التى حاكتها من حوله أو هام
القرن العشرين .

اسماعيل مظهر

الفصل الاول

المولد والمسكن

الغانديون من طائفة «البانيا» Bania والظاهر انهم كانوا في الأصل تجاراً يتعاطون التجارة في بيع السلع نجوماً ، لاجلة . ولكنهم ظلوا منذ ثلاثة أجيال وزراء في كثير من مقاطعات « كاثياوار » Kathiawar وكان جدي «أوتاغندي» من الرجال الذين يقدرون المبادئ، وقد اضطرته الدسائس السياسية أن يغادر «پورباندر» Porbander حيث كان «ديواناً» أي رئيس وزراء ، وأن يلجأ هارباً إلى «جوناجاد» . فلما قابل «نواب» هذه المقاطعة ، حياه بيده اليسرى . ولما سئل عن سبب ذلك - قال - « ان يدي اليمنى قد قطعت لنواب «پورباندر» عهدا غير مخلوف » .

وتزوج «أوتاغندي» مرتين، فكان له أربعة أولاد من زوجه الاولى ، واثنان من الثانية . ولما كنت صغيراً لم أشعر مطلقاً بأن أولاد «أوتا» كانوا غير أشقاء . أما خامس أولاده فكان « كرمشاند غاندي » وسمى « كبا غاندي » كما كان سادسهم يدعى « تولسيدس غاندي » ، وكلاهما كان رئيس وزراء ، أحدهما تلو الآخر . أما أبي « كبا غاندي » فكان

رئيس وزارة « راجكوت » لعهدهما ، ثم رئيساً لوزارة « فانكانار » ولما مات كان يتناول معاشاً من حكومة « راجكوت » .

وتزوج « كاباغاندى » أربع مرات على التوالى ، اذ كان يفقده الموت من يتزوج منها كل مرة . وكان له من زوجيه الأولين فتاتان من كل واحدة ، وأما زوجته الثالثة « بوتلباي » فقد أعقت بنتاً وثلاثة صبية ، كنت أنا أصغرهم

كان والدى محباً لطائفته صادق القول شجاعاً كريماً ، ولكنه كان ضيق الخلق . ولم يكن زاهداً فى الميول الحيوانية ، لأنه تزوج الرابعة وقد تجاوز الأربعين من عمره . غير انه كان مستقيماً جداً طاهر اليد ، وكان معروفاً باستقلال رأيه وعدم تحيزه ، سواء أئين أسرته ، أم بين الناس . أما خضوعه للحكومة فأمر معروف ذائع . تكلم أحد رجال السياسة فسب أميره ، ولكن « كاباغاندى » رد السباب بمثله . ولما طلب منه أن يعتذر رفض الاعتذار ، فسجن بضع ساعات ، ولم يفرج عنه الا بعد أن رؤى أنه من العيث أن ينثنى « غاندى » عن عزمه .

ولم يحاول أبى أن يثرى ، ولم يترك لنا من الحطام الا النزر اليسير . ولم يتلق العلم ولم يتعلم ، اللهم الا ما تجود به تجربة الحياة على الناس . كان جاهلاً بالتاريخ والجغرافية . غير أن تجاربه كانت كفيلة بأن تجعله قادراً على أن يحل أعوص المشكلات ، وان يسوس مثلت الرجال . ولم يفقه من الدين الا قليلا ، غير أنه استوعب تلك الثقافة التى تستوعب من كثرة

التردد على الهياكل والمعابد وسماع المناقشات التي كانت تدور حول الدين الهندوكي . وفي أواخر أيامه بدأ يقرأ « الغيتا » The Gita على برهمي مثقف من أصدقاء الأسرة ، واعتاد أن يردد بعض مقطوعات دينية جهرًا خلال صلاته .

أما الأثر الذي تركته أمي مطبوعاً في مخيلتي فأثر الزهد والقداسة . كانت متدينة شديدة التدين ، حتى أنها لم تكن تأكل وجباتها اليومية من غير أن تؤدي عنها صلاة حارة كلها تعبد وقنوت . أما زيارتها للمعبد فكانت من الواجبات اليومية الضرورية . ولا أذكر ، على قدر ما اتصل إليه ذا كرتي ، أنها أهملت يوماً صيامها الديني ، حتى أن المرض لم يكن سبباً في أن تفرط في هذا الواجب المقدس . مرضت مرة مع حلول الصوم ، غير أن المرض لم يكن يخل بالنظام أو يؤثر في القيام بالواجب الأبدي . ولم يكن ذا بال لديها أن توالى الصيام أياماً ، بل كانت تكتفي بوجبة واحدة في اليوم ، مادامت صائمة . وكانت تنذر في بعض الأحيان أن لا تأكل الا اذا طلعت الشمس ويزغت من خلال الغيوم ورأتها بعينيها . وكنا ونحن أطفالا نقف في مثل تلك الأيام متطلعين الى السماء ، وكلنا شغوف بأن يكون أول من يبشر أمه بيزوغ الشمس من خلال السحب الثقيلة . وبلاد الهند في خلال فصل الأمطار لا ترى الشمس الاغراقاً . ولا أزال أذكر أياماً كنت أهرع فيها الى أمي حالما تظهر الشمس بعد هطول الأمطار لأبشرها بالنبأ العظيم . فكانت تخرج لتراها

بعينها ، ولكن الشمس الطريدة تكون قد توارت وراء الغيوم قبل أن تكتحل عيناها بمرآها ، فتطوى صائمة ! وقد تقول . « غير مهم ! ان الله لا يريدني أن آكل » . ثم تمضى فى شؤونها وواجباتها كأن لم يكن شىء .

وكانت أمى ذات قدرة فى الحكم على حقائق الأشياء . وكانت محيطة بأحوال الحكومة ، حتى ان نساء الحاشية كن يقدرن فيها الذكاء . وكنت أصاحبها فى زياراتها متخذاً من طفولتى عذراً ، ولا أزال أذكر مناقشات كلها فطنة وادراك كانت تدور بينها وبين أرملة « ناقور صاحب » .

...

من هذين الأبوين ولدت فى « پورباندر » فى اليوم الثانى من اكتوبر سنة ١٨٩٦ ، وهناك قطعت طفولتى وذهبت الى المدرسة . لم احفظ جدول الضرب الا بكل صعوبة . والحقيقة انى لم أتعلم فى هذا الطور أنا والصبية الذين كانوا يتعلمون معى من شىء اللهم الا ذم المعلم . والظاهر أن عقلى فى ذلك العهد كان ضعيفاً ، كما كانت ذاكرتى فجأة غير ناضجة .

وكان عمري سبع سنوات لما ترك أبى « پورباندر » الى « راجكوت » ليكون عضواً فى الحاشية . فالحقنى بمدرسة ابتدائية ، فكنت فيها كما كنت فى الأولى تلميذاً عادياً متوسط القوة . غير انى لم أصل الى الثانية

عشرة حتى كنت في مدرسة ثانوية ، ولا أتذكر خلال هذه الاثني عشر عاماً من عمرى ، على طفولتى ، انى كذبت مرة واحدة ، سواء على معلمى ، أم على اخوانى فى التلمذة . وكنت خجولاً جداً ، متباعداً عن مرافقة الناس . وكانت عادتى أن أكون بباب المدرسة عند ماتدق ساعة البدء فى الدرس ، وأعود الى البيت تَوَّأً بعد الانصراف . وكنت أقطع المسافة من المدرسة الى البيت عدوًّا ، لأنى لم أكن احتمل أن أتكلّم مع أى انسان ، كما كنت أخاف أن يهزأ بى أى شخص كان .

...

وقعت خلال دراستى حادثة لا بأس بذكرها . وكان مستر « جيلز » Mr . Giles - مفتس التعليم قد وفد مرة يفتس ، فأملى علينا خمس كلمات ليعرف مقدار علمنا بالهجاء (فى اللغة الانجليزية) فأخطأت فى احداها ، وأراد المعلم أن ينهينى الى ذلك بطرف حذائه . ولكنى تعمّدت أن لا أنتبه ، لأنى شعرت بانه ليس فى مقدورى أن أغش التهجية من صحيفة جارى ، ولأن من واجب المعلم أن يحول دون الغش فى الامتحان . وكانت النتيجة أن جميع التلاميذ استطاعوا أن يكتبوا كل الكلمات صحيحة ماعداى . فأنا وحدى كنت بليداً . وكثيراً ماحاول المعلم أن يصرفنى عن هذه البلادة ، ولكن عبثاً . لأن الغش شيء لم يكن فى مقدورى أن آلفه .

على أن هذا الحادث لم يكن من شأنه أن ينزل من قدر أستاذى فى

نظري أو يقلل من احترامه في قلبي . فقد كنت بطبعي أعمى عن أن أعد نقائص الذين هم أكبر مني سناً . ولقد علمت بعد ذلك كثيراً من نقائص هذا الاستاذ . غير أن احترامى له ظل كما كان . لأنى شبيت على أن أطيع أوامر من هم أكبر مني ، لا أن أعد معاييرهم .

حادثتان أخريان في ذلك العهد لا تزالان عالقتين بذاكرتى . كانت عادتي أن أنصرف عن قراءة أى شىء خارج عن مجال درسى . وكنت أنجز درسى اليومى دائماً . لأنى كنت امتنع من أن يكلفنى أستاذى بواجب عملى ، كما كنت أكره أن أغشه . كنت أنجز دروسى ، ولكن عقلى كان دائماً بعيداً عنها . كنت أنجزها عائب العقل داهلاً عنها . ولكن مادمت قد أنجزتها كيفما كان الحال ، فلا عقاب بتكليف بواجبات أخرى . غير أنى بصدفة ما وقعت عيني على كتاب اشتراه أبى . وكانت رواية تدور حوادثها حول ولاء «شرافانا» لأبويه فقرأته بمنتهى ما يصل اليه الإعجاب وتذهب اليه اللذة . وفى ذلك الحين هبط منزلنا بعض البائعين التجولين ، فرأيت فيما رأيت معهم ، صورة تمثل «شرافانا» يحمل فى حمالة معلقة فى كتفيه أبويه الضريرين فى هجرة طويلة أزماها . ولقد ترك الكتاب والصورة فى ذهنى أثراً لا يمحي . قلت فى نفسى : « هو ذا مثال تحتذيه » . ولا يزال حياً فى ذهنى رثاء أبويه على موته ولوعتهما على فقدته . ولقد هزنى النغم من أعماقى فحفظته وأخذت أعزفه على «كونشرتينا - Concertina - اشتراها لى أبى .

والحادثة الثانية تتعلق بهذه برواية . فقد حصلت من أبي علي اذن بأن أشهد رواية تمثيلية يدعى بطلها « هاريشاندرا » . فملكنت منى هذه الرواية كل نواحي قلبي ، وسكنت معانيها في قرارة نفسي ، حتى لقد أخذت اتساءل « لماذا لا يكون كل الناس صادقين مثل هاريشاندرا » . ؟ اتباع الحق ، والبحث عن الحقيقة مع احتمال كل المحن والآلام التي تحملها « هاريشاندرا » ، كان الوحي الوحيد الذي بعثته هذه الرواية في نفسي . ولقد أخذت اعتقد في حقيقة « هاريشاندرا » كما لو كان شخصاً حياً ، لا شخصاً خيالياً ، كما أيقنت بحقيقة الحوادث التي حاكها المؤلف من حوله .

وكثيراً ما كنت أبكي كلما ذكرت هذا البطل وحوادث حياته السامية . هاريشاندرا وشراوانا ، لا يمكن إلا أن يكونا بطلين تاريخيين لا خياليين . ولا أشك مطلقاً في أنني لو قرأت هاتين الروايتين اليوم ، لهرتاً عواطفى بالقدر الذي هزتها به في أيامى الأولى .

...

لا بد لي في سياق كلامي هذا من أن أجرع بضع جرعات مريرة ، اذا ما كنت من عباد الحق على الوجه الأكمل . وأول ما أبدأ به هو أمر زواجي وأنا في الثالثة عشرة من عمري . ولا جرم أنى أغبط الشبان الذين أراهم اليوم من حولي ، وقد استطاعوا بحكم الزمان أن يفروا مما وقعت فيه وأنا في سنهم .

كنا ثلاثة اخوة . تزوج الأول . ثم صمم كبارء الأسرة على أن يتم زواج أخى وزواجى وأحد أولاد أعمامى فى يوم واحد . ولم يفكروا فى مصالحنا ولا أعاروا رغباتنا اهتماماً ، كأن الأمر لا يتعلق إلا بمرضايتهم وبمقدرتهم المالية على اتمام الزواج . وزواج الهندوكيين ليس بالأمر السهل ، بل معناه أن أسرتين قد تعانيان فى سبيله الحراب . ضياع فى المال والوقت ، وأشهر تقصى فى اعداد الملابس وأدوات الزينة وتهيئة « ميزانيات » من الأموال لأقامة الولائم . وكل من الأسرتين تحاول أن تبز الأخرى اسرافاً وتويعافى مظاهر الفرح والسرور . وكان أبى وعمى كلاهما كبير مسن ، وكنا آخر من يزوجان من أولادهما ، فامعنا فى الاسراف بفكرة ان هذا آخر أفراحهما .

لم يعرف نحن من الأمر شيئاً إلا أن هنالك أفراحاً تقام وزينات وغناء ورقصاً وملابس جديدة وولائم فخمة وبنات غريبات عنا أتين لنلهو بهن .

قلت من قبل انى كنت تلميذاً ، وظللت تلميذاً بعد زواجى . كنت أنا وأخوای ندرس فى مدرسة واحدة . فلم يكن للزواج من أثر فى حياتنا المدرسية الا ضياع سنة من أعمارنا ذهبت ببداء . وكم من شباب الهند يقاسون نفس هذه الخسائر الفادحة . على أنى مضيت بعد ذلك فى الدرس ، وكنت متوسط الذكاء والقوة ، غير أنى كنت حائراً على الدوام لرضى أساتذتى وعطفهم . وكنت لا أحتمل اللوم ولا التوبيخ .

عوقبت مرة عقاباً بذنب ، فبكيت بمرارة لا أذكر أنى بكيت بمثلها في كل أطوار حياتي .

كنت أمقت الألعاب الرياضية ، وكنت لا أذهب اليها الا مرغماً لأنها اجبارية . غير أنى أعتقد الآن أن من الواجب أن تكون من المواد الأساسية في برامج التعليم . أما سبب مقتي لها ، فيرجع إلى رغبتى الشديدة في أن أقوم بتمريض أبى ، وكان على فراش المرض ، وقد قربت نهايته . فكنت أترقب انقضاء الدروس لأهرع الى المنزل وأظل بجانبه أعنى به وأمرضه وأنفذ أوامره بكل دقة وعناية . فكانت الألعاب الرياضية تحول دون هذه الرغبة ، ولذلك توسلت الى مستر «جيمى» أن يعفني منها ، لأقوم بواجبى نحو أبى ، غير أنه لم يعبأ بتوسلاتى . وكان من الواجب أن نذهب فى الساعة الرابعة من كل سبت الى المدرسة لنقوم بالعبابا الرياضية ، ولم يكن معى ساعة أضبط بها الوقت ، وخذعتنى السحب واضطراب الطقس .

وكان التلاميذ قد بارحوا المدرسة قبل أن أصل اليها . ففى اليوم الثانى لاحظ مستر « جيمى » انى كنت عائماً ، ولما اعتذرت اليه بما حدث تماماً ، رفض أن يصدقنى ، وفرض على غرامة صغيرة كعقاب لى . لقد اتهمت بالكذب ! فالمنى هذا الاتهام كل الألم . وكيف أستطيع أن أثبت براءتى ؟ لم يكن من سبيل الى ذلك . فبكيت بحزن

عميق . ولكنى لم ألبث أن طرأ على ذهنى أن الرجل الصادق يجب أن يكون ذا عناية بأموره . وكان هذا الحادث آخر عهدى باهمال أى شىء يتعلق بمدرستى ودرسى . ولكنى لم يهدأ لى بال ، الا بعد أن رفعت عنى الغرامة التى فرضت على ، تلقاء اهمالى لا تلقاء كذبى .



الفصل التالى

أيام المدرسة

عقدت أواصر الصداقة بينى وبين أحد أقرانى فى التلمذة ، وكان معروفاً عنه أنه غير مستقيم الأخلاق ، فحذرتنى والدنى وحذرتنى زوجى . ولكى كنت من الكبر بحيث لا أخضع لنصائح زوجى ، وحاولت لأول مرة أن أعمل على الضد من ميول أى . كثيراً ما قاتلت الى أنى مع قرين سوء . ولكن أجبتهم « إنى أعرف أن صديق فيه العايب التى تذكرانها ، ولكنكما لاتعرفان فضائله . وانه على ذلك لا يستطيع أن يفسد أخلاقى ويقودنى فى طريق الرذيلة ، لأنى انما أقصد بصداقته أن أقوم معوجه على اعتقاد انه اذا استقام أصبح من أحسن الرجال . وانى لأرجوا أن لاتشفقا من مصاحبتى إياه » . وكان هذا الحادث أول ما حاولت أن أكون مصلحاً فى ناحية من نواحي الحياة .

لم تقنعا بما قلت ، ولكنهما تركتاى أقطع شوطى . فلم ألبث غير قليل حتى استبان لى أن حسابى قد طاش ، وعرفت أن من يريد أن يقوم اعوجاج شخص لايجب أن يكون على علاقة حبية به ، ولأن الصداقة الحقيقية صفة نفسية قلما توجد فى هذه الدنيا . ان الصداقة لن تكون ذات قيمة ولن تدوم الا بين الطبايع المؤلفة . والأصدقاء

يؤثر بعضهم في بعض تأثيراً عكسياً مطرداً . ولذا لا يكون من مجال لأن يصلح صديق من معائب صديقه أو يؤثر في اصلاح نقائصه . ورأى أن الانسان يجب أن يعتمد عن الارتباط بعلاقات عاطفية مع الناس ، لأنه بذلك إنما يكون أقرب الى التطوح مع الرذيلة منه الى اتباع الفضائل ، وان الذى يريد أن يعقد صداقة مع الله ، يجب اما أن يظل وحيداً ، واما ان يعقد صداقته مع الدنيا كلها . وقد أكون مخطئاً ، ولكن التجربة دلتني على ان محاولتي في عقد صداقة اخلاص ، كانت فشلاً مؤلماً .

كانت تحتاج « راجكوت » في ذلك العهد عاصفة من « الاصلاح » فقال لى صديقى يوماً ان كثيراً من مدرسى مدرستنا يأكلون اللحم ويعاقرون الخمور . ولم يكتف بهذا بل ذكر أسماء رجال معروفين من « راجكوت » قال أنهم يفعلون ذلك . فعجبت من الأمر ، وسألته السبب في هذا . فقال لى ما يأتى : « نحن أمة ضعيفة لاننا لانأكل اللحم ، والانجليز قادرون على حكمنا واخضاعنا لأنهم من آكلة اللحوم . وخذني مثلاً . فانك تعرف مقدار اصطبارى وجلدى واحتمالى المشقات ، فوق انى عداء معروف . والسبب في هذا انى آكل اللحوم . والذين يأكلون اللحوم لا يصابون بفساد الدم ، واذا جرحوا التأمّت جروحهم سريعاً . ولا يمكن أن تنتهم مدرسينا وغيرهم من الرجال النابهين ممن يأكلون اللحوم بأنهم مغفلون . أنهم يعرفون ماهذه العادة من فضائل .

وانه لو اوجب عليك أن تقتص أثرهم فليس في الدنيا مثل التجربة .
جرب وأنت تعرف مقدار العافية التي تلابس بدنك » .

كان أخى الأكبر قد وقع في الخطيئة ، فأيده وحاول اقناعي ، بأن
ضعيف الجسم وهو قوى . وكان صديقي متفوقاً في العدو الى مسافات
بعيدة ، وقادراً على الوثب العالي الى درجة مدهشة . فكان هذا سبباً
في أن أميل إلى مايقول . ولماذا لا أصبح قوياً مثله ؟

كنت جباناً . كان يغشاني الخوف من اللصوص والأشباح والأفاعى . ولم
أكن أجروء على أن أخرج من البيت اذا أظلمت الدنيا وناء الليل بكلكله
على الوجود . كانت الظلمة تفرزعى . وكان من المستحيل على أن أنام
في الظلام ، لأني كنت أتصور اذا أظلمت الدنيا من حولى أن اللصوص
أتون من ناحية ، والأشباح من أخرى ، والأفاعى من ثالثة . فكان لا بد
من ضوء في حجرتي . وكانت زوجي أكثر شجاعة مني ، فكان
هذا ينجلني . لم تكن تعرف خوفاً من أشباح أو أفاعى ، وكانت
تذهب حيثما شاءت في الظلام . وكان صاحبي يعرف في هذا الضعف ،
فكان يقول لي انه يستطيع أن يمسك في يده أفاعى حية ، وأن يقارع
للصوص ، وانه لا يعتقد في وجود الأشباح . وان كل هذا راجع الى
انه من أكلة اللحوم .

أحدث كل هذا في نفسي أثراً ، فهزمت . وبدأت نفسي تحدثني
بأن أكل اللحوم خير ، وانه سوف يجعلني قوياً شجاعاً ، وأن أهل

الهند اذا اعتادوا أكل اللحم استطاعوا أن يتغلبوا على الانجليز
ويطردوهم من بلادهم

حدثنا يوماً للبدء في هذه التجربة . وعزمنا على أن نبدأ بها في الخفاء .
فان « الغانديين » من « الفاشنافا » . Vaishnavas . وأبوأي من
أشد الناس استمسكاً بعري العقيدة . ومما يدل على هذا أن للأسرة
معابدها الخاصة بها ، وكانت العقيدة « الجانية » ^(١) - Jainism -
عظيمة الأثر في « كوجرات » ، والامتناع عن أكل اللحوم كعقيدة
دينية يستمسك بها أهل الجانية والفايشنافية ، لم تطهر في طرف من
أطراف الهند بما طهرت به من قوة الأثر في « كوجرات » . وهذه
هي العقيدة التي شبيت في أحضانها وتحت سلطانها . أضف إلى ذلك
اني كنت شديد الاحترام لأبوى كثير الخضوع والولاء لهما . وكنت
على يقين من انهما يموتان تَوّاً اذا علما اني آكل اللحوم ، واني انتهك
حرمة العقيدة المقدسة . وكان حبي للصدق والحق يجعلني شديد الالباء .
ولم يكن في وسعي أن أنكث على نفسي وأعالطها في حقيقة اني بأكل
اللحوم أغس والدي واني أموه عليهما . ولكن عقلي كان يتجه الى
« الاصلاح » . لم يكن الأمر عندي راجعاً إلى ارضاء شهوة البطن . بل

(١) ظهرت العقيدة الجانية في الهند في نفس الوقت الذي ظهرت فيه البوذية .
ومن مبادئها الاساسية عدم الاعتداء على الارواح وساب أشخاص نعمة الحياة .
وكانت هذه العقيدة من أشد العقائد أثراً في نفوس الغانديين منذ أزمان طويلة .

كنت أريد أن أصبح قوياً شجاعاً متين العضلات مشدود الأضلاع ،
وأن يصبح بقية أهل الهند على هذه الصورة ، فنستطيع أن نهزم
الانجليز وأن نحرر الهند . ولم أكن حتى ذلك العهد قد سمعت كلمة
« سواراج » (الحكم الذاتى) ولكنى كنت أعرف مامعنى الحرية .
ولقد أعماني حب « الإصلاح » كما كان احتياطى فى أن آكل اللحم
سراً ، سبباً فى أن أتطوح مع الوهم ، فأقول فى نفسى ان احفاء الفعل
عن أبوى كاف فى داته لأن يجعل فعل الشر بعيداً عن أن يكون تناقضاً
مع الصدق وحب الحق .

وآذنت الساعة . وانه ليصعب على أن أصف حالتى وصفاً صحيحاً .
اكتنفتنى حب « الإصلاح » من ناحية ، وساورتنى من جهة أخرى
جدة الأمر ، أرى فى فعله استدباراً لعهد واستقبالا لعهد آخر فى الحياة ،
ثم التخفى لاتيان ذلك الفعل ، شأن اللصوص . ولكننا ذهبنا معا نفتش
عن مكان منفرد بجوار النهر ، وهناك رأيت اللحم لأول مرة فى
حياتى . وكان معنا خبز صنع على الطريقة الانجليزية . فلم اتذوق شيئاً
منه . فاللحم كان فى فمى كأنه جلد صفيق شديد التماسك ، فلم أسغه ،
وشعرت بأنى مريض ، فتركت المكان فى الحال .

أمضيت بعد ذلك ليلة شديدة الوطأة . اعترانى كابوس مخيف ،
فكنت كلما هممت بأن أنام ، خيل الى أن عنزاً مذبوحة ينزف دمها
وتتخبط بجوارى ، فأهب مذعوراً فزعاً ، وفى قلبى أشد ما يمكن

أن يتصور من ألم الضمير

ولكن كنت أذكر نفسى بأن مافعلت كان واجباً ، فتروح هذه الفكرة عنى بعض الشيء ، واستعيد شيئاً من صفاء النفس . ولم يكن صديقي من الذين نثنون عن عزمهم بسهولة ، فأخذ يطهى ألواناً من الطعام يجعل ظهور اللحم فيها أقل تعرضاً للنظر . ثم تدرجنا من ذلك إلى الأكل فى مطعم فاخر الرياش ، كان صديقي على معرفة بطاهيه ، بدل أن نتبذ بقعة مهجورة من ساطىء الهر .

وقل بعد ذلك أن أتناول طعامى فى البيت ، فكنت أعتذر لأمى كلما جهزت لى طعاماً بأى مضطرب المعدة أو أوى مريض . وكنت أشعر بأى أ كذب ، وانى أ كذب على أمى ! وكنت أعلم أنه ما من شىء فى الحياة يؤثر فى والدى بقدر ما يؤثر فيهما معرفتهما بأنى أصبحت من أكلة اللحوم . فكانت هذه الفكرة تنهس قلبى ولا تريح ضميرى ساعة واحدة . وما بلغت هذه الحالة حتى أخذت نفسى يتحدثنى قائلة : « انه وان يكن من الواجب أن آكل اللحوم ، وأن أتناول هذا الطعام ابتغاء « الاصلاح » فان الكذب على الأيوين وغشهما ، أنكر من الامتناع عن أكل اللحوم . فيجب اذن أن لا أعود الى هذا العمل مادام أبواى على قيد الحياة . فاذا طواهما التراب ، فهناك أكون حراً ، فأكل اللحوم علناً بدون خشية ولكن قبل أن تحل الساعة ، فلا تمتنع عن أكل اللحوم » . ومنذ تلك الساعة لم أذق اللحم أبداً . ولكن

العظة الصحيحة هي أنى حاولت أن أصلح فاسداً ، ففسد صلاحى ، من غير أن أشعر بأنى كنت سائراً نحو التردى فى هذه الحمأة الدنيئة . وتعدى تأثير هذه الصداقة الى علاقتى الروحية وأمانتى لزوجى . أخذنى صديق يوماً الى ماخورة من مواخير المومسات ، ودفع عني الأجر المطلوب . ولقد زودنى بالنصائح اللازمة وأحكم الترتيب كل احكام ! هانذا أخذت أتردى بين أنياب الرذيلة ، ولكن الله الرحيم رحمى من نفسى ، وصاننى من غوايتها ، فردنى أعمى أصم فى تلك الماخورة ، وخرجت منها بدون أن أتلوث بخطيئة الفعل . شعرت بأن رجولتى قد جرحت ، وأن الأرض تميدنى لتبتلعنى ، عما وخجلاً . ومنذ تلك الساعة لأذكر الحادثة الا وأرسلت فى قلبى بشكران حار إلى الله ، جزاء ما صرفنى عن هذا الفعل السيئ . وانى لأذكر أربع حوادث من هذا النوع فى حياتى ، حدمنى الحظ ، لاقوة الارادة ، فى الفرار من الوقوع فى خطيئتها . أما اذا نظرنا فى مثل هذه الحوادث من الوجهة الأخلاقية الصرفة ، فلا يمكن أن نعتبرها أكثر من غيبوبة أدبية ، تموت فيها المساعر والعقائد . ذلك لأننى أعتقد أن تحرك الشهوة البدنية لا يقل نقصاً عن اتيان الفعل نفسه . اما اذا نظرنا فيها من وجهة الحياة العادية ، فإن الرجل الذى يفر من ارتكاب خطيئة يعتبر ناجياً ، ولا أشك فى أنى لم أعد القاعدة فى تجاربى التى جرت هذا المجرى . وفى الحياة أفعال يعتبر الفرار من إتيانها عناية الهية تنجى الشخص والذنب هم

حوله من الناس . وبمجرد أن يرتد الانسان الى مشاعره ، ويستيقظ ضميره ، فانه لايتوجه فى الحياة الى شىء ، اللهم الا للمراحم القدسية ، يشكرها على فراره من العصيان . وانى لأعلم أن الانسان قد يخضع للغواية وقد يتغلب عليه الايحاء والاغواء فيخطيء . ولكن كثيراً ما تتدخل العناية العليا فى شؤون الكثيرين ، فتنقذهم رغم أنوفهم . اما كيف يحدث ذلك ؟ وإلى اى حد تذهب حرية الانسان ؟ وإلى اى حد يخضع الانسان لحكم ما هو قائم حوله ؟ وأما كيف يتغلغل القدر فى مسارح الحياة الانسانية ، فذلك سر عامص ، وسيبقى سراً إلى الأبد .

كل هذا لم يكن كافياً لأن يفتح عينى على شىء من رذائل صديقى وخطر مصاحبته . وكان هذا العمى النفسى ، سبباً فى أن أجرع بضعة جرعات مريرة ، قبل أن تتفتح عينى على شىء من نقائصه ، عبرت عنها أفعال جاءت عرضاً وعلى غير انتظار . كان صديقى أحد الأسباب الأساسية التى قامت لاشعال نار الخلاف بينى وبين زوجى . فقد كنت زوجاً محبباً غيوراً ، وعرف فى صديقى هذه الصفات ، فأخذ يذكى النار الكامنة ليشعلها ويرسل بلهبها فى صفاء الأسرة قوياً محطماً . ولم أكن أشك فى صدقه . غير انى حتى اليوم لأستطيع أن أغفر لنفسى ما ارتكبت من قسوة ازاء زوجى ، وجرائمى التى تحملتها صابرة . ولم يكن لها من سبب إلا أخبار صديقى هذا . وليس فى العالم من يحتمل ما فعلته مع زوجى الا الزوجة الهندوكية . وهذا هو السبب فى انى اعتبر

أن المرأة معنى مجسما من التسامح . فخادمك يترك خدمتك . وولدك يفر من تحت سقفك ، وصديقك يقطع معك علاقته . أما الزوجة ، حتى اذا شككت في زوجها وملأها الريبة ، فانها تظل هادئة . ولكن اذا شك الرجل ، فهدمها ثمن الشك ، وسقوطها وتشردا عربون الريبة . الى أين تذهب ؟ ان الزوجة الهندوكية لا تستطيع أن تطلب الطلاق في محكمة . ان القانون لا يحميها . ولن أسامح نفسي أو أغفر لها خطيئة اني كنت سبياً في أن تصل الحال زوجي إلى هذا المآل ، مآل اليأس والقنوط .

ان سرطان الشك لم تقتلع جذوره من نفسى الا بعد أن فهمت «الاهمسا» Ahimsa مع كل مايرتبط بها من العلاقات والاعتبارات . هنالك رأيت عظمة البرهماشاريا – Brahmacharya – وتحققت أن الزوجة ليست رفيقة للزوج ، بل رفيقة ومعينة في الحياة ، وأن لها حق أن تقسم مسراته واحزانه ، وانها حرة كالرجل في أن تختار ما يلد لها في الحياة من سبل الحياة . وانى كلما ذكرت تلك الأيام السود ، أيام الشك والريبة ، ملأني الحزن العميق والألم المص ، تلقاء ما كنت فيه من الغفلة والتهاب الشهوة والقسوة ، واحتقر تلك الثقة العمياء التي وضعتها في صديقي .

...

حدث في أيامى المدرسية وقبلها بقليل ، انى عكفت وأحسد أقاربي

على عادة التدخين . ولم نكن نعرف ما هو التدخين . ولكنى وإياه تصورنا فى أن نرسل بالدخان فيخرج حلقات كالسحاب ، لذة . وكان عمى من كدار المدخين ، وكنا كلما رأيناه يدخن حاولنا أن نحدو حدوه . ولكن لم يكن لدينا نقود . فأخذنا نلتقط أعقاب السجائر وندخنها . ولم يتيسر لنا أن نجد الأعقاب دائماً ، ولم يكن فيها من الدخان ما يكفى لتحقيق غرضنا . فبدأنا نسرق بضعة دراهمات من جيب الخادم لنشتري بها سجائر هندية . وأين نجبئها؟ كانت هذه المشكلة سبباً فى أن يدخن بعض أوراق الأشجار التى سمعنا أنها يمكن أن ترسل الدخان كما يرسله التبغ ، فجمعنا منها قدرًا وأخذنا ندخنه . غير أن حب الاستقلال أخذياً كل فى قلبنا ، لأن خوفنا من أن ندخن أمام من هم أكبر منا سنًا ، جعلنا نشعر بأن هذه الحياة لا قيمة لها من غير أن يكون الإنسان حرًا مستقلاً بنفسه . وفى النهاية ، وكرها لهذه الحياة ، صممت وقريبي هذا على أن نتنحّر . ولكن كيف نتنحّر؟ ومن أين نحصل على السم؟ سمعنا أن بزور الداتورة سم نافع . فذهبنا الى الغابة نبحث عن حبها وجمعنا شيئاً منه ، وحددنا المساء لارتكاب جريمة الانتحار . فذهبنا الى معبد « كيدارجى مندر » ووضعنا زيتاً سائلاً فى مصباح المبد ، وزرنا المقام الأقدس ، ومن ثم أخذنا نبحت عن زاوية منعزلة . غير أن الشجاعة خانتنا . قلنا لنفرض أننا لم نمت توا؟ وما هو الخير الذى نجنّيه من أن نتنحّر؟ لماذا لا نستقل بأنفسنا ونكفيها شر الموت؟ ومع كل هذا ازدرد كل منا

حبتين أو ثلاثاً ، ولم نجروُ أن نزدرد أكثر من هذا العدد . ولم نكد نزدرد الحبات حتى تملكنا شعور الخوف من الموت . فهرعنا الى المقام الأقدس ، وعاهدناه على أن لا نرجع الى تنفيذ فكرة الانتحار ، وأن نفلع عنها . والحق أن تنفيذ فكرة الانتحار ليس سهلاً كتصورها . وما سمعت منذ تلك الساعة شخصاً يهدد بالانتحار ، الا واعتقدت أنه بعيد عن الجد ، وانه الى الهزل أقرب .

لقد صرفتنا فكرة الانتحار عن تدخين أعقاب السجائر وعن سرقة نقود الخادم . لم أدخن بعد ذلك قط . وأخذت هذه العادة تلوح لى كأنها ضرر وقذارة . وكلما فكرت فى الأمر ، لا أستطيع أن أعرف السبب فى انتشار عادة التدخين هذا الانتشار المريع فى كافة أنحاء العالم . وانى لأختنق اذا سافرت فى قطار عبق جوه بدخان التبغ ، وأشعر شعوراً عجبياً بحاجة الى الهواء الطلق النقي .

لم تكن جريمة السرقة من الخادم آخر جريمة ارتكبتها . أما السرقة الثانية فحدثت ولى من العمر خمس عشرة سنة ، فان أخى الذى أغوانى وصديقى على أكل اللحم ، كان قد استدان خمساً وعشرين روبية ، وكان بيده حلية تتدلى منها قطع ذهبية ، فسرقت قطعة منها وبعتها وأديت عنه الدين . ولكن هذا لم يكن الشيء الذى تحتمله نفسى . فصممت على أن لا أسرق مرة أخرى . وحاولت أن أعترف لأبى ، ولكن لم أجروُ على الكلام . بيد أنى لم أمتنع خوف أن يضربنى أبى ، فانى

لا أذكر أنه ضرب واحداً منا طول حياته . ولكنى خشيت الألم الذى أحدثه فى نفسه باعترافى . وأخيراً صممت على أن أكتب الاعتراف بيدي، وأرسل به الى أبى طالباً منه العفو والغفران . فكتبته على قصاصة صغيرة وسلمته اليه يدأ بيد . ولم أعترف بجريمتى فقط ، بل طلبت منه أن يعاقبنى عليها، ورجوته أن لا يعاقب نفسه بالاسترسال مع الحزن والألم، ووعدته أن لا أسرق مرة أخرى .

كنت أهتز رعدة من مفرق رأسى الى أخمصى، لما قدمت له الاعتراف، وكان يشكو ناسوراً حاداً فرقد مستلقيا على فراشة، الذى لم يكن سوى دكة من الخشب الصلب . فلما قرأ الورقة تساقطت الدموع من عينيه كاللآلىء البيضاء حتى بللت الورقة ، ثم أغمض عينيه برهة مستغرقاً فى لجة من الأفكار، ثم مزق الورقة . فبكيت لبكائه وألمه . ولو كنت فناً لرسمت صورة رائعة من هذا المنظر . فانه لا يزال حياً فى خاطرى كما وقع تماماً . ولقد طهرت تلك الدموع البريئة قلبي وغسلت خطيئاتي . ولن يدرك حقيقة هذا الحب الا من يكابده .

كان هذا الدرس بمثابة وضع قواعد «الاهمسا» ^(١) موضع التنفيذ

(١) الاهمسا - وقد مرت بنا من قبل - بالمعنى الحرفى البراءة وعدم استعمال العنف . وهى فى هذا المعنى تعادل معنى الحب . والذى يظهر من هذه العسكرة أن عدم التعاون والعصيان المدنى مع الامتناع عن استعمال العنف، وهى الوسائل الأساسية التى يستخدمها عاندى لمقاومة الاستعمار الانجليزى فى الهند، منتحلة أصلاً من مبادئ دينية صرفة . أما البراهما شاريا التى مرت فى صفحة أخرى فى المعنى الحرفى الخلق الذى يؤدى إلى الاتصال بالله . ومن أركانه ضبط النفس والعفة والتقشف .

والتطبيق . لم أستدوق من هذا الدرس فى ذلك العهد إلا أنه عطف أبوى .
 أما اليوم فأى أعتقد انه « الالهسا » فى براءته وطهره ، فان
 « الالهسا » اذا أحاط وتغلب ، فانه يغير كل شىء يمسه . لاحد
 لقوته ، ولا نهاية لأثره . ان أئى لم يكن فى التسامح بحيث يذهب به
 حب المغفرة الى الحد الذى وصل اليه . فلقد ظننت أنه سوف يغضب ،
 وان غضبه سوف يلهب ، فيرسل بكلمات حارحة ، وأنه سوف يضرب
 جبينه بيده . ولكنه كان هادئاً . وانى لأعتقد أن هدوءه كان راجعاً الى
 صراحة اعترافى . وان اعترافاً ريثاً مصحوباً بوعده صريح بعدم
 العودة الى ارتكاب الحرم ، اذا تقدم به المحرم الى الشخص الذى يحق
 له أن يتقبل هذا الاعتراف ، لأننى صورة من صور التوبة . ولقد شعرت
 بأن اعترافى قد طيب نفس أئى وأنه أصبح وانقأبى وزاد حبه لى
 وعطفه على .

كنت اذ ذاك فى السادسة عشرة من عمرى ، وكان أبى مريضاً طريح
 الفراش ، ويقوم بتمريضه خادم عجوز وأمى وأنا . وقمت له بعمل
 الممرضة ، فكنت أغسل جرحه وأضمده وأعطيه الأدوية كلما حان وقت
 تناولها . وكنت أكب كل ليلة على تدليك قدميه ورجليه ، ولا أذهب الى
 فراشى الا بعد أن يأذن لى أو بعد أن يأخذه النعاس . وكانت هذه الخدمة
 عزيزة عندى شيقة لى . ولا أتذكر مطلقاً انى أهملتها ، بل كنت

أُصرف كل وقتى بعد المدرسة فى العناية بتمريض أبى . وما كنت أخرج للنزهة قليلاً إلا إذا اذن لى ، أو شعر بأنه أحسن حالا . وأذنت الساعة الرهيبة . وكان عمى فى « راجكوت » وأذكر أنه أتى على عجل عند ما علم باشتداد العلة على أخيه . وكان ينام بجواره ويمرضه بنفسه . كانت الساعة الحادية عشرة ، وكنت أدلك قدمى والدى ، ثم آويت الى حجرتى ، ولكن الخادم طرق الباب بعد بضع دقائق معلناً أن أبى قد اشتدت به العلة . ولكنى شعرت شعوراً عميقاً بما يختفى وراء هذه الجملة من المعانى . وسرعان ما صدق حدسى . فان والدى كان قد فارق الحياة .



الفصل الثالث

با كورة الشباب

كنت فى المدرسة من السادسة أو السابعة الى السادسة عشرة من عمرى ، حيث تعلمت كثيراً من الأشياء ما عدا الدين . ولقد أخفقت فى أن ألقى من أساتذتى ما يمكن أن يمدونى به من معلومات ، من غير أن أكدهم وأجهدهم . ومع هذا استطعت أن ألتقط مبادئ دينية استمعتها من يثتى تسقطا من هنا وهناك . وأعنى « بالدين » اصطلاحاً فى أوسع ما يحتمل اللفظ من المعانى ، أنه « تحقيق الذات » .

ولدت مطوقاً بمعتقد الفايشنافا - Vaishnava - ولذلك كثيراً ما كنت أغشى معبد الأسرة . ولكن العبادة فى المعابد لم تكن تلائم مزاجى . فانى أكره فيها مظاهرها ونخامتها المصطنعة ، وكذلك سمعت أن كثيراً ما يقع فى المعابد من الأعمال ما لا يتفق والآداب ، فزهدت فيها زهداً تاماً .

ولكن ما فاتنى من العلم بزهدى فى المعابد تلقيته من مربيتى ، وهى خادمة عجوز من الأسرة لا أزال أذكر عطفها على وحنوها الى الآن .

ولقد اقترحت على يوماً أن أكرر اسم « راما » ^(١) كعلاج أنخلص به من خوفي من الأشباح . ولكن كان لى من الثقة بها ، أكثر مما كان لى بحقيقة العلاج الذى وصفت ، غير أن سنى سمحت لعقلى أن يتأثر بما وصفت من علاج خيل إليها أنه يذهب بما أحس من خوف . والتربية الصالحة اذا غرست فى سنى السباب ، فلا بد من أن تترك أثرها الثابت فى النفس . ويلوح لى أن ما غرست هذه المرأة الصالحة فى نفسى من الالتجاء الى ذكر « راما » لأطرد الخوف ، قد نبت فى نفسى ، حتى أنى كثيراً ما ألحاً الى الاسم أكرره فى أيام محنى ، فيروح عنى ، ويزيح ما يثقل على صدرى من الهموم .

فى ذلك الوقت حاول أحد أعمامى ، وكان من أتباع « الرامايانا » - Ramayana - أن يلقننى وأخى الثانى مبادئ « راما راكشا » - Rama Raksha - فأخذنا نستظهر المبادئ صم ، واتخذنا بلاوتها عن طهر فلب عادة عكفنا عليها كل صباح بعد الاستحمام ، وطللنا نتلو ما حفظناه طيلة ما بقينا فى « پور بندار » ولكننا نسينا كل شىء بمجرد أن حللنا فى « راجكوت » ذلك لأننى لم أكن أعتقد أنى بهذه المبادئ

(١) « رامانا » - Ramana - كلمة تكرر تعبداً وتقرباً من الله . و « راما » عبارة عن نحمد الله فى الذات البشرية وحلوله فيها كما وضعت فى قصيدة « رامانا » الايقاعية التى وضعها تولاسيداس - Tolasidas - وهذه القصيدة فى الهدية مقتبسة من الأصل السنسكريتى الذى وضعه فالميكي - Valmiki - .

و كنت أتلوها لازهو بأنى أستطيع أن أتلو « رامارا كشا » من غير خطأ فى تخريج الحروف والكلمات . أما الذى ترك أثراً فى نفسى لا يزول فقرة « الرامانا » تأليف « تولاسيداس » مع أبى . وكان أبى خلال مرض وفاته قد أمضى بعض الزمن فى « پوربندار » ، وتعود أن يسمع تلاوة « الرامانا » كل ليلة وكان الذى يتلوها « لاوامهاراج » من أخص أتباع « راما » وأكثرهم تأثراً به . وكان يقول انه استطاع أن يشفى نفسه من مرض الحزام بغير عقاقير ، بأن لف على الأعضاء المصابة أوراق شجرة مقدسة فى معبد « بولسفار » وهبت للاله الكبير ، وبأن أخذ يكرر اسم « راما » . وقد يكون هذا صحيحاً أو غير صحيح . غير أننا صدقنا صحة الرواية على كل حال ، لان جسم الرجل كان فى ذلك الوقت سليماً من الجذام . وكان ذا صوت شجى ونرات حزينة ، وكان يرتل ثنائيات أو رباعيات مستغرقة كل الاستغراق ، حتى انه يجرف معه كل سامعيه ، ويستولى على لبهم . وكنت فى الثالثة عشرة من عمرى اذ ذاك . ولكى أتذكر أن ترانيله اختلبنى وأوقعتنى فى شراكه . وكان هذا سبباً فى افتتاحى « بالرامانا » . وانى لأعتقد الآن أن هذا الكتاب أعظم كتاب تعبدى ظهر فى العالم .

تعلمت فى « راجكوت » كيف أكون متسامحاً ازاء كل فروع المذهب الهندوكى والديانات الأخرى ، وكنت مع أبى وأمى كثيراً ما زور معابد شيفا وراما ، وكثيراً ما كان يزورنا رجال من مختلف

المذاهب ويتناولون بالكلام مختلف المسائل الدينية . وكان يزورنا مسلمون يحدّثوننا عن حقيقة معتقدهم . وكنت أسمع هذه الأحاديث وما يدور حولها من المناقشات بجانب سرير أبي وأنا أمرضه . وكان هذا سبباً في أن لا أشعر بأثر للتعصب لمذهب أو ضد مذهب ما .

شدت النصرانية وحدها عن هذه القاعدة عندي . فقد تكوّن في وجداني نوع من الكراهية لها . ولذلك سبب . فقد اعتاد مبشرو هذه الديانة أن يقفوا على مقربة من المدرسة العليا ، وهناك يمحطون الهندوكيين سباً ولعنا ويوسعون آلهتهم تحقيراً . ولم أكن أستطيع أن أهضم هذا . وقفت مرة أستمع إليهم . وكانت الأولى والأخيرة . فلم أحاول أن أعيد التجربة مرة أخرى . وسمعت في ذلك الحين عن هندوكى معروف انتحل المسيحية . فأصبح حديث المدينة كلها يدور حول تعميده ، وكيف انه أكل لحم العجل وشرب النبيذ وكيف أبدل زيه ، فلبس الملابس الأوروبية وغطى رأسه بقبعة . ولقد أثر هذا في أعصابي كل تأثير . حتى لقد حدثتني نفسى بأن ديناً يرغب معتنقيه على أكل اللحم وتعاطى المشروبات الروحية وتغيير زيهم ، ليس جديراً بأن يكون ديناً ، وليس خليقاً بأن يسمى ديناً . وطرق سمى أن ذلك « المؤمن » الجديد أخذ يهزأ بدين أسلافه وعاداتهم ووطنهم الذى هو وطنه . وكانت كل هذه الأشياء سبباً في أنى شعرت بكراهية نحو النصرانية .

على الرغم من أنى رضت نفسى على أن أكون متسامحاً نحو الأديان

الأخرى ، فان ذلك لم يكن معناه انى كنت أعتقد فى وجود الله . وحدث
أنى قرأت فى ذلك الحين كتاباً دينياً ^(١) كان من بين مقتنيات أبى ، ولم
تترك قراءتى لما تضمن من أقاصيص الخلق وأصل الانسان اى أثر فى
نفسى ، بل على الضد من ذلك أحدثت فى نفسى زعة الى الالحاد
وانكار وجود الله .

وكان لى ابن عم احترم فيه الكفاءة العقلية وقوة الحكم . فلجأت
اليه أثير شكوكى لديه وأستعين به عليها ، فلم يستطع أن يذلل مصاعبى
أو يحل مشكلة واحدة من مشاكلى العقلية . واخيراً تركنى قائلاً :
« عندما تكبر يمكنك أن تحل هذه المشكلات بنفسك وهذه مسائل لا يجب
أن تكون مشاغل من هم فى مثل عمرك » فسكت . ولكن لم يهدأ بالى .
على أية حال لم يستطع هذا الكتاب بشرائمه واقاصيصه أن يعلمنى
الاهمسا - Ahimsa ولكن شيئاً واحداً ثبتت أصوله فى نفسى اذذاك ،
ذلك هو الاعتقاد بأن الاحساس الأدبى اساس كل الأشياء ، وان الحق
هو النواة الأولى التى تتكون منها شريعة الآداب العليا . ولقد أصبح
الحق غايتى الوحيدة فى الحياة ، فأخذ يعظم فى نفسى ويزيد قدره فى يقينى
يوماً بعد يوم . ومنذ ذلك الوقت اخذ ادراكى لمعنى الحق يعظم وتترامى
أطرافه .

شغفت بعد ذلك بقطعة شعرية باللغة الكوجراتية ملكت منى عقلى

(١) المانو سمرتین - Manusmriti — شريعة هندوكية قديمة جداً تحدد نظام
الطائفة المسماة بهذا الاسم . والكتاب يحتوى على أساطير فى أصل الخلق وأصل الانسان .

وكل قلبى . وكان عنوانها « قابل الاساءة بالاحسان » فأصبح مبدئى الأول الذى يقود خطواتى ، بل أمسى شهوة محددة حاحمة ، حتى انى أخذت أطبقه فى الحياة العملية .

...

بعد ان اجتزت امتحان القبول ، أسار على من هم أكبر منى سنًا أن أتابع درسى فى الكلية . وكان امامى حامعتان ، إحداها فى « بافنجار » والأخرى فى « بومباى » وكانت أولاهما أقل نفقة، فاخترتها ، على ان التحق بكلية « ساملداس » . فذهبت، ولكن لم ألبث ان وجدت نفسى فى بحر لحى . كل شىء كان صعباً . وكل شىء كان عميقاً . ولم أستطع أن استوعب محاضرات الأساتذة . ولم يكن ذلك راجعاً اليهم . فان أساتذة هذه الكلية كانوا من الطراز الأول . ولكى كنت نجاً ، غير ناضج . وفى نهاية الدورة الدراسية الأولى ، عدت الى البيت .

وكان « مافجى وافي » وهو برهمى أريب واسع الاطلاع ، مرجع الأسرة ومحل استرشادها . فزارنا خلال الاجازة المدرسية ، وسأل أمى وأخى الأكبر عن دراستى وكيف أسير فيها ، فلما علم انى فى كلية « ساملداس » اقترح ان أسافر الى انجلترا لأتخرج فى القانون . وكانت هذه امنيتى . فأفعم الاقتراح قلبى سروراً لأمرين : الأول انى كنت ألاقى صعوبات جمة فى الكلية . والثانى انى أردت أن أرى بلاداً جديدة.

غير أنى أردت أن ألتحق بكلية أدرس فيها الطب ، فاعترض أخى قائلا ان أبى كان يبغيض هذه المهنة ، وكان يقصدك نقوله ان « الفايشنافا » لاشأن لهم بتشريح الجثث ، بل أراد أن تكون محامياً . وكان الاعتراض الثانى على درس الطب ان هذه المهنة لا تهينى لأن أكون « ديوانا » كما كان أبى ، وانى اذا أصبحت « ديوانا » أو أكثر من « ديوان » استطعت أن أقوم بأعناء أسرتى .

...

لم يتم هذا الحديث ، وينصرف البرهمى ، حتى أخذت انى العلالى والقصور ، ولكن فى الهواء . بدأ أخى بفكر الى أين يرسل نى ؟ وهل من الحصافة أن يرسل شاب متلى وحيداً الى بلاد أجنبية ؟ أما أمى فقد اضطرب فسكرها واحتلط عليها الأمر . لأنها كانت تمقت فكرة أنى مفارقتها ومبعتد عنها . وحاولت أن تقيم العقبات فى سبيل سفرى فقالت « ان عمك أسن من فى الأسرة الآن ، فيجب أولاً أن تشاوره ، فاذا وافق أمكننا أن ننظر فى الأمر » .

فلما قابلت عمى وأطلعته على جلية الأمر فكر قليلاً ثم قال : « لست أدرى ان كان هذا العمل يتفق ومبادئ ديننا . وكل ما يصل اليه علمى فى هذا الموضوع لا يخلو من شك . فانى عندما أقابل كبار المحامين لأرى فارقا بين حياتهم وحياة الأوروبيين . انهم لا يتقيدون بقيد فيما يأكلون ، ولفائف التبغ لا تفارق شفاهم . وهم يلبسون بلا خجل كما يلبس الانجليز .

وكل هذا مناقض لتقاليد أسرتنا . واني لمزع حجا . ولم يبق لي في الحياة الاسنوات معدودات . وكيف تتصور وأنا على حافة القبر ، أن آذن لك أن تذهب الى انجلترا وان تقطع بيننا وبينك البحار ؟ ولكنني لن أقف في طريقك . فالأمر اذن يرجع الى موافقة أمك . فاذا وافقت خسار ع بالسفر . قل لها اني لن أ تدخل في الأمر . أما اذا سافرت ، فاني أباركك . »

فلما رجعت الى « راجكوت » ونقلت الى أمي مقال عمي ، ترددت ونفرت . فقد قيل لها ان الذين يذهبون الى انجلترا يبيعون الفضائل بالذائل . وقيل لها انهم يأكلون اللحوم ، وانهم لا يستطيعون أن يعيشوا من غير أن يتعاطوا المشروبات الروحية . وسألتني كيف أتصرف ازاء هذا ؟ فقلت لها ، « يا أمي العزيزة ، الاتقين بي ؟ فاني لن اكذبك شيئا . واني لاقسم لك بأني لن أقرب شيئا من هذه الأشياء . » فقالت استطيع أن اثق بك واعتمد عليك . ولكن كيف تكون هذه الثقة وانت في بلاد نازحة ، وديار بارحة . اني مرتبكة ولست أدري ماذا أفعل . سوف أسأل « سوامي » - Swami -

وكان « سوامي » بالمولد والدم من طائفة « البانيا » كالغانديين . ولكنه انقلب كاهنا من طائفة « الجانيين » - Jani - وكان من مستشاري الأسرة كالبرهمي الذي مر ذكره . فأمدني بمساعدته ، وقال سأخذ عليه اليهود الثلاثة وأقيده بالمواثيق . وبعدها استطع أن يذهب

حيث شاء. فأقسمت وتمهدت بأن أعيش في إنجلترا عيش الفردية الصرفة ،
وان لا أقرب الحمر أو اللحم . فلما انتهيت من قسمي ، باركتني أمي ،
وسمحت لي بمغادرة بلادى .

وسارعت الى « بومباي » تاركا زوجي ومعها طفل لا يتجاوز بضعة
أشهر . ولكني لم أصل الى هذا الثغر حتى التف بأخي الأصدقاء ، وقالوا
له ان المحيط الهندي يكون نائراً خلال شهرى يونية ويولية . ولما كانت
هذه سفرتى الأولى ، وجب أن أرجىء سفرى الى نوفمبر . وقال آخر
بأن باخرة غرقت خلال عاصفة . وكان هذا سببا في أن يتململ أخى .
ورفض أن يتحمل مسؤولية السماح لي بالسفر توأ . فتركتني في بومباي
مع صديق وعاد الى « راجكوت » ليؤدى أعماله ، وترك نفقات السفر
مع أحد اقاربه ، واوصى بي الأصدقاء أن يقدموا الى ما أحتاج اليه من
المساعدات . ومرت بي الأيام والساعات طويلة متناقلة في « بومباي »
الا انى كنت أحلم بإنجلترا وما فيها .

...

وأخذ رجال طائفتى الدينية يبدون اعتراضاتهم على سفرى الى الخارج ،
بل بلغ بهم الأمر الى اظهار مقتهم وغضبهم ، فانه حتى ساعة عزى على
السفر لم يغادر واحد من طائفتنا شواطئ الهند ، فاذا أقدمت على السفر
وصممت عليه ، وجب أن يحتكموا مى الى الكتاب . فمقدت جمهرة
من رجال الطائفة ودعوني الى الظهور أمامها لأجيب عما يوجه الى من

أسئلة . ولست أدري كيف استجمعت قدراً كافياً من الشجاعة حملني على الذهاب الى جبهتهم . على أبة حال لم أتوان عن الذهاب اليهم فأخذ رئيس الطائفة ، وكان من أقاربي البعدين ، ولكنه كان على صفاء مع أتي ، يلقي هذه الكلمات : « من رأى الطائفة ان عزمك على السفر الى انجلترا ، أمر لا يتفق وعقائدنا . ثم ان ديننا يمنعنا عن السفر الى خارج بلادنا بأي حال من الأحوال . وكذلك وصل الى مسامعنا انه من المستحيل أن يعيش الانسان هناك من غير أن يحل محرم ديننا . فان المرء يضطر اضطراراً أن يأكل ويشرب على طريقة الأوربيين » . فكان جوابي « لأظن مطلقاً أن الذهاب الى انجلترا يكون فيه أى تناقض مع مبادئ ديننا . وغرضي من الذهاب الى هناك أن أكمل دراسني . هذا فضلاً عن أني وعدت أمي أن ابتعد عن ثلاثة أشياء هي أحواف ما تخافون . وانى لعل بقين من أن قسمي سوف يحفظني من السقوط » . قال الرئيس « ولكنى أؤكد لك انك سوف لايمكنك أن تقوم بفروض الدين هناك . وأنت تعلم علاقتي بأبيك وغيرتي عليك ، ولذا أرغب في أن تسمع بصحي وترضخ لارشادي » . فكان جوابي « اني لأعرف علاقتك بأبي ، ولكن لا حيلة لي في الأمر . لأنني لا أستطيع أن أرجع عن عزمي على الذهاب لانجلترا . فان أحد أصدقاء أبي ذوي العلم والمعرفة ، وهو برهمي ذو وزن وقيمة ، لا يرى مانعاً يحول دون ذهابي ، وعلى رأيه وافق أخى ووافقت أمي » .

« ولكنك ستخالف نظام الطائفة » .

« لا حيلة لي ولا مخرج . وان الطائفة سوف لا تتدخل في هذا الشأن » .

ولقد أسكتت هذه الكلمات الرئيس ، فأخذ يتحدثني بنظراته وأنا جالس لا أتحرك ، ثم أعلن ما يأتي : -

« سوف يعامل هذا الغلام على أنه حارج على طائفتنا ، مطرود من حظيرتها منذ اليوم . وكل من يذهب ليوذعه على الرفأ ، سوف يعاقب بغرامة قدرها روبية وأربع آنات » .

فلم يؤثر في هذا الأمر أقل تأثير ، وتركت حضرة الرئيس تواء . ولكن أشفقت في أن يكون للامر أنر في نفس أخى . ومن حسن حظي أن الأمر لم يهزه ولم يغير رأيه ، بل كتب يؤكد لي أنه يادن لي في السفر على الرغم من معارضة رئيس الطائفة وأعضائها في « بوماي » .

...

وبينا كنت في هذه اللجة المضطربة سمعت ان محامياً من المعروفين سيسافر الى انجلترا على سفينة تغادر الميناء في اليوم الرابع من شهر سبتمبر . فبادرت الى الاصدقاء الذين اوصاهم بى اخى ، فوافقوا على أن انتهاز فرصة السفر مع هذا المحامى . ولم يكن لدى من الوقت ما أسمح بضياعه . فأبرقت الى اخى أستاذنه ، فأذن . وسألت قريبي أن يعطيني المال الذى تركه أخى معه . ولكنه استمسك بالامر الذى اصدره رئيس الطائفة ، وقال انه

لا يريد أن يطرد كما طردت . وبعد لأي استطعت أن أسوى الأمر بعد
الالتجاء الى صديق ، لولاه لما استطعت أن آخذ مالى ، وأحصل على
نفقات سفرى . ووصلت الى « سوئمبتون » حوالى آخر شهر سبتمبر
سنة ١٨٨٨ .



الفصل الرابع

فى لندن

زار دكتور « مهتا » حجرى وتفقد محتوياتها ، ثم هز رأسه علامة على عدم الرضا عنها ثم قال : « هذا المكان لا يلىق . اننا لانهبط لندن للدرس بقدر ما نهبطها للممارسة الحىة والعادات الانجليزية . ولهذا يجب عليك أن تعيش فى أسرة . ولكن قبل أن تقدم على هذا أظن أنه يحسن بى أن أعهد بك لأحد أصدقائى لتدرس الحىة وتمرن عليها » .

ولقد قبلت هذا الاقتراح بكل شكران ، وانتقلت تواء الى سكن ذلك الصديق . وكان هذا الصديق مثال الرأفة والىقة ، فعاملنى معاملة الأخ واخذ يعلمنى أصول السلوك الانجلىزى . غير أن غذائى أصبح مسألة معضلة . وكنت لا أستسىغ الخضر المسلوقة من غير توابل ، وتحيرت ربة البيت فىما يمكن أن تجهز لى من غذاء . وكنا نتناول عصيدة القرطم للافطار فكانت كافية ، ولكنى كنت أشعر بالجوع فى وجبتى الظهر والمساء . وحاول صديقى الذى عهد بى الىه دكتور « مهتا » أن يغربنى على أكل اللحم ، ولكنى كنت أذكر له عهدى الذى عاهدت عليه أمى ، وأظل صامتاً ، أما وجبتا الظهر والمساء فقد اعتدنا أن نتناول فىهما الاسفناخ والخبز والربرى . وكانت شهيتى غالباً ماتقوى ولكنى كنت

أخجل من أن أطلب أكثر من قطعتين أو ثلاث من الخبز ، معتقداً أنه ليس من حسن الذوق أو الأدب في شيء أن أفعل غير هذا . وكنا لا نتناول اللبن في غير الصباح . وامتنع صديقي يوماً من هذه الحال فقال لي بصراحة . « لو كنت أخى اذن لأمرتك بالاسراع في حزم أمتعتك . ماهى قيمة عهد تعاهد عليه أمّا غير منقفة حاهلة بمجرى الأحوال هنا . ان عهدك هذا ليس عهداً على الاطلاق ، انه لايعتبر عهداً صحيحاً أمام محكمة قصائية . وصرّك على الأخذ بمثل هذا الوعد ليس أكثر من خيال ووهم فارغ . وعكوفك عليه لايعود عليك بأية فائدة هنا . انك اعترفت أنك أكلت اللحم وتذوقته . فقلت هذا في وقت لم يكن أكل اللحم فيه ضرورياً ، وتمتنع عنه في وقت تدعوك الحاجة اليه . ولكنى طللت صلباً ولم تلن فنانى . وكثيراً ما كان يستمر هذا الصديق في سرد براهينه ، ولكن كان عندى قوة سالبة استقرت في نفسى أواجهه بها كلما لج في الكلام والتدليل على صحة رأيه . وكان كلما أمعن في محاوراته ، أمعن في عنادى . وكنت أصلى لله كل يوم ليحمينى ، فحمانى . ولم يكن عندى أية فكرة بينة في الله ، بل كان مجرد ايمان أثر أثره . أما هذا الايمان فقد غرسته في نفسى مريئى .

عثرت خلال تجوالى في المدينة على مطعم للنباتيين في شارع « فرنجدون » . وكان مجرد وقوع نظرى عليه هزة فرح في نفسى ، كتلك الهزات التى يشعر بها الأطفال لدى عثورهم على شيء تعلقت به

قلوبهم الطاهرة . ورأيت قبل أن ادخل المطعم ومن وراء الزجاج ، كتباً عرضت للبيع ، ومن بينها كتاب « صوات » الذى عنوانه « الدعوة إلى الحياة النباتية » فاستريته بسلن واحد ، ودلّمت تَوّاً الى حجرة الطعام . وهنالك تناولت أول وجبة أرضتى مندهبطت أرض انجلترا ، وسعرت بأن الله ساعدنى وأخذ ييدى .

فَرَأْتُ كتاب «صولات» من ألعه الى يائه . فَأَثَرُ فى كل تأثير . ولما فرأته ، أصبحت نباتياً بالاختيار ، وانى لاناارك ذلك اليوم الذى عاهدت فيه أُمى ذلك العهد . ولقد كنت أمتنع من قتل عن أكل اللحم احتراماً للصدق وللعهد الذى قطعته لأُمى ، ولكى كنت أرغب من كل قلى فى ان يصبح كل هندی من أكلة اللحوم . وكنت أطلع الى حلول الوقت الذى أكون فيه واحداً منهم ، أعالج الأمر بحجرة وجهرة ، وأدعو غيرى اليه . ولكن احتيارى الآن مال لى الى ناحية الحياة النباتية ، والتدشير بها أضحى كل همى .

وظهر لى ان الملابس التى قدمت بها من « بومباى » لا توافق ذوق المجتمع الانجليزى . فبدلتها بملابس أوصيت عليها فى مخازن الجينس والبحرية . واشترت قبعة حريرية كلفتنى تسعة عشر منلناً . ولم أكتف بهذا فأنفقت عشرة جنيهات على بذلة للسهرة أوصيت عليها فى محل « بيوند سترت » وكتبت لأخى ليرسل الى بساسلة ذهبية . ورأيت أنه ليس من حسن الذوق أن ألبس رباط رقبة مربوط ، فتعلمت كيف

أربط رباط الرقبة بعد مرانة عليه . ولم اعتد في الهند النظر في المرأة ، بل كانت المرأة من ادوات الترف ، فلا أنظر فيها الا في اليوم الذي يزورنا فيه حلاق الأسرة . أما في لندن فكانت أقصى كل يوم عشر دقائق امام مرآة كبيرة أنظر فيها كيف أعدل رباط رقبنى وأمشط شعري على طريقة مألوفة ، ولم يكن شعري ناعماً ، فكانت تقوم في صبيحة كل يوم معركة مع المشط والفرساة حتى يستقيم وتسفر المعركة عن توليفه بطريقة منتظمة . وكنت في كل فترة أخلع فيها القبعة أو اضعها فوق رأسي ، تمر يدي على شعري بطريقة أوتوماتيكية لأصالح شعري واحفظ نظامه .

وكل هذا أيضاً لم يكن كافياً . فبدأت أوجه انتباهي الى تفاصيل أخرى ، فرصت اني اذا عكفت عليها استطعت أن اخرج من نفسي سيداً كريماً (جنتلمان) على الطراز الانجليزي . وقيل لي انه من الضروري ان أتلق دروسا في الرقص واللغة الفرنسية وفن الالقاء . فصممت على أن أدرس الرقص في معهد ، ودفعت ثلاثة جنيهات أجراً على دورة لتعلم الرقص مداها ثلاثة أسابيع . وكنت احتاج الى ستة أسابيع . ولكنني وجدت اني عاجز عن أن أقوم بحركات مترنة مؤلفة ، لأنني لم أكن أستطيع ان اتبع توقيع البيانة ، فيستحيل علي ان اوفق بين حركة أقدامي وتقسيم التوقيع . ولكن ماذا افعل ؟ تروي أسطورة ان ناسكا احتفظ بهرة في منسكه ليقاوم الفئران بها ، ثم يبقرة لتغذي الهرة ، ثم برجل ليخدم البقرة ، وهكذا . ولا رية في ان مطامعي أخذت تتكاثر

ويتبع بعضها بعضاً ، مثل الناسك . ففكرت ، في أن اتعلم العزف على الكمان ، حتى أعود أدنى على انغام الموسيقى الغربية وتوقعاتها . فاشترت كماناً بثلاث جنيهات وأضفت الى الحنيئات الثلاث مبلغاً من المال اجراً لمعلمة ، واخذت ابحث عن معلم ثالث ليعلمني فن الالقاء ، ودفعت له جنيهاً لابتداء درسي ، وأمرني بأن أشتري كتاب « بل » - Bell - في فن الالقاء ، واشتريته غير وان .

غير ان كتاب « بل » كان أول شيء قرع « الناقوس » ^(١) في أذني ، فصحوت من هذه الغفوة النفسية . قلت في نفسي - « انك سوف لا تقضى عمرك في ايجلترا ، مما الفائدة من تعلم فن الالقاء ؟ والآن - « هل من الممكن ان أصبح بتعلم الرقص جنتلمانا » ؟ والكمان عجزت عن تعلمها حتى في الهند . وما دمت في طور التلمذة ، فيجب على أن اعكف على دروسي ، فاذا أهلت سي أخلاقى لأن تخرج مني « جنتلمانا » فهذا حير من كل ماعده . وعلى هذا اوجبت على نفسي ان أترك كل هذه الأشياء .

اكتنفتني هذه الأفكار ومثيلاتها ، وكتبته في خطاب ارسلت به الى معلم فن الالقاء ، راجياً ان يعفيني من اتمام دروسي . ثم ارسلت بخطاب آخر الى معلم الرقص ، وذهبت بنفسى الى معلمة الكمان ،

(١) بين كلمة « بل » وهو اسم مؤلف الكتاب ، وكلمة « نادوس » حاس ، لأن الناقوس في الانجليزية اسمه « بل »

لأعذر لها بأمرها تستطيع أن تتصرف في الآلة الموسيقية بأى عن يمكن الحصول عليه ، وكانت مخلصه ودودة . فأخذت اظهر لها كيف انى تبينت أحيراً ابى اما اتبع املا حاطثا ، فشجعتى على أن أتابع ماصممت عليه من تغيير حطنى تغييراً كلياً . ولقد استمر ولعى بهذه الأشياء ثلاثة أشهر . أما المحافظة على هندامى فقد استمر سنين عديدة ، ولكنى رجعت على كل حال تلميذاً ، بعد أن تخليت عن افتتانى هذا .

وايس من حو أحد ان يطن ان تجاربى فى الرقص وامثاله من الأشياء كان طوراً من أطوار الانغماس فى الملمات قطعتة فى حياتى . فانى أثناء ولعى بهذه الأشياء ، كنت مالكا لكل قوى نفسى ، ولم يتحرر طور افتتانى بهذه الخيالات من تأمل عميق كنت أقع صريعة الفينة بعد الغيمة . وكنت أفيد حسابى فلا أهمل ذكر المليم والدانى الذى أصرفه ، وبدأت أنافس نفسى فى نفقاتى ، فاستعان لى انه من الضرورى ان أقتصد . وعلى هذا صممت أن اخزب نفقاتى الى النصف . فقد طهر لى من مناقسة الحساب أن اوابا كثيرة تذهب اجورا . ووجدت من جهة أخرى أن معيشى فى وسط أسرة يستدعى ان أدفع حسابى كل أسبوع . فأقلعت عن عادة التجبب الى افراد الأسرة بدعوتهم الى الطعام ، كما رفضت أن اقبل دعواتهم اذا انصرفوا الى الزهة او اللهو . وكل هذا كان يستدعى زيادة فى النفقات . فاذا كانت رفيقتك فى الزهة سيدة ، وجب عليك أن تقوم بكل النفقات . وظهر لى أيضاً أن الأكل خارج المنزل

كان اسرافاً ، لأن كل الوجبات التي لا أتناولها في المنزل لا تنقص من الحساب الاسبوعي شيئاً . ولماذا لا أوفر على نفسي كل هذه الأنواب ؟ صممت على أن أستأجر حجراً مستقلاً ، بدلاً من أن أعيش في أسرة ، وبذلك أتمكن من الاختلاف من مكان لآخر على مقتضى طبيعة أعمالى التي أقوم بها ، فأكسب تجربة وعلماً . فالتقيت الغرفة التي أجرتها بحيث كانت تبعد عن محل عملى أكثر من نصف ساعة مشياً على القدم ، وكذلك أخذت أقتصد فى الأجور التي أنفقها . وكنت لا أنتقل من مكان الى آخر الا راكباً ، فثلاً انى أستطيع أن أقتصد من الوقت ما أقضيه فى الزهرة ماسياً . أما النظام الجديد فكان رهة واقتصاداً ، اذ استطعت أن اقتصداً أجور الانتقال وأن أقطع كل يوم ثمانية أو عشرة أميال سعيّاً على قدمى . ولقد افادتني عادة المشى فوائد جلى ، فحفظتني من الأمراض طيلة مقامى فى المجلترأ ، وأكسبتنى قوة فى البدن وسدة فى الأعصاب .

حدث بعد هذا لقليل ان قرأت كتباً فى الحياة البسيطة ، سارعت بعدها الى ترك حجراتى واستأجرت بدلاً منها حجرة واحدة مهيأة بمدفأة ، ومضيت أجهز فطورى بنفسى وفى حجرتى ، ولم يكن يسفلنى هذا أكثر من عشرين دقيقة ، اذ لم يكن لى من حط فى وجبة الصباح أكثر من عصيدة القرطم وماء ساخن للكأكو ، وبهذا استطعت أن أعيش بشلن وثلاثة بنسات فى اليوم . وكان هذا الوقت وقت اكباب

على الدرس وافتتان به . ولقد وفرت على هذه الحياة البسيطة كثيراً من وقتي ، فاجتزت الامتحان . على أن هذا الاقتصاد لم يجعل حياتي جافة كما يخيل الى البعض . بل على الضد من هذا ، أ كسبني التغير الذي أدخلته على عظم حياتي ألفة تملت نفسي وجسمي . بيد أن الطريقة التي اتبعتها كانت تلائم موارد أسرتي ، فضلاً عن أنها كانت أقرب للاستقامة ، فعم نفسي بذلك فرح لا يوصف .

...

منذ أربعين سنة حلون لم يكن في لندن من الطلاب الهنود سوى عدد ضئيل . وكانت العادة أن يعيش هؤلاء عيش الفردية ، ولو كانوا متزوجين . لأنهم يعتقدون هناك أن حياة الطلب والدرس لا تتفق مع الرواح . وكانت لنا هذه العادة في الهند خلال الأزمان القديمة ، ولكننا اسبدلناها في العصور الحديثة بزواج الأطفال ، وهي عادة غبر معروفة في إنجلترا . وكثيراً ما كانت تعلق حمرة الخجل وجوه شباب الهند عند ما يضطرون الى الاعتراف بأنهم منزوجون . ولقد اخذتني عدوى هذه العادة فقيدت اسمي أعزب ، على الرغم من اني كنت متزوجاً ولى ابن ، ولكني لم أكن سعيداً بأن أشعر بأني خادعت ورائيت . ولكن خجلي وصمتي وتكتمى ، كل هذه الأشياء حملتني على أن أدلف الى أعماق أشد غوراً .

كنت مرة في صحبة أسرة في « فتور » أمضى اجازتي . والعادة في

مثل هذه الأسر أن تصحب الفتاة بنت صاحبة البيت ضيوف أهلها للزهوة والتريض . فاصطحبتني الفتاة يوماً الى تلال حميلة هادئة تحيط ببلدة «فتور» ولست ممن يتندون في المشى ، ولكن رفيقتي كانت أسرع مني عدواً، خرتني وراءها وأخذت تثرثر طيلة الوقت، وكنت أحيب على ثرثرتها المرة بعد المرة بكلمة « نعم » أو « لا » وفي بعض الأحيان « نعم ، ما أحمل هذا أو ذاك » . وكانت كأنها طير يطير ، وظللت أفكر متى نعود الى المنزل ، بعد أن صرنا في السبر وبلغنا قمة تل . ولكننا لم نكد نعتلى القمة حتى أخذت أفكر في كيف مهبط مرة أخرى . وعلى الرغم من حداثها العالي الكعب ، فإن هذه السيدة التي كادت تتجاوز من العمر الخامسة بعد العشرين ، هبطت من فوق التل كأنها سهيم زل عن كبد القوس . أما أنا فكنت في حيرة الخجل احاهد لأهبط ذلك المرق الوعر . ووقفت هي تبسم وتسجعي وتعرض على أن تأتي لنجدي . وبكل ما يمكن أن تتصور ذهني من الصعوبة أخذت أعالج الأمر ، فأتساند مرة ، وأزحف على ركبتي أخرى ، حتى استطعت أن أهبط الى سفح التل ، فصاحت عل ، فيها « برافو » . ولكن صحتاتها أوقعني في خجل مرير لا أستطيع وصفه .

غير اني لم استطع أن أفلت من غير اصرار . لأن الله أراد ان يخلصني من سرطان الكذب والبهتان .

ذهبت مرة الى « برين » . وقابلت هناك ارملة عجوزاً معتدلة

الثروة . حدث هذا خلال السنة الأولى من اقامتى فى إنجلترا . وكان جدول الطعام فى الفندق مكتوباً بالفرنسية التى لا أعرف منها الا القليل ، وجلست الى المائدة التى جلست اليها هذه الأرملة . وقد لحظت انى غريب وانى مرتبك ، فسارعت الى مساعدتى . بادرتنى قائلة : « يظهر انك غريب وانك مرتبك . لماذا لم تطلب شيئاً » . ! فشكرتها وأبنت لها عن الصعوبة التى تعترضنى لأنى لا أستطيع ان أميز بين ألوان الطعام وايها يتفنى وخطة الناتيين لأنى لا أعرف الفرنسية الا جهداً . فقالت : « اسمح لى ان أساعدك . سأوضح لك الألوان وارشدك الى ما تأكل » وكانت هذه بادرة علافة استحالت الى صداقة استمرت طوال اقامتى فى إنجلترا وزمناً طويلاً بعدها . واعطتنى عنوانها فى لندن ودعتنى الى الغداء فى بيتها كل يوم احد . فكانت تحتفى بى وتقدمنى الى فتيات ونحملنى على الاشتباك معهن فى الحديث ، وكان من بينهن على الأخص سيدة فتيه كانت تقيم معها ، وكثيراً ما كانت تتركنا معاً فى وحدة شاملة .

شعرت أولاً بأن الأمر ساق متعب . فكنت لا أستطيع أن ابدأ حديثاً . ولا أفدر ان اشترك فى فكاهة . ولكن هذه السيدة الفتية قادتنى الى الطريق ورسمت لى الخطة . وبدأت اتعلم . ومع مرور الزمن بدأت أتسوق الى يوم الأحد من كل أسبوع ، واخذت أميل الى التحدث الى صديقتى الشابة .

وأخذت الأرملة العجوز تمد أطراف سناكها يوماً بعد يوم .
فكانت تطهر الاهتمام عقابلاتنا . وليس من البعيد انما كانت تخطط من
حولنا حطة تحاول تنفيذها . فتولتني حيرة مزعجة . كيف أقوى على
ان أخرج ربة البيت بأى مزوج ؟ عبر انى تمنيت لو انى أخبرتها .
اذن لرأت انه من الصعب عقد حطة بيننا : ولكن الوقت لم يكن قد
فات بعد . ورأيت أن اعلان الحق كفىل نأز يوفى على تعساً أكبر من
التعس الذى أشعر به . وهذه الفكرة كتبت لربة البيت خطأ جاء
فيه :

« لقد تملنى عطفك منذ أن تقابلنا فى « رين » لأول مرة ، حتى
انك عنيت نى كما تعنى الام بابها ، وفكرت فى أن ازوج ، وأخذت
تقدمينى لفتيات لأعقد معهن يوماً أو اصر الألفة والصدقة . ولأنى لا
أرعب فى ان تهادى الأمور الى أبعد مما وصلت الآن ، أصارحك بأى
لم أكن خليقاً بعطفك هذا . كان من الواجب على ان أعرفك منذ
بدأت زيارنى لمزلك انى متزوج . فقد عرفت ان طلبة العلم الهنود يخفون
فى الجلترا أمر زواجهم ، فتابعتهم فى هذا ، وانى لآسف لأنى اضطرت
لأن أخفى عنك الحقيقة طوال هذه المدة . ولكى الآن مغتبط لأن الله
قد أمدنى بشجاعة حملتنى على ان اقول الحق وان أصارحك به . فهل لك ان
تغفرى لى زلتى ؟ وانى لأؤكد لك بأنى لم أتجاوز حد الأدب مع السيدة
التي تفضلت بأن قدمتني اليها . فانى أعرف الحدود التي يجب أن

أقف عندها . أما انت ، فلأنك جاهلة أمر زواجي ، فقد رغبت في أن
تم خطبتنا . ومن أجل اني رعبت في ان لا تتجاوز الأمور حدها الذي
بلغت اليه ، رأيت واجباً على ان أطلعك على الحقيقة »

« أما اذا وصلك هذا وكان شعورك اني كنت غير خليق بأن أوجد
تحت سقفك وفي ضيافتك ، فاني أؤكد لك بأن هذا بسوءني كل
الاساءة . ان لك في عنقي ديناً لا يوفيه عرفان الحيل والتسكران جزاء
ما أظهرت محوي من العطف والحنو . فان رأيت بعد هذا ان لا تطرحيني
واني جدير بكرمك الذي سوف لا آلو جهداً في ان أجعله من نصبي ،
فلا شك في اني أكون سعيداً ، واعتبر أن هذه حادثة أخرى من
خاطرات حنوك وعطلك » .

كذبت هذا الخطاب مرات لألقحه مرة بعد أخرى . ولكنه على
كل حال أزاح عن كاهلي غمّاً كنت أسعر ثقلي وطاته . وفي عودة
البريد تلقيت الرد فكان فيه مايلي : -

« وصلني خطابك الذي عبر عن احلاصك . ولقد اغتبط كلانا به ،
كما أضحكنا كثيراً . فان الحقيقة التي أحفيتها عنا ، وتعتقد انك اجرت
في اخفائها ، يمكن العفو عنها . ولكنك أحسنت في انك أوقفنا على
حقيقة حالك . وان دعوتي لك ما تزال حارة كما كانت . انا لفي انتظارك
يوم الأحد المقبل ، وتشوف لسماع رواية زواجك وادت طفل لعلنا نسر
وبضحك بعض الشيء ، وسرى عن أنفسنا على حسابك . ولست في

حاجة لأن أوكد لك أن صداقتي لم تمس من جراء هذا الحادث .
بهذا طهرت نفسي من سرطان الكذب والبهتان . وما وئيت
منذ ذلك الحين أن أتكلم في زواجي ، كما سحت فرصة للكلام فيه .

...

فبل أن تنتهى السمة الثانية من افامنى فى المجلة ، بدأت علاقتى
بأخوين من الآخذين بمبدأ الثيوصوفية - Theosophism - وكان
كلاهما غير متزوج ، وتكلما معى عن اسفار « الغيتا » - The Gita -
وكانا فى ذلك الوقت منكبين على قراءه ترجمة سير « إدوين ارنولد »
لكتابا المسمى « الأغنية السماوية » ودعياى لأن أقرأ الأصل معهما .
فسعرت بالحجل لأنى لم أكن قرأت « الأغنية السماوية » لافى اللغة
السنسكرينية ولا فى اللغة الكجراتية . فاضطرت لأن أصارحهما بأى
لم أقرأ « الغيتا » ولكن أقرؤه معهما بسرور ، وان معرفنى بالسسنكرينية
ان كانت « فجة » ناقصة ، فقد أملت أن أفهم الأصل بحيث أستطع أن
أعرف أين عجزت النرحمة عن التعبير عن المعنى . وبهذا بدأت أقرأ
« الغيتا » معهما . ولقد أثر فى جزء من الفصل الثانى تأثيراً لايسى ، وعلى
الأخص المقطوعة الآتية :-

« اذا عكف الانسان على حاحات البدن ، فهناك يبدأ الميل اليها ،
ومن الميل تتولد الرغبة ، ومن الرغبة تتولد نيران الشهوة المفترسة . والشهوة
تولد الطينس والتهور . وبذلك تخون الانسان الذاكرة فيقضى على

الأغراض النبيلة ، ويتقوض بناء العقل ، فيفنى العرض والعقل والالسان» .

ولقد طهر لى أن الكتاب لا يقدر بـ شـمن . وهذه الفكرة التى كونتها فى أسفار « الغيتا » ما تزال حتى اليوم تنمو وتتطور فى نفسى ، حتى أنى لأعتبرها اليوم أسمى الأسفار التى تعرفنا الحق . ولقد أمدنى هذا الكتاب بأكبر المساعدات فى أسد ساعات محنتى حلكمة . وقرأت بعد ذلك كل الترجمات الانجليزية التى طهرت لهذه الأسفار ، فرأيت أن ترجمة سير « إدوين ارنولد » أحكمها وأصفاها . فقد حافظ على الأصل ، بيد أنه صقلها ، فكانت بعيدة عن روح الترجمة . وعلى الرغم من أنى قرأت « الغيتا » مع هذين الصديقين ، فأنى لن أدعى أنى درستها اذ داك . ولكن بعد بضع سنوات من ذلك التاريخ بدأت أصحب « الغيتا » اذ جعته كتنانى اليومى .

أرشدانى بعد ذلك الى كتاب آخر بقلم سير « أدوين ارنولد » عنوانه « نور آسيا » . وكنت لا أعرف أن لسير « أرنولد » كتابا آخر غير « الأغنية السهاوية » . فقرأت ذلك الكتاب بلدة واكباب لم أجدها حتى فى قراءة « الغيتا » . وما فتحت الكتاب حتى اختلبنى ، فلم أستطع أن ألقيه من يدي ، وصحبتهما بعد ذلك الى محفل « بلافاتسكى » وقدمانى الى مدام « بلافاتسكى » ومسز « بزانت » . وكانت مسز « بزانت » قد انتمت الى الجمعية الثيوصوفية حديثاً ، فتتبعمت بكل عناية حديث

اعتناقها هذا المذهب . وبصح لى الصديقان أن أتمى للجمعية ، ولكنى
رفست بأدب قائلاً « ان معرفتى محقائق دينى غير نامة ، ولهذا لأريد
أن أتصل بأية جماعة ديمية » وأذكر أنى قرأت بارسادها كتاب مدام
« بلافاسكى » - « مفتاح النيو صوفية » . ولقد كان من أثر قراءتى
لهذا الكتاب ما حملنى على أن أقرأ كتباً أخرى عن الهندوكية، خرجت
منها بفكرة كاملة فى تحامل المشرين على الدين الهندوكى ، اذ يزعمون أنه
مدخول بالحرافات والأساطير .

وفى ذلك الوقت فابات بصراً نياً مستقيم الفكر فى « ما ستر » فى
فندق خاص بالماتيين . فتكلمنا فى الدين المصرانى . وأطلعته على مانت
فى دهمى من أعمال المبشرين فى راحكوت - فتألم مما سمع وقال - « اى من
الباتيين، ولا أترب الحجر . وكبر من النصارى يأكلون اللحم ويعاقرون
بنت الحان ولكن كلا الأمرين غير مسموح به فى الأناجيل . أرجوك
أن تقرأ الكتاب القدس » . فقبلت بصيخته وأعطانى نسخة . وحيل
الى بقدر ما نسمح بذلك ذاكرنى أنه كان يبيع الكتب المقدسة ، وانى
اشتريت منه نسخة تحتوى على خرائط وفهارس للكلمات وغير ذلك
من وسائل المساعدة على مطالعة الكتاب . وأخذت أطلعه ، ولكنى
عجزت عن أن أتم قراءة العهد القديم . وشعرت بهذا العجز عند ما
أتممت قراءة سفر التكوين . أما الفصول التى تتلوه فقد بعثت بالنعاس
الى جفونى، فتناقلت، وأخذنى الاغفاء . غير أنى حملت نفسى على متابعة

القراءة لأستطيع أن أقول انى قرأت الكتاب ، فتصفحت الاسفار
الاخرى بصعوبة ، وبأقل ما يمكن أن تصور من اللذة أو القدرة على
الفهم . وكرهت أن أقرأ سفر العدد .

أما العهد الجديد فقد أثر في نفسى تأثيراً مخالفاً كل المخالفة لهذا ،
وعلى الأخص « موعظة الجبل » فانها وجدت طريقاً مباشراً الى قلبى .
ولقد أخذت أوازن بينها وبين الغيتا - وتخلقت بقول عيسى
« لا تقاوموا الشر . بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً .
ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فترك له الرداء » . وكان تأثيره في
نفسى بالغاً لا يقاوم . وزين لى عقلى الصغير أن أوفق بين الغيتا ونور
آسيا وموعظة الجبل .

وكان من أثر مطالعتى هذه ان ولعت بقراءة سير أصحاب الأديان
الأخري . وأرشدنى صديق الى كتاب كارليل « الأبطال وعبادة
البطولة » وقرأت الفصل الذى عقده فى « البطل فى صورة نبي »
وعرفت فى نبي الاسلام الفطنة البالغة والشجاعة النادرة . وفى عيسى
التقشف والصلابة .

وما عدا هذه المطالعات الى دارت حول الدين ، لم أقرأ شيئاً ، لأن
ميعاد الامتحان كان قد أزف وبذلت كل جهدي فى الاكباب على
الدرس . ولكن اتجه فكرى الى ضرورة أن أقرأ عن الدين أكثر
مما قرأت فى كتب الدين، وان ألم بكل الأديان العظمى .

وكيف أستطيع أن أعرف شيئاً عن الإلحاد وانكار وجود الله بجانب هذا ؟ ان كل هندي يعرف اسم « برادلو » - Bradlaugh - والإلحاد . فقرأت في الإلحاد كتاباً سبت اسمه لأنه لم يترك أى أثر في نفسى ، وكنت اد ذاك قد اقتحمت مغارة الإلحاد ، وكأت مسر « برانت » في ذلك الحين قد انتقلت من الإلحاد الى الألوهية ، فقوى هذا الحادث عندى الزهد في الإلحاد ، بعد أن قرأت كتابها « كيف أصبحت نيوصوفية » .

...

في ذلك الحين مات برادلو ^(١) - Bradlaugh - ودفن في مدفن « بروكوود » ولقد شهدت الجازة ، كما شهدها كل هندي مقيم في لندن . وكان فيها قليل من رجال الدين ليقوموا بآخر واجباتهم نحو الراحل . وعند عودتنا اضطررنا أن نتنظر في محطة السكة الحديدية مقدم القطار . فتقدم أحد زعماء الإلحاد من أحد رجال الدين وسأله : اتعتقد يا سيدى في وجود الله ؟ فأجابه الرجل « أفعل » مغضياً من صوته . فأجابه الملحد وعلى فمه ابتسامة الواصل من نفسه « أتسلم أيضاً أن محيط كرة الأرض ٢٤،٠٠٠ ميل ؟ أتوسل اليك أن تعرفنى ما هو حجم إلهك ، وأين هو » . ؟

« نعم ، اننا لو عرفناه حقاً ، اذا لعرفنا ان مثواه في قلبينا معاً »

(١) مؤلف من أحرار الفكر ألف كتاباً معروفاً بعنوانه « ما كسبت الانسانية من الإلحاد » (المترجم)

فأجابه الملحد « لانهزأ بى كما تهزأ بطفل » — ولقد افظ هذه الكلمات فى عييه نظرة المنتصر الطاور . ولكن رجل الدين احتفظ ازاء هذه النظرة بصمت مهيب . وكان لهذا الحدث أثر فى نفسى زادى بغضاً فى الالحاد وزهداً فيه . .

هبط البجلترا فى ذلك الوقت هدى معروف هو « بارابان همساندرا » وكنت سمعت عند ككاب . وكنا أول ما تلاقينا فى منزل مس « ماسج » وهى من أعضاء الجمعية الهندية الوطنية . واعتدت أن أرم الصمت التام كلما زرت بنتها ، فلا أتكلم إلا إذا كلمت . فقدمتنى إلى « همساندرا » ولم يكن يعرف الإنجليزية . وكان هندامه عجيباً . بنطلون عريض صفيق . ومعطف كثير الثنايا مسخ زمادى اللون ، مقصوص على الطريقة الباريسية . ثم انه كان بلا باقة وبلا رباط رقبة . وعلى رأسه قلنسوة من صوف يتدلى منها زر كبير . وعلى صدره ترسل لحية كثة طويلة . وكان نحيلاً قصير القامة . وقد شات وجهه المستدير بدوب الحدرى ، واستوى فى وسط ذلك الوجه أنف ليس بالرفيق ولا بالغليظ . ومثل هذا الشخص الغرب ولبلبسه هذا ، كان مرشحاً لأن يرحم فى الشوارع جماعات لندن المعروفة بأناقها .

كنا تتقابل كل يوم . واتضح لى أن هناك توافقاً كبيراً بين ما يجول برأسينا من الأفكار وما نعزم من العمل . وكلانا كان نباتيا . وعالب ما كنا نتعاطى طعام الظهر معاً . وكنت فى ذلك الوقت أعيش سبعة عشر

شلتاً في الأسبوع وأطهو طعامي بنفسى . وكنت أختلف إلى حجرته
آونة بعد أخرى ، كما كان يختلف هو إلى حجرتى . وكنت أطهو على
الطريقة الانكليزية ، ولم يكن يلتذ الا بالطهو على الطريقة الهندية .
كنت أصنع حساء الجزر فكان يرثى لذوق . وعثر مرة على قليل من
العدس فطبخه وحضر به الى سكنى . فأكلت منه بشوق وشغف ،
ومنذ ذلك اليوم كنا نتبادل ما نطهو . كنت أذهب اليه بألوان طعامى
النادرة ، وكان محضر الى بألوان طعامه .

كان اسم الكردينال « ماننج » على كل لسان . وكان اعتصاب عمال
أحواض السفن قد قضى عليه بأسرع ما يتصور انسان ، بفضل مساعى
« جون برنز » والكردينال « ماننج » . وحدثت « نارايان همشاندرا »
عن شكر « دزرائيلى » ومدحه بساطة الكردينال : فقال « اذن فلا بد
من أن أرى ذلك الحكيم » .

« انه رجل عظيم القدر ، فكيف تتوقع أن تقابله ؟ »
« ولماذا ؟ انى أعرف كيف يكون ذلك . سأجعلك تكتب له نيابة عنى
فتقول له انى مؤلف وانى أريد أن أهنته شخصياً بعمله الانسانى ، وانى
سأصحبك معى كترجم لأننى لا أعرف الانجليزية » .

فكتبت خطاباً بهذا المعنى . وبعد يومين أو ثلاثة وصلتنا بطاقة من
الكردينال « ماننج » محمداً لنا موعداً . فذهبنا اليه معاً . أما أنا

فارتدت بزة الزيارات. وبقى « نارايان همساندرا » كما هو بمعطفه المعروف وبنطلونه الذي وصفت. وحاولت أن أهرأبه، ولكنه ضحك مني قائلاً :-
« أنتم معشر المتمدينين جبناء . ان العطاء لا يعنون بمظاهر الأشخاص
انما ينظرون في القلوب » . .

ودخلنا قصر الكردينال . وما ان أخذنا مجلسنا حتى دخل علينا
« جنتلمان » نحيف طويل القامة وسلم علينا يداً بيد . وهنا بدأ
« همساندرا » مقالته :

« لا أريد أن أضيع عليك وقتك . فقد سمعت عنك كثيراً وشعرت
واجباً على أن أزورك لأشكرك على ما فعلت من خير للمضربين . ومن
عادت أن أزور حكماء الدين . ولهذا اضطررت أن أزعجك بزيارتي » . وكان
يتكلم باللغة الكجراتية ، وأنا أترجم الى الانجليزية

فرد عليه الكردينال قائلاً :- انى لسرور زيارتك . وآمل أن
تكون اقامتك في لندن مواتية ، وأن تتمكن من الاتصال بالقوم هنا .
وليباركك الله » . ولما أتم هذه الكلمات وقف وودعنا .

زارنى « همساندرا » مرة في قميص و « دوقية » ^(١) كما نلبس في
الهند . ولم تكدر به البيت تفتح له الباب اذ قرعه حتى ارتدت مفزوعة
قائلة « رجل به مس يريد ان يراك » .

(١) قطعة طويلة من الفماش القطنى ، تطوى حول الوسط وتغطي الجراء
الأسفل من الجسم .

فسارت الى الباب وكم كانت دهشنى عندما رأيت « همشاندرا » على هذه الصورة وفي هذا الزى ، فأخذت . غير أن وجهه لم ينم عن شىء ، اللهم الا عن تلك الابتسامة الهادئة التى عودناها منه .

« ولكن ألم يهزأ بك الأطفال فى الطريق ؟ »

« نعم فعلوا . فلما أهملتهم سكتوا » .

وذهب همشاندرا الى باريس بعد أن أقام فى لندن بضعة أشهر . وبدأ يتعلم الفرنسية وحاول أن يترجم منها كتباً . وكنت أعرف من الفرنسية قدرًا مكننى من مراجعة ترجمته ، فأعطايتها لأطالعتها . وسرعان ما استبان لى أنها لم تكن ترجمة بل مادة جديدة تمامًا .

وأخيرا صمم على أن يرور أمريكا . وبكل صعوبة استطاع أن يحصل على تذكرة سفر فى الدرجة الرابعة . ولما كان فى أمريكا حوكم لأنه قليل الاحتشام فى ملبسه ، لأنه خرج يوماً فى قميص ودوقية . وأذكر أنه برى من هذه التهمة .

كان من السهل على أن أزاو مهنة المحاماة فى إنجلترا . ولكن المراتة كانت غير ميسورة المثال . كنت قد درست القانون كإداة أساسية ، ولكن لم أدرس كيف أنابع الاجراء القانونى . درست مبادئ القانون غير أنى لم أدر كيف أطبقها فى مزاولة مهنتى .

...

كانت الشكوك تمزق أحشائى تمزيقاً خلال درس القانون . فأطلعت

بعض أصدقائي على ما أحس من هموم . واقترح أحدهم أن أُلجأ إلى « دبابة نايجي » في طلب العون والنصيحة . وكنت أشعر بأنه ليس من حق في شيء أن أزجج مثل هذا الرجل العظيم وأشغله بنفسى ، على الرغم من أنى كنت أحمل إليه كتاب توصية من الهند . وما فاتنى يوماً أن أسمع له خطاباً أزعج القاءه ، بل كنت أذهب الى المكان وأصغى إليه من ركن في الحجرة كنت آوى إليه ، ثم أنصرف بعد أن أشبع سمعى وبصرى . ومن أجل أن يكون أكثر احتكاكاً بالطلبة أسس جمعية . واعتدت أن أحضر اجتماعاته . وكنت أسر كل السرور بما أرى من اشفاقه على الطلبة ومن احترامهم له . وعلى مدى الزمان استجمعت شجاعى وقدمت له كتاب التوصية . فأتدرنى بقوله « يمكنك أن تحضر الى لتتلقى نصائحي ، أى وقت تشاء » ولكنى لم أحاول أن أنتفع قط من وعده هذا بشيء .

ولقد نسيت الآن ان كان صديقى هذا بعينه هو الذى قدمنى الى مستر « فردريك بنكت » - Mr · Frederiak Pincutt - كان من حزب المحافظين ، ولكن عطفه على الطلبة الهندود كان صافياً من غير شائبة . ولقد سأله الكثيرون من الطلبة النصيح والمساعدة ، وسألته بدورى أن أحظى بموعد ، فلم ييخل به . ولن أنس ما أعيش هذه المحاورة . فلقد رحب بى كصديق وهزأ بتشاؤمى قائلاً - « كن على

يقين من انه ليس بشيء غير عادى أن يصبح الانسان محامياً ذا مرانة وحصافة . فالأمانة والعمل ، كافيان لأن يجعلاه يعيش . وليست كل القضايا مرتبكة الأجزاء كما تتوهم . ولكن عرفنى ماهى معلوماتك العامة ومطالعائك » .

فلما أطلعتة على مقدار معرفتى ، وهى ضئيلة ، رأيت انه امتعض . ولكن امتعاضه لم يدم أكثر من دقيقة ، وسرعان ما أشرق وجهه بابتسامة مرضية وقال :

« لقد فهمت السر فى اضطرابك . إن معلوماتك العامة ضعيفة . انك قليل الخبرة بالحياة . والدليل انك لم تقرأ حتى تاريخ بلادك . ان المحامى يجب أن يدرس الطبيعة البشرية . وواجب على كل هندى أن يلم بتاريخ الهند . وليس لهذا من علاقة بمزاولة مهنة المحاماة . ولكن ينبغى لك أن تعرف هذا . واتضح لى انك لم تقرأ شيئاً مما كتب « كاي » أو « ملسون » من تاريخ العصيان فى الهند . الجأ الى هذا فى الحال ، ثم اقرأ كتاباً أو كتابين فى الطبيعة البشرية » .

شعرت بأنى مدين بأ كبير دين لذلك الصديق الذى أمدنى بهذه المساعدة القيمة . على أن نصيحة « بنكت » ان كانت لم تغدنى فائدة مباشرة ، فانى استعضت بصداقته عما خيل الى أن أنال من فائدة بنصحه . وان وجهه الغرالبسوم مايزال حياً فى مخيلتى ، ومازلت أعتقد أن

= ٧٠ =

الكفاية العليا ليست ضرورية لكي يكون الانسان محامياً ناجحاً في الحياة . فالأمانة والا كباب على العمل يكفيان . ومذ كان لى فى الحياة نصيب من هاتين الصفتين ، شعرت بأنى حققت قوله . فلما اجتزت الاختبار النهائي فى القانون ، انتهت مدة اقامتى فى انجلترا .



الفصل الخامس

العودة الى الهند

حان الوقت الذى أعاد فيه انجلترا ، وحصلت على اجازة بالسفر على الباخرة « آسام » فى شهر يونية ، وكانت الرياح « الموسمية » Monsoon قد أخذت تهب عندما بلغنا بحر العرب وطل الجو عاصفاً طوال سياحتنا الى بومباى ، بعد أن عادرنا ميناء عدن . وأصيب كل من كان على الباخرة بدوار البحر ، غير انى ظلت معافى ، وشعرت بكثير من السرور والمرح اذ كنت أقف على ظهر السفينة أرقب هياج العاصفة وتلاطم الأمواج الثائرة . وكان أكثر المسافرين مصابين بالدوار ، فلم يكن يحضر الى غرفة الطعام للافطار سوى انين أو ثلاثة أنا واحد منهم ، فتقدم لنا عصيدة القرطم فى أطباق تتشبث بها فى أحضاننا لئلا تفلت منها العصيدة وتلوثنا .

كانت العاصفة التى ترسل بأهازيجها فى الخارج ، رمزاً الى العاصفة الثائرة فى نفسى . على أن عاصفة الطبيعة لم تستطع أن تهزنى أو تزعجنى . وعن هذا عجزت أيضاً العاصفة التى كانت تثور فى نفسى . وكنت أتوقع أن أواجه عاصفة أخرى يثيرها أهل طائفتى . أضف الى ذلك ما كنت أشعر به من عجز عن أن أبدأ حياتى كمحام . ولما كنت بطبعى

مصلحاً ، أخذت اكد نفسى فى التفكير بأية ناحية من نواحي الاصلاح أبدا . ولكن القدر كان يخبألى أكثر مما جال بخاطرى .

حضر أخى الأكبر من « كانيوار » ليلتقانى على المرفأ . وكان قد تعرف بدكتور « مهتا » وأخيه وزلنا ضيفين فى بيت أخى دكتور « مهتا » بعد أن ألح على أخى إلحاحاً . وبذلك تحولت المعرفة التى بدأت فى انجلترا الى صداقة دائمة بين الأسرتين ، وظلت طوال رحلتى الى وطنى أنطلع الى لقاء أمى . وكنت أجهل أنها لم تعد بعد بين الأحياء للتلقانى بذراعيها وتضمنى الى صدرها . ولقد ألقى الى أخى هذا الخبر المحزن ، بعد أن أخفاه عنى طوال اقامتى فى انجلترا ، وأراد بذلك أن يكفينى مؤنة الصدمة وأنا فى بلاد أجنبية . والحق أن هذا الخبر كان صدمة عنيفة لى ، ولكنى لم أتطوح مع الحزن والأسى . وكان حزنى على فقد أمى أعظم من حزنى على فقد أبى . غير أنى أذكر تماماً أنى لم أتماد فى التعبير عن حزنى الى الحد الذى يخرجنى عن الوقار ، حتى لقد استطعت أن أحبس دموعى ، وأن أمضى فى أعمالى كما لو كنت فى حالتى العادية ، وكأن لم يكن فى قلبى حزن عميق .

قدمنى دكتور « مهتا » الى كثير من الأصدقاء ، وكان أحدهم أخاه واسمه « ريفاشنكر جاجثان » وكان تعارفنا مقدمة لصداقة طويلة ظلت طول عمرنا على أحسن حال . ولكنى أريد أن أشير على وجه خاص الى « تقدمة » قدمنى بها دكتور « مهتا » للشاعر ريشاند Raychand

وهو يمت بقرابة الى أخ كبير من اخوة دكتور « مهتا » وأحد المساهمين في اتحاد الصاغة . ولم يكن هذا الشاعر قد تجاوز الخامسة بعد العشرين من عمره . غير أن أول لقاء به أقننى أنه رجل قويم الأخلاق واسع المعرفة . وكان يلقب « بالعلامة » ^(١) Shatavadhani وحررضنى دكتور « مهتا » أن أمتحن قوة ذاكرته ، فأخذت أعيد كلمات مما أعرف من مختلف اللغات الأوربية ، وسألته أن يعيدها ، فأعادها على نفس الترتيب الذى نطقتم بها . ولقد شعرت بأنى أحسده على كفايته هذه ، غير أنى لم أؤخذ بها . أما ما أثار إعجابى به بحق، فسعة معرفته بالكتب المقدسة وأخلاقه العالية ، وتحرقه واشتهاؤه أن يحقق ذاته ويصبح بهامستقلا فى أفق جديد . وكان هذا غرضه الذى من أجله يعيش . وكثيراً ما كان يردد « أبياتاً » من شعر « مكتاناد » Muktanad كنت أشعر أنها محفورة على صفحات قلبه : —

« أشعر بأنى فى نعيم عندما « أراه » (الله) فى كل عمل من أعمال يومى . والحق أنه الخيط الذى يصل حياة مكتاناد »
كانت تجارة « ريشاندهاى » ^(٢) تقوم بمئات الألوف من الروبيات .

(١) الكلمة الهندية Shata - vadhani معناها الشخص الذى يستطيع أن يتذكر أو يعي مائة شئ فى آن واحد ، ويخيل إلى أن كلمة معلمة أقرب كلمة عربية يمكن بها التعبير عن هذا المعنى .

(٢) العادة المنتعة فى مقاطعة كوجرات وبعض مقاطعات غيرها فى الهند تقضى بأن يضاف مقطع « باى » أو « بهاي » Bhai - ومعناه أخ - الى اسم الصديق تكريماً واثباتاً للود .

وكان خبيراً بالآلآء والماس . ولم تكن تعترضه مشكلة من مشاكل العمل الا وتصبح بين يديه سهلة هينة . ولكن كل هذه الأشياء لم تكن المحور الذى تدور من حوله عجلة حياته . أمحياته فكانت تدور عجلتها حول الشهوة فى أن يرى الله وجهاً لوجه . فكنت ترى بين الأشياء الكثيرة المتناثرة على مكتب عمله كتاباً دينياً ويوميته . فكان لدى انتهائه من عمله يتناول الكتاب الدينى أو اليوميات . وأكثر ما نشر من مؤلفات ، لم تخرج عن أهمها منتخبات من يومياته . والرجل الذى يستطيع أن يعكف تواً وبمجرد أن يخلص من أعماله التجارية ، على الكتابة فى الأشياء الخفية العميقة فى أغوار النفس ، ليس برجل تاجر على اطلاق القول ، بل رجل يبحث عن الحق بكل معناه . ولقد شهدته مأخوذاً بأبحاثه الروحية وهو مغمور فى لجة عمله التجارى مرات لأمرة واحدة . ولم ألاحظ أنه قد توازنه العقل فى أى طرف من الظروف . ولم يكن بيننا أية علاقة دنيوية تربطنا ، ومع هذا فكنت أتبعه اتباع الظل . كنت فى الأكثر محامياً مغموراً . ومع هذا فكنت لا أراه الا ويجرنى الى الكلام فى مسائل ذات صبغة دينية . وعلى الرغم من أنى كنت حتى ذلك الحين ما أزال أتمس طريق تلمساً ، ولم يكن لى أية لذة فى المناقشات الدينية ، كنت أجد فى حديثه هزة لا أعرف مبعثها . ولقد كان هذا سبباً فى أن أزور الكثيرين من حكماء الدين ، وحاولت أن أقابل الكثيرين من رؤساء الطوائف الدينية . ولكن من غير

أن يترك واحد منهم في نفسى من الأثر ما ترك « ريشاندباي » فان كلماته كانت تنفذ رأساً الى أعماق نفسى ، وحازت قوة عقله عندى من الاحترام مالا يقل عن احترامى لجده الأدبى ، وثقتى التى لا يمكن أن يكتنفها شك فى أنه سوف لا يغتنى أو يفرينى ، وانه سوف يرشدنى دائماً ويفضى إلى بذات نفسه . ولذا لم أكن أجدر غيره من ملجأ ، كلما ساورتنى الأزمات الروحية العنيفة

ومع هذا ، وعلى الرغم من عظيم احترامى له ، فانى لم أستطع أن أنزله من قلبى منزلة « الغورو » ^(١) - Guru - من نفسى . فان هذه المكانة ظلت خالية ، وما أزال أبحث عنمن يشغلها حتى الآن . على انى أعتقد بصحة النظرية الهندية فى « الغورو » وقيمته فى تحقيق السمو الروحانى . ويخيل الى ان هناك قسطاً عظيماً من الحق فى الحكمة القائلة بأن المعرفة الحقيقية غير مستطاعة من غير « غورو » . فان معلماً غير كامل العدة فى المسائل الدنيوية أمر قد يحتمل وقد يتسامح فيه الانسان ، أما فى المسائل الروحانية فالأمر على خلاف ذلك . وان معلماً كاملاً فى المسائل الروحانية ، بكل ماتحتمل صفة الكمال من المعانى ، هو دون غيره الذى يصح للانسان أن يتوجه ملكاً على عرش القلب والوجدان . وعلى هذا يجب أن يستمر الانسان يكافح طوال حياته فى سبيل بلوغ ذروة

(١) حكيم روحانى . وهو ليس اسم شخص ، بل يطلق على من يتصف بالحكمة الروحانية ويوجه غيره الى الرشد .

الكمال . لأن كل انسان انما يصل الى « الغورو » الذى يستحقه وكفاحنا فى سبيل الكمال هو حق الانسان الطبيعى . والكمال يحى فى ثناياه ماينتظر الانسان فى الدنيا من ثواب . أما الباقي بعد ذلك فبين يالله . وعلى الرغم من أننى ما استطعت أن أضع « ريشاندباى » موضع « الغورو » من قلبى ، فانه كان فى كثير من الحالات مساعدا ومرشدا . ان ثلاثة من المحدثين استطاعوا أن يتركوا فى أثرهم الشا ، ويختلبوننى اختلابا . ريشاندباى بعلاقته الشخصية ، وتولستوى بكتابه « ملكوت الله فى نفسك » ^(١) ورسكن بكتابه « حتى هـ النهاية » ^(٢)

عقد أخى على آمالا كبارا . وكانت تحتكم فيه رغبة المال وبع الصيت وذيوع الاسم . وكان كبير القلب متجاوزا عن الاخطاء ، وهوفر ذلك سليم الفطرة سادجا ، فالتف حوله كثير من الاصدقاء الاو ومن طريقهم حاول أن يزودنى بالقضايا والمنازعات القضائية . وتخيل عما قريب سوف أحصل على قدر كاف من المراتة والتقدم فى العمل وعلى هذا التقدير أسرف فى نفقات البيت والمعيشة . ومضى يعمل بجد ليمهد لى سبيل العمل كمحام أمام المحاكم .

كانت العاصفة التى أثارها زعماء طائفتى قبل سفرى الى انجلترا لاتر

) The kingdom of Gob is within you

) Unto this last ‘

ثائرة ، حتى لقد انقسمت الطائفة قسمين ، حكمت احداها توأ لدى رجوعى الى الهند بدخولى مرة أخرى الى حظيرتها ، ومضت الأخرى مستمسكة بقرار فصلى الذى صدر قبل سفرى . فمن أجل أن يرضى أخى الطائفة الأولى ، أخذنى قبل سفرى لراجكوت الى « ناسك » وغسلنى فى النهر المقدس ، ولما وصل الى راجكوت أعد وليمة طائفية لتكون بمثابة كفارة عن ذنبى . ولقد كرهت كل هذا وزهدت فيه . ولكن حب أخى لى كان عظيما ، ولم يكن تعلقى به يقل عن حبه لى . لهذا رضيت بأن أعمل كآلة تتحرك كما يريد معتبرا أن ارادته قانون على الطاعة له . على أن هذا قد فض اشكال رجوعى الى الطائفة من طريق عملى ، عرف أخى كيف يسلك السبيل اليه .

لم أحاول مطلقاً أن أرجع الى الفريق الذى رفض أن أعود الى الطائفة . وكذلك لم أشعر بأى شعور من الحقد ازاء رؤسائها الذين كانوا سبباً فى اخراجى من حظيرة الطائفة وحالوا دون رجوعى اليها . وفوق هذا ظلمت أحترم قرار الطائفة الذى صدر بفصلى وحرمانى . فقد كان محرماً على أن أتناول الطعام فى بيت أقرب أقاربى حتى أختى وزوجها ، أو أن أتناول شربة ماء فى بيت واحد منهم . وكثيراً ما حاولوا أن يعدوا العدة ليخالفوا ذلك الأمر سراً وعلى غفلة من رجال الطائفة . غير أنى كنت أرفض دائماً أن أعمل فى السر عملاً أخجل من أن آتية جبهة .

وكان سلوكى واستقامتى سببين فى أن لا يحاول رجال الطائفة ازعاجى بصورة من الصور . بل على الضد من ذلك لم أشهد من كل أفراد الطائفة الا كل كرم وسخاء ، وعلى الأخص من الفريق الذى ظل على رأيه فى حرمانى وطردى . وزادوا على ذلك أنهم ساعدونى فى عملى من غير أن يتوقعوا منى أية مساعدة أقوم بها من جانبى لصالح الطائفة : ولو أننى حاولت أن أعود الى حظيرة الطائفة وأخذت أدعو الى قبولى مرة أخرى ، أو لو أننى سميت الى شق الطائفة الى شيع وفرق وأن أزيد صدعها اتساعا ، أو هاجمت رءوس الطائفة وتحديتهم ، فما لا شك فيه أنهم كانوا يثأرون منى ويقابلون عملى بمثله . ولو أننى لم أعمل على تهديئة العاصفة ، لوجدت نفسى ، لدى وصولى الى الهند ، فى لجة من التهيج الطائفى ، كانت بلا ريب تضطرنى أن أتصنع ما ليس فى نفسى ، وأن أنافى وأن أتخذ الرياء قناعاً .

أما علاقتى بروجى فكانت مازال الى ذلك الحين على غير ما أرغب أن تكون . فان اقامتى فى انجلترا لم تشفى من مرض الغيرة الآكلة . وظللت أبدى شكى فى كل شيء مهما كان تافهاً . وبذلك ظلت كل شهواتى العزيزة على غير مكفية . وصممت على أن تتعلم زوجى القراءة والكتابة وأن أساعدها فى التعليم ، ولكن شهوتى وقفت فى الطريق ، وكان عليها أن تحتمل على غير ارادة منها مسؤولية تقصيرى وكسلى . وحدث مرة أنى تطوحت فى النزق الى حد أنى أرسلتها الى بيت أبيها ، ولم

أقبل أن تعود الى بيتي الا بعد أن أذقتها التعاسة كيف يكون مذاقها ومرارتها . ولقد اقتنعت بعد ذلك بقليل أن هذا كله لم يكن منى الا حقاً واسرافاً .

أخذت أفكر فى اصلاح تعليم الأولاد . فقد كان لاختوتى أولاد ، وكان ابني الذى تركته قبل سفرى الى إنجلترا طفلاً قد سب وشارف على الرابعة من عمره . واتجهت رغبتى الى أن أعود هؤلاء الأولاد العكوف على الرياضة الجسمية ليصبحوا أقوياء الأبدان مشدودى الأصلاب قادرين على الاحتمال والصبر ، وأن أتخذ من تجاربى الشخصية اماماً فى تنشئتهم . ولقد شجعنى على ذلك أخى ، ورجح نجاحى فى هذا الشأن فتلى . على أن عشرة الأولاد كانت من مباحجى التى أسرها ، وما أزال حتى اليوم أعكف على عادة اللعب مع الأولاد والتفكهة بهم ، ومنذ ذلك الحين بدأت أفكر فى أنى ربما أصلح لأن أكون معلماً صالحاً للأولاد .

وظهر لى أن الضرورة تدعو الى اصلاح طرق « التغذية » . وكان الشاى والقهوة كلاهما قد وجد مكاناً فى نظام المنزل . وعمل أخى على أن يكون جواً انجليزياً صرفاً فى البيت استعداداً لقدومى . ولذا أخذت الآنية الخزفية تدخل فى حيز الاستعمال بعد أن كانت تظل محفوظة للمناسبات . وأكملت « اصلاحاتى » ما كان ينقص طريقة استعمال هذه الأشياء من نظام . واستبدلت الشاى والقهوة ، بعصيدة القرطم ومنقوع الكاكو . ولكنهما فى الحقيقة أصبحا اضافيين على الشاى والقهوة .

وكنا نعرف من قبل الأحذية والنعال، وأكملت أنا « التفرنج » باستعمال
الأردية الأوروبية .

بدأت النفقات تزيد . وكنا نضيف كل يوم شيئاً جديداً . ولا جرم
أننا نجحنا في زيادة النفقات أو كما يقول أهل الهند نجحنا في أن نربط
فيلا أبيض على بابنا ، ولكن كيف يمكن أن نسد نفقاته ؟ وكان البدء
بالعمل في المحاماة براجكوت معناه سخرية محققة النتيجة . ذلك لأنى
كنت فاقد الخبرة بكل ما يحتاج اليه « الوكيل » ^(١) من المعلومات
والاجراءات ، وكنت أطلب عشرة أضعاف الأجر الذى يطلبه « الوكلاء »
فى الهند . فلم أسقط على صاحب قضية بلغ به الغرق ذلك المبلغ الذى
يفويه أن يوكلنى فى دعوى . وحتى لو فرض ووجد ذلك « الانسان »
فهل يصح أن أضيف الى جهلى ما يحتمل أن ينتج طغيان النصب
والاحتيال من نتائج تضاعف مقدار دينى ومسؤولياتى لهذه الدنيا ؟

ونصحنى بعض الأصدقاء أن أهبط « بومباى » عسى أن أحصل
على بعض المراتبة العملية أمام المحكمة العليا ، ولأدرس القانون الهندى
ولأحصل على ما يمكن أن أحصل عليه من الدعاوى القضائية . فقبلت
النصح وذهبت الى « بومباى » . وفيها استأجرت منزلاً ، وطباخاً
لا يقل جهله بالطهو عن جهلى به . وكان « برهانياً » اسمه « رافيشنكر »
ولم أكن أعامله معاملة الخادم ، بل كأنه أحد أفراد المنزل . وكان يصب

الماء على جسمه صباحاً ، ولكنه لا يستحم أبداً . وكانت ملابسه قدرة على الدوام ، كما كان على جهل مطبق بكل كتب الهند المقدسة . ولكن كيف يتسنى لى أن أحصل على طاه ألبس منه ؟ . كنت أقول له : يمكن أن تكون جاهلاً بالطهو ، ولكن ألا يصح أن تعرف شيئاً من عبادتك اليومية ؟ فكان يجيبني في بلاهة « عبادتي اليومية ! تذكر ياسيدى ان المحراث هو عبادتنا والفأس هى مراسمنا الدينية . اننى انما أعيش اعتماداً على مراحمك . فاذا فقدت الأمل فيها فان الزراعة تكون ملجئى وظهيرى » .

هنا بدأت أكون معلماً لقن « رابشنكر » ما يحتاج اليه من المعلومات الأولية . وبدأ الوقت يمر بى فى بطاء مسئم ، فأخذت أطهو نصف طعامى . وأجريت الطهو على الطريقة النباتية الانكليزية . فبنيت موقداً ، وبدأت أقوم بخدمة المطبخ مع « رابشنكر » . وكنت لا أشعر بحاجة الى غذاء بين الوجبات ، وعلى هذا جرى حادى . ولم يبق لى من شكوى أوجهها اليه الا ادمانه القذارة ، حتى انه لم يكن يحفظ الطعام نظيفاً نظافة كافية .

غير اننى لم أستطع المقام فى « بومباى » أكثر من أربعة أشهر أو خمسة لأنه لم يكن عندى من الدخل ما يسد النفقات . وبعد أن يئست من أن أحصل على عمل فى « بومباى » غادرتها الى راجكوت ، وعدت الى مكتبى الأول . وهناك بدأت أعمل عملاً معتدل القيمة ، وبلغ متوسط

دخلت ثلاثمائة روية كل شهر ، ولكن هذا لم يكن راجعاً الى مهارتي ، بل الى تأثير أخى . فان شريكه كان ذا خبرة بالأعمال ، فكان يعهد الى بالسائط ، ويعهد بالمشكلات الى كبار المحامين .

وأرى انه من الواجب على أن اعترف اننى بدأت فى ذلك الوقت أفكر فى ضرورة إعادة النظر فى مبدئى الذى جريت عليه من الامتناع عن دفع عمولة (سمسة) . فقد أنبئت ان الحالة هنا على الصد مما أعهد . والعمولة تدفع فى « بومباى » للسماسة ، ولكسها فى راحكوت تدفع الى الوكلاء الذين يموون المحامى بالقضايا . أما القاعدة هنا كما هى فى بومباى ، فتحتم أن يدفع كل المحامين ومن غير استثناء نصيباً مئوياً من أتعابهم سمسة . أما كلام أخى فى هذا الموضوع فكان مقنعاً . قال لى : « ترى اننى شريك مع وكيل آخر . وانى أميل دائماً أن نعهد اليك بكل القضايا التى نعرف انه فى مقدورك مباشرتها . فاذا رفضت أن تدفع عمولة لشريكى ، فمن المحقق انك تضعنى فى مركز حرج . ولما كنا بشارك معاً فى معيشة واحدة فان أتعابك تعد دخلاً مشتركاً لـكـلـيـنا وبنالـى من ذلك نصيب . ولكن ماذا يكون أمر شريكنا ؟ افرض مثلاً انه عهد بقضية بين يديه الى محام آخر ، فانه ينال منه عمولة » ولقد اقتنعت بهذا الكلام ، وشعرت بأننى اذا أردت أن أعمل كمحام ، وجب على أن أضحي بمبدئى فى دفع العمولة ، وفى مثل الحالات التى ذكرها أخى على الأقل . هذا ما ساورنى وتردد فى نفسى ، أو بكلام أوضح ، بهذا

خدعت نفسي وغششتها . ولا مندوحة لى عن أن أضيف الى هذا اننى
لاأذكر انى دفعت عمولة ما فى حالة ما فى غير هذه الحالات التى جرى
عليها كلام أخى . وعلى الرغم من أننى حاولت فى سبيل أن أوفق بين
المتقاضين ارضاء لسر مهنتى ، فقد صدمت فى ذلك الحين أول صدمة
عنيفة فى حياتى . ولقد سمعت كثيراً من قبل مايعنى الهنود بضابط
انجليزى ، ولكنى لم أكن قد وقعت أمام ضابط انكليزى وجهاً لوجه
حتى ذلك الحين .

كان أخى سكرتيراً ومسئولاً للمرحوم « راجابورباندر » وقد عقلت
فى عنقه من بعد ذلك تهمة أنه أشار بصيحة فاسدة لما كان يشغل ذلك
النصب . ووضعت المسألة بين يدى القومسير السياسى ، وكان فى صدره
من أخى حفيظة . وكنت أعرف ذلك الضابط لما كنت فى انكلترا ،
ومما يمكن أن أصرح به انه كان على صداقة معى . وظن أخى أنه من
المستحسن أن ألبأ إلى هذه الصداقة ، فألقى بكلمة طيبة عند الضابط
نشفع لأخى بعض الشيء . وظن أخى أنه فى استطاعنى أن أوضح حقيقة
الأمر للضابط لعل ذلك يخفف من حفيظته نحوه . غير أنى لم أوافق
مطلقاً على هذه الفكرة ، لأننى لم أرد أن أجعل لصداقة حصلت مصادفة
فى انكلترا ، مدخلا فى مثل هذه الامور . فاذا كان أخى حقيقة قد أخطأ
فأى شىء يفيد تدخلى أو توصيتى ؟ وإذا كان بريئاً ، فما عليه إلا أن
يكتب عريضة يشرح فيها حقيقة الامر وينتظر النتيجة . غير أن أخى

لم ترقه هذه النصيحة . وقال لى « انك لا تعرف كاثياوار . وعليك فوق ذلك أن تعرف الدنيا . فليس لشيء هنا قيمة الا الوسائط . ولا يخلق بك وأنت أخى أن تمتنع عن القيام بالواجب ، وأنت قادر على أن تفوه بكلمة طيبة عنى لضابط أنت على صلة به » .

ولقد أصبح من المستحيل على بعد ذلك أن أرفض رأيه ، فذهبت الى الضابط على غير ارادتى وعلى كره منى . وكنت أعرف أنه لا يحى لى أن ألاقه ، ومتحققاً فوق ذلك انى كنت على وشك تعريض احترامى الشخصى للامتهان . ولكنى على الرغم من هذا ضربت موعداً وذهبت ، وما كدت أذكره بصلتنا فى انكلترا ، حتى أبان لى سريعاً أن « كاثياوار » غير انكلترا ، وان ضابطاً بريطانيا فى احازته ، غيره وهو قائم بمهام منصبه . ولقد ذكرت الضابط بتلك الصلة التى كانت بيما ، غير ان تذكيره بها قد جاوز به إلى الخشونة . أما خسنوته فكان معناها « انك لم تأت الى هنا اليوم الا لتنتهك هذه الصلة باستغلالها » غير انى رغم ما أدركت من الموقف ، شرحت شكاتى . وهنا عيل صبره ، وقال محتداً — « إن أخاك دساس ، وائى لا أريد أن أسمع شيئاً فوق ما سمعت . ليس عندى وقت . واذا كان عند أخيك ما يقوله فما عليه الا أن يلجأ الى المراجع المختصة » . وربما كنت أستحق هذا الجواب الحاد . غير ان حب الذات أعمى ، فعدت بعد كل هذا الى روايتى أتمها . وهنا وقف الصاحب وقال لى « يجب أن تذهب الآن » فقلت « ولكن

أرجوك أن تسمع مني . فلم يزد كلامي هذا الا غضباً . فنادى خادمه وأمره أن يدلني على طريق الباب . وكنت لا أزال متردداً عندما أقبل الخادم . ووضع يديه فوق كتفي ودفعني خارج الباب .

وما كدت أستقر في مكاني حتى كتبت مذكرة معناها « انك اهنتني ، وتهجمت على من طريق خادمك . فاذا لم تقم بما يصلح هذا الأمر ، اضطررت أن أرفع أمري الى القضاء » ولكن سرعان ما تلقيت منه الجواب على يد حاجبه وقد جاء فيه .

« لقد كنت بذيثاً معي . فقد أمرتك بالذهاب وأنت امتنعت . فلم يكن لي من بد ازاء امتناعك من أن آمر خادمي بأن يريك طريق الباب . ولما سألك أن تترك مكتبي لم ترد أن تفعل ذلك ، فما كان لديه من وسيلة أخرى الا أن يستعمل معك من القوة قدرأ يكفي لاجراجه . وانك حر في أن ترفع أمرك الى أية جهة أردت . »

عدت الى المنزل وفي جيبي هذا الرد ، ذليلاً خافض الرأس ، وقصصت على أخي كل ما حصل ، فخن . ولكن لم يكن يدرى طريقاً يسليني به عما حدث . وكثيراً ما تحدث عن هذا الأمر الى أصدقائه من الوكلاء ، لأنني لم أكن أعرف الطريق الرسمي لمقاضاة الصاحب ، وحدث أن السر « فيروز شاه مهتا » كان في راجكوت في ذلك الوقت ، وقد قدم من بومباي لمباشرة قضية ما . ولكن كيف السبيل لحام

سفير حديث العهد بالمهنة ، أن يقابله ويحظى ببقياه ؟ ولكن أرسلت
ليه أوراق قضيتي من طريق الوكيل الذي دعاه الى راجكوت وسألته
لرأى في الموضوع . فقال للوكيل « أفهم غاندى ان مثل هذه الأشياء
مرعاضى هنا . انه هبط من انجلترا قريباً ولا يزال دمه حامياً . وانه
لا يعرف الضابط الانجليزى . فاذا كان يرح من مهنته شيئاً هنا ، واذا كان
لزمان يؤاتيه بالحاجات ، فقل له ان الأولى به أن يعزف مذكرته وأن يبيع
لا هانة . فانه لن يربح شيئاً من مقاضاة الصاحب ، بل على الضد من ذلك
عالمأ يرجح كثيراً أن يكون في ذلك هدم مستقبله . وعليك أن نعرفه عنى
إن عليه أن يعرف من الدنيا أكثر مما عرف حتى الآن » .

كان لهذه النصيحة مرارة السم فى فمى ، ولكن لم يكن لى مندوحة
من أن أبتلعها ، كما ابتلعت الالهانة ، ولكنى على كل حال انتفعت بها اذ
ماهدت نفسى على « أن لا أضهها فى مثل هذا الموضع الدقيق مرة أخرى
وأن لا أحاول أن أستغل الصداقة هذا الاستغلال ثانية » . ومنذ
ذلك الوقت لم أرتكب جريمة الخنث بعهدى والرجوع عن تصميمى
مذا . غير ان هذه الصدمة الألمية غيرت مجرى حياتى تغييراً كلياً .
ولا شبهة مطلقاً فى انى كنت مخطئاً اذ أقدمت على الذهاب الى
لقومسير السياسى . غير أن حنقه وقلة صبره وغضبه ، جميعها كانت
لا تتناسب مع خطئى . ولم يكن فى الأمر ما يوجب طردى . لانى
كنت سوف لا أستغرق من وقته أكثر من خمس دقائق . ولكن

الواقع انه لم يستطع أن يحتمل منى كلاماً في الموضوع . وكان في مستطاعه أن يطلب منى في أدب أن أذهب . ولكن القوة الغاشمة أسكرته الى درجة غير كفيلة بالاتزان . ولقد علمت فيما بعد أن الصبر أبعد الأشياء عن فضائله .

أما اذا عزمت على أن أزاول مهنتي في ذلك المكان فمما لا شك فيه أن أكثر قضاياى سوف تنظر أمام محاكمه . وكان مما يخرج عن طوق أن أتوصل الى ترضيته والتفاهم معه ، كما انى لم أكن على استعداد لأن أتلف اليه . ولما كنت قد هددت بأن أقاضيه ، صعب على أن أطل ساكتاً . غير انى سرعان ما بدأت أفهم شيئاً من سياسة هذه المقاطعة . فان « كاثياوار » ليست الا كتلة مكونة من ولايات صغيرة . وكانت الدسائس بين الولايات ، والمؤامرات بين الضباط ليرقى كل منهم درجات القوة والسلطان الواسع ، القاعدة العامة في النظام الحكومى . وكان الأمراء تحت رحمة غيرهم . ولم يكن فى وسعهم الا أن يلقوا بسمعهم الى المتزلفين . ولقد شعرت بأن هذا الجو مشبع بالسموم ، وكيف أبقي بعيداً عن التأثير به ؟ كانت هذه مشكلة بذاتها . وما لبثت غير قليل حتى شعرت بأننى مكتئب خائر النفس ولحظ فى أخى هذا الأمر . وشعر كلانا بأننى اذا استطعت أن أجد عملاً بعيداً عن هذا المكان ، استطعت أن أفلت من جو الدسائس والوشايات . ومن غير أن ألجأ الى وسائل غير شريفة ، لم يكن فى وسعى أن أشغل منصباً ادارياً أو قضائياً .

ناهيك بمشكلى مع القومسير السياسى .

كانت « پورباندر » اذ داك تحت الادارة الحكومية ، وكنت هبطتها لأسعى فى أن أنال للأمير حقوقا أوسع من الحقوق التى يتمتع بها . وكذلك كنت أرغب فى أن أرى المدير لأناقشه فى مسألة أجور الأراضى وارتفاع القيمة التى تجبى من المستأجرين . غير انى وجدت هذا الضابط المدير ، ولو انه هندى ، أشنع من الصاحب أخلاقا وأشد زقا . ولقد فشلت فى هذا الأمر فشلا عظيما ، حتى لقد خيل الى أن العدل يمنع عن زبائى عمداً ، وبذلك أعجز عن أن أصل اليه . وكل ما كان فى مستطاعى أن أعمله لا يتعدى أن أعرض أمري أمام القومسير السياسى أو الحاكم الذى لم يكن من شأنه الا أن يرفض النظر فى شكواى قائلا : « ليس من شأننا أن نتدخل فى الأمر » . أما اذا كان هنالك قانون أو نظام يحدد مثل هذه القرارات ، فلا شك فى أن يكون لنا شأن . ولكن ماذا يكون العمل مادامت ادارة الصاحب هى القانون ! غير انى شعرت فى النهاية اننى ساخط مغيط ، ورغبت كل الرغبة فى أن أبعد عن جو الدسائس جهد ما أستطيع .

فى هذا الوقت كتبت احدى المؤسسات التجارية فى « پورباندر » الى أخى تعرض عليه الآتى :

« لنا أعمال فى جنوب افريقية ، ومؤسسة من أكبر المؤسسات . وقد اشتبكنا فى قضية تبلغ قيمتها أربعين ألفاً من الجنيهات الانجليزية .

ومضى على الدعوى زمن طويل وما تزال منظورة ، واستخدمنا فيها
أمهر الوكلاء وأشهر المحامين . فاذا سمحت بأن ترسل أخاك الى جنوب
افريقية فانه سوف يفيدنا ويفيد نفسه . وسوف يستطيع ، على ما نرى ،
أن يزودنا بنصائح ثمينة ، فضلا عن أنه سيرى بلادا جديدة وينشئ
علاقات مع أشخاص لم يكن يعرفهم » . وبعد مناقشة قلت العرض
من غير أية مساومة وأخذت أستعد للذهاب الى جنوب افريقية .



الفصل السادس

في ناتال

كان « عبد الله شيث » ينتظرني في « دوربان » Durban ووصلت السفينة الى المرفأ . فلاحظت الناس يصعدون الى الباخرة ليلاقوا أصدقاءهم ، كما لاحظت أن الهنود غير محترمين . ولم يفتنى أن أرى طابعا من الانحطاط والوضاعة ظاهراً في الطريقة التي عومل بها « عبد الله شيث » من الذين كانوا يعرفونه على ظهر الباخرة . غير أن « عبد الله شيث » كان قد ألف هذه المعاملة . والذين لاحظوا وجودى منهم

لم يتعففوا عن أن يرمقوني بنظرات الاحتقار المزوجة بالتعجب والدهشة . فان لباسى كان يميزنى عن بقية الهنود . فقد كنت ألس بذلة « فروك » وعمامة صغيرة .

وكان « عبد الله شيث » غير منقّف ، ولكنه كان واسع التجربة كبير الخبرة . ويمتاز بعقل حاد مدرك ، وكان يعرف فى نفسه هذه الكفاية . ومحرته استطاع أن يلتقط من اللغة الانجليزية قدرأً يمكنه من التكلم بها . فساعده هذا فى أعماله ، سواء فى علاقاته الكثيرة بمديرى البنوك والتجار الأوربيين ، أم فى شرح مشاكله لسنشاريه . وكان الهنود يعجبونه ويحترمونه ، كما كانت مؤسسته أكبر المؤسسات الهندية ، أو على الأقل من أكبرها . ولكن بجانب كل هذه المزايا كانت فيه نقيصة واحدة . فانه كان بطبعه مرتاباً كثير الشك .

وله بالاسلام شغف بدفعه الى الفخر به ، ويجعله كثير الميل الى المناقشة فى الفلسفة الاسلامية ، وعلى الرغم من أنه كان جاهلاً باللغة العربية ، كان المامه بالقرآن والأدب الاسلامى على وجه عام لا بأس به . أما الأمثال فكان فيها كنزاً لا ينفى ولا ينصب ، يلجأ الى ذاكرته فتواتيه بها عن غير جهد . ولقد زودتنى علاقتى به بكثير من المعلومات العملية عن الاسلام . ولما زادت ألفتنا ، كنا نعضى فى مناقشات طويلة وأبحاث واسعة فى الأمور الدينية .

وفى اليوم الثانى أو الثالث من وصولى صحبنى لأرى محكمة «دوربان» وهنالك قدمنى لكثير من الناس وأجلسنى الى جانب محاميه . فظل

الحاكم ينظر الى ويحدد جنى بعينه ، ثم أمرنى بأن أخلع عمامتى ورفضت أن أصدع بما أمر وتركت المحكمة فى الحال . ووقع فى روعى أن الجلابد والصراع ينتظرانى حيث حللت أيضاً . ولقد أبان لى « عبد الله شيث » عن السبب الذى من أجله يطلب إلى بعض الهنود أن يخلعوا عمامتهم . فالذين يرتدون الملابس الاسلامية يمكن أن يسمح لهم بوضع عمامتهم ، أما غيرهم فمن الواجب أن يخلعوها اذا دخلوا المحكمة .

ويقضى على الواجب أن أشرح هنا بعض التفاصيل لأظهر السبب فى هذا التفضيل . ففى خلال اليومين أو الثلاثة التى قضيتها قبل ذهابى الى المحكمة لاحظت أن الهنود منقسمون الى شيع . احداها شيعة التجار المسلمين ، ويدعون أنفسهم « أعراباً » والثانية شيعة الهندوكيين ، والثالثة شيعة كتاب « البارسى » (Parsi) . أما الكتاب الهندوكيون ، فلم يكونوا الى هؤلاء ولا إلى اولئك ، مالم تتصل مصالحهم « بالاعراب » . أما الكتاب البارسيون ، فيدعون انهم فارسيون أى أعجم . وللشيع الثلاث روابط وعلاقات تصل بينهم . ولكن أكبر شيعة منهم كانت تتكون من رجال التميل Tamil والتيلوجو Telugu وسكان شمالى الهند الذين وفدوا الى جنوبى افريقية بمقتضى عقود حررت معهم والعمال الأحرار أى الذين يشتغلون بغير عقود . أما الذين وفدوا بعقود فقد هبطوا على ناغال يعملون فيها خمس سنوات . أما الشيع الثلاث الأخر فلم يكن لهم من عمل الا من طريق الاتصال بهؤلاء ويدعونهم

الانجليز « الأجراء » Coolie وهى كلمة هندية الأصل ومعناها جمال أو شغال . وقد تنصرف الى الأجير أو العامل ، فصرفها الانجليز الى الهنود اطلاقاً .

ولما كانت الأعلبية المظلمى من الهنود فى جنوبى افريقية من طائفة الأجراء ، حرت العادة أن يدعى الهنود جميعاً أجراء - Coolie - أو « سامى » Sammi بلا تمييز بين الأقدار ولا المهن . وكلمة « سامى » محرفة عن « سوامى » Swami وهو مقطع يضاف الى نهاية الأسماء عند قبيلة « التميل » فى الهند .

لهذا عرفت فى جنوبى إفريقيا نأى محام من الأجراء Coolie Barrister كما كان يعرف التجار بأنهم تجار الأجراء Coolie merchants وهذا سى المعنى الذى تدل عليه كلمة كولى Coolie وأطلقت لتكون اسماً عاماً على كل هندى .

أما التجار المسلمون فكانوا يحاولون أن يتخلصوا من شناعة الصفة التى جرت على الهنود مجرى أسماء الأعلام ، فيقول أحدهم اذا ما دعى بهذا النعت « انى لست أجيراً وانما انا عربى » أو يقول « اننى غير أجير ، وانما أنا تاجر » فاذا كان الرجل الانجليزى الذى يدور معه الحديث فيه شئ من الأدب أو حسن الذوق ، اعتذر اليه .

ولوضع العمامة على الرأس شأن كبير فى مثل الحالات التى قامت اذذاك فى جنوبى إفريقيا . فان خلع العمامة الهندية من فوق الرأس

ليس له من معنى الا انك تصبر على اهانة أو تبتلع مسبة رميت بها .
ولهذا فكرت في أن أودع عمامتي الوداع الأخير وأن ألبس قبعة
انجليزية تحميني السب والاهانة ، وتوفر على كثيراً من المنازعات .
ولكن « عبد الله شبت » لم يوافق على الفكرة وقال « انك لو أتيت
شيئاً من هذا كان له أسوأ الأثر ، لأنك ستتحدى أولئك الذين يدعون
إلى لبس العمامة الهندية ويحرمون لبسها . والعمامة تستوى على رأسك
خيداً ، فاذا لست قبعة طن الناس انك « جرسوناً » (حاد في
مشرب) .

كان في هذه النصيحة قدر من الحكمة والوطنية . ولكن كان فيها
بجانب هذا أيضاً قدر من الجود وصيق الفكر . أما وجه الحكمة فيها
فكان طاهراً . وما كان ليحتم على الاستمرار على لبس العمامة
لو لم يدعه الى ذلك داعي الوطنية . أما اسارته الى أن الناس قد يظنونني
« جرسوناً » ففيها جود . وكان من بين اليهود ذوى العقود أو المتعاقدين
على العمل ، هندوكون ومسلمون ومسيحيون . أما المسيحيون فهم
أبناء أولئك الذين اعتنقوا الدين المسيحي . ولقد كان عددهم كبيراً حتى
سنة ١٨٩٣ . وكانوا يلبسون الزي الانجليزي ويكسبون عيشهم من
العمل « كجرسونات » في الفنادق . ولهذه الطائفة أثار « عبد الله
شبت » لما بصحنى بأن أبقى على عمامتي . وكان الهندويرون أن العمل في
الفنادق أمر مبتذل مذموم .

على كل حال اذ عمت لنصيحة «عبد الله شيث». ولكنى كتبت الى الصحف شارحاً ما وقع لى ، ودافعت عن ضرورة لبس العمامة في قاعة المحكمة . ولقد أخذ الأمر شأنًا كبيراً في الصحف وكان مثار مناقشات انتهى الأمر منها بأنى « زأر غير مرغوب فيه » . وكانت هذه الحادثة سبباً في الاعلان عنى فأصبحت معروفاً على غير ما كنت أنتظر في كل نواحي إفريقيا الحموية في حلال بصعة أبام . وانشى الرأى ، وفريق يناصرنى ، وفريق ينتقد «ترقى» مر الانتقاد .

في اليوم السابع أو الثامن من مقامى بجبوى إفريقيا ، عادت «دوربان» . وأخذت تذكرة بالدرجة الأولى لدى السمر . وكانت العادة أن يدفع المسافر في الدرجة الأولى خمسة شلنات اذا أراد أن ينام في عربة النوم . وحتم على عبد الله شيث أن أوجر فراشاً . ولكن عنادى وحيلائى ورعننى في الاقتصاد ، كل هذه جعلتنى أرفض ما أشار به على . فقال لى « تصور أولاً ان هذه البلاد غير الهند . والله الحمد لدينا مايكفى نفقاتنا . فأرجوك أن لاتحرم نفسك من شئ أنت في حاجة اليه » .

ووصل القطار الى «مرتربرج» عاصمة «ناتال» في الساعة التاسعة مساءً وكانت حجرات النوم تهبأ في هذه المحطة ، فتقدم خادم وسألنى اذا كنت محتاجاً لفراش ؟ فأجبتة سلبياً ، وانصرف . ولكن هبط على مسافر وأخذ ينظر في طولا وعرضاً . ورأى اننى من ذوى «الألوان»

Coloured man فأزعجه هذا الأمر ، وخرج ثم عاد ومعه موظف أو موظفان من عمال السكة الحديد . ولكن ظل الكل صائتين هنيهة ، ثم قرب منى أحد الموظفين وقال لى : « قم من هنا . انك يجب أن تذهب الى عربة السبنسة .^(١) »

« ولكن معى تذكرة فى الدرجة الأولى »

فرد على الموظف الآخر قائلا : « هذا لايهم . انى آمرك بأن تذهب الى السبنسة » .

— « لقد سمح لى أن أسافر فى هذا المحل من «دوربان» وأنا مصمم على أن أظل به حتى نهاية سفرى »

— « انك سوف لاتظل به ، بل يجب عليك أن تغادره ، وإلا فانى سأضطر الى الاستعانة بأحد كونسبتلات البوليس ليخرجك من هنا »
--- « لا بأس . افعلى . وانى أرفض أن أخرج من هنا مختاراً »

وحاء الكونسبتل ، فأمسك بيدي وجذبني خارج العربة . وأخرج معى أمتعتى الى الرصيف . ولكنى رفضت أن أذهب الى حيث أمرت وأزف ميعاد السفر ، وأطلق البخار للقطار العنان . فذهبت الى حجرة الانتظار ، بعد ان أخذت معى حقيبة صغيرة تعودت أن أحملها فى يدي وتركت بقية أمتعتى حيث كانت . بعد ان عهديت بها الى موظفى سكة الحديد .

(١) السبنسة كلمة نطقها فى مصر على كلمة - van - وهى عربة تكون فى مؤخرة القطار وفيها عامل يقوم ببعض أعمال ضرورية فى حالات خاصة .

وكنا في فصل الشتاء، والشتاء في الأماكن المرتفعة في جنوب
أفريقية شديد البرد. ومدينة «مرتزرج» على ارتفاع كبير، فكان
البرد زمهريراً. وكان معطفي في الحقيبة الكبيرة، وخشيت بل حفت
أن أسأل عنها لئلا تنالني اهانة أخرى، فجلست اهتز من البرد وفرائصي
ترتعد. ولم يكن في الحجرة نور، بل كانت في ظلام دامس. وفي منتصف
الليل جاء مسافر وحاول أن يشتبك معي في الكلام، ولكنني كنت في
حالة يتعذر على فيها أن أجد من نفسي ميلاً للحديث.

وبدأت أفكر في واجبي في مثل هذا الظرف وتلقاء هذه المعاملة. أوجب
على أن أصارع وأحالد في سبيل التمتع بحقوقى، أم أرجع إلى الهند؟ أم
أتابع السفر إلى «ريتوريا» ثم أعود إلى الهند بعد أن أفرغ من قضيتى؟
وكننت أعتقد أن من الحين أن أرجع إلى الهند قبل أن أقوم بكل
التراماتى وواجباتى. أما المتاعب التى تعرضت لها حتى الآن فتافهة ولا
قيمة لها. وهى فى حقيقتها ليست إلا عرضاً بسيطاً من أعراض ذلك
المرض الذى يدعوونه مرض «اللون» فلا بد لى اذن من أن أحاول
استئصال شأفة هذا المرض وأن أقاسى فى سبيل ذلك المتاعب والآلام.

. وعلى هذا صممت أن أركب القطار التالى الى «ريتوريا». وفى
الصباح أرسلت برقية مطولة الى مدير السكك الحديدية العام، وأخرى
الى «عبد الله شيث» الذى قابل مدير السكة الحديدية بمجرد أن وقعت

البرقية في يده . ولقد برر مدير سكة الحديد مسلك الموظفين ، ولكنه أخبره بأنه أuddy تعليماته الى ناظر محطة « مرتزرج » بأن ينظر في أمر وصولي الى حيث أريد آمنا . وأرسل عبد الله شيث الى التجار الهنود في مرتزرج وغيرهم من أصدقائه في أما كن أخرى يوصيهم بي خيراً . وحضر التجار ليلاقوى في المحطة ، وأخذوا يطيبون خاطرى ويروون الحوادث التى وقعت لهم ، ويظهرون لى أن ماوقع ليس بشىء غير عادى . وأخبروى أيضاً أن الهنود الذين يسافرون في الدرجتين الأولى والثانية يجب أن يوطنوا النفس على أن يلاقوا من عمال سكة الحديد ومن المسافرين « البيض » مثل هذه المعاملة ، وقضيت اليوم اسمع لمثل هذه الروايات المحزنة . وأقبل قطار المساء . فاشتريت في « مرتزرج » تذكرة « النوم » التى رفضتها في « دوربان » .

ووصل القطار الى « شارلستون » في الصباح . ولم يكن فى تلك الأيام مواصلات بخارية بين « شارلستون » و « جوهنزبرج » بل كانت المواصلات تنحصر فى النقل على عربات كبيرة تقضى الليل فى بلدة « ستندرتون » أثناء السفر . وكان معى تذكرة تبيح لى السفر فى هذه العربة ، ولم تكن قد ألغيت قانوناً على الرغم من تخلفى يوماً بأكملة فى بلدة « مرتزرج » . وفضلاً عن هذا كان « عبد الله شيث » قد أرسل برقية الى متعهد العربات فى « شارلستون » ليسهل لى طريق السفر .

غير أن المتعهد كان يحاول أن يستند الى أية حجة يمنى بها عن ركوب العربى لما عرف أنى « أجنبى » فقال لى « ان تذكرتك ألغيت » فرددت عليه بما يجب أن يقال فى مثل هذه الظروف . ولم يكن السبب فى عدم سماحه لى بالسفر فى العربى هو عدم وجود الفراغ ، بل كان سبباً آخر يحاول أن يخفيه . والمتبع فى مثل هذه الأسفار أن يجلس المسافرون داخل العربى ، ولكنى لما كنت معتبراً من « الاجراء » وأنى أجنبى ، رأى المراقب الذى يرافى المسافرين « البىض » أن أجلس بجوار السائق . وكانت هناك مقاعد على جانبى العربى من الخارج والواجب على هذا المراقب أن يجلس فى أحدها ، ولكنه جلس داخل العربى وأعطانى مقعده . واعتقدت أن هذا مجرد اخلال بالنظام وخروج على العدل ، فضلاً عما فيه من اهانة واذلال ولكنى فضلت أن أذعن ، لأنه لم يكن فى مستطاعى أن أقترح طريقى إلى داخل العربى ، وإذا احتججت سافرت العربى وتركتنى حيث أنا . ومعنى هذا أنى أخسر يوماً آخر ، ولا يعلم إلا الله ما كان يحدث فى ذلك اليوم . وعلى الرغم مما كنت أشعر به فى نفسى من غىظ وحنق ، جلست باحتراس إلى جانب السائق .

حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر وصلت بنا العربى إلى « برديكوت » وأراد المراقب أن يجلس حيث كنت أجلس لأنه أراد أن يدخن . ولعله كان يشعر أنه فى حاجة إلى الهواء الطلق . فأخذ من السائق قطعة قذرة من الخيش وفرشها على الممشى ونادانى قائلاً - « أنت يا هذا . اجلس

هنا لأنى أريد أن أجلس إلى جاب السائق . وكانت هذه الالهانة أكثر مما يمكن أن أحتمل ، ولكنى قلت له فى خوف ورعدة - « انك بنفسك الذى أجلسنى هنا ، على الرغم أن من حق أن أجلس داخل العربة . غير أنى احتملت هذه الالهانة . والآن لأنك تريد أن تجلس فى الخارج لتدخن ، تريدنى أن أجلس عند قدميك . وانى لأرفض أن أذعن لهذا مالم آخذ مقعدى داخل العربة . »

وإذ كنت أجهد نفسى جهداً لأخرج هذه الكلمات، تقدم الرجل نحوى وبدأ يصفعنى على أذنى صفعاً مؤلماً شديداً ، وأمسك بذراعى وحاول أن يجذبنى إليه فتشبثت بأجزاء من العربة وصممت على أن أظل متشبثاً بها ، حتى ولو كسر رسمى ، وكان المسافرون يشهدون هذا المنظر، والرجل يجذبنى اليه ويعمل جهده ليزحزحنى من مكانى ، وأنا متشبث به . وكان قوياً بقدر ما كنت ضعيفاً . وفى النهاية أخذت الرحمة تعمل فى قلوب بعض المسافرين فنادوا الرجل قائلين « اتركه أيها الرجل . انه على حو . فانه إذا لم يستطع أن يجلس حيث أردت ، فاتركه يجلس معنا » فأجابهم المراقب « لا تخافوا » . ولكن الظاهر أنه شعر بأنه هزم ، فامتنع عن ضربى ، وترك ذراعى متجهماً ، وأمر الخادم « الهوتنتوتى » أن يشغل المقعد الذى كان هياًه لى ، وأخذ هو مقعده .

وأخذ المسافرون أمكنتهم ، وأعطيت اشارة السير ، وانطلقت العربة فى مسيرها وكان قلبى يدق دقات سريعة قوية ، حتى لقد خيل إلى أنه

يكون من العجب إذا أنا وصلت إلى حيث كنت أريد وفيّ نفس يتردد .
 وكان الرجل يحدّثني بنظرة غضب بين آوة وأخرى مشيراً إلى يده
 في تهديد قائلاً . « خذ حذرك . فاني إذا وصلت إلى « ستندرتون »
 فسأريك عاقبة عنادك » . ولكن ظلّلت صامتاً أدعوا الله أن يكون في عوني .
 ولما خيم الظلام كنفاني « ستندرتون » ولم أأكد أرى وجوهاً هندية
 حتى صعدت من أعماق رئتي تهيدة طويلة . وبمجرد أن نزلت من العربة
 قال لي هؤلاء الأصدقاء نحن في انتظارك لمرافقتك إلى محل تجارة
 « عيسى شيث » فقد أرسل إلينا « دادا عبد الله » بريقة بهذا المعنى .
 فاغتنبت ورافقهم إلى محل « شيث عيسى حاجي سومر » والتفت من
 حولى كتاب المحل ، وقصصت عليهم كل ما حدث لي خزنوا ، ولكنهم
 انطلقوا يعمدون على سمعى ما وقع لكل منهم من التجارب المريرة .
 وأردت أن أخبر مدير شركة العربات بكل ما وقع لي . فكتبت إليه
 خطاباً ، قصصت فيه كل ما حصل تماماً ، ووجهت انتباهه إلى التهديد
 الذى هددنى به العامل ، وكذلك طلبت منه تأكيده بأن يعطينى مكاناً
 مع بقية المسافرين داخل العربة عندما تستأنف السفر صريحة الغد .
 فكان جواب المدير ما يلي :

« إن العربة التى ستغادر ستندرتون أكبر من العربة الأولى .
 ورجالها غير رجال تلك . والعامل المشكو منه سيكون بعيداً عن العمل
 غداً ، وسيخصص لك محل مع بقية المسافرين فكان في جوابه

هذا بعض الترضية . ولم يكن لدى أية فكرة في مقاضاة الرجل الذى ضربنى وبذلك انتهى الأمر عند هذا الحد .

وفى الصباح رافقنى رحال « عيسى شيث » إلى العربية ، وأخذت فيها مكانا لائقاً ، ثم وصلت « جوهنز برج » فى المساء آمناً .

إن ستندرتون قرية صغيرة ، وجوهنز برج بلدة كبيرة . وكان عبد الله شيث قد أبرق إلى « جوهنز برج » أيضاً ، وأعطانى اسم « محمد قاسم قمر الدين » وعنوان محله التجارى . وحضر إلى خادمه ليتلقانى فى موقف العربات . ولكن لم أره ، كما أنه لم يعرفنى . فعزمت على الذهاب إلى فندق . وركبت عربية وأمرت السائق أن يذهب بى إلى « الجراندا أوتيل ناسيونال » وقابلت مدير الفندق وسألته عن حجرة . فأخذ ينظر فى هنيهة ، وقال فى أدب - « متأسف ليس عندنا مكان » فعدت إلى العربية وأمرت السائق أن يذهب إلى محل تجارة محمد قاسم قمر الدين . وهناك وجدت عبد الغنى شيث يرتقب وصولى ، فتلقانى بكل ترحاب ، ومضى يضحك مما حدث لى فى الفندق قائل « وهل تنتظر أنه يمكن أن تقبل فى الفندق ؟ »

- ولم لا .

- « ستعرف السبب بعد أن تقيم هنا بضعة أيام . اننا لا نستطيع أن نعيش فوق هذه الأرض ما لم نتحمل ونسامح . وفى سبيل جمع المال نتغاضى عن السباب . هكذا نحن هنا »

وأخذ يقص على سمعى مختلف أنواع الصعاب والمشقات التى يعايبها
الهنود فى جنوبى أفريقيا .

وبعد أن مضى على مقامى زمن قال لى - « إن هذه السلاسل ليست
بالديار التى تليق بأمثالك . وأنتك سوف تمضى إلى بريتوريا غداً . فعليك
أن تسافر فى الدرجة الثالثة . فإن مجرى الأحوال فى الترنسفال أشنع منه
فى الناتال . فإن تذكر الدرجة الأولى والثانية لاتصرف ثباتاً للهنود .
وإن كل مجهود فى سبيل تغيير هذا النظام يذهب هباء . ولقد أرسلنا
مرات عديدة من ينوب عنا للكلام فى هذا الشأن ، ولكن رحالنا على
وجه عام مكرهون السفر فى الدرجتين الأولى والثانية »

فأرسلت فى طلب لوائح سكة حديد وقرأتها بعناية . وبعد الدرس
وجدت فيها محرراً . فإن اللغة القديمة التى كتبت بها اللوائح لم تكن
مضبوطة ولا بينة الحدود تماماً . واللغة التى كتبت بها لوائح سكة
الحديد كانت أحط من تلك بمراحل .

فقلت لشيث « أريد أن أسافر فى الدرجة الأولى . فإذا لم أستطع فانى
أفضل أن أركب عربة إلى بريتوريا ، وهى لا تبعد أكثر من سبعة
وثلاثين ميلاً »

فأرشدنى شيث عبد الغنى عما يقتضى هذا الأمر من ضياع الوقت
وزيادة النفقات . ولكنه وافق على أن أسافر فى الدرجة الأولى ،
وأرسلنا بذلك مذكرة إلى ناظر المحطة ، ذكرت فيها أنى محام وأنى أسافر

دائماً في الدرجة الأولى ، وأن عملي يقضى على بأن أصل إلى بريتوريا في أقرب فرصة ممكنة . ولم يكن لدى من الوقت ما يسمح بانتظار جوابه ، وفضلت أن أتلقاه منه شخصياً في المحطة ، وكان لي غرض من تلقى جوابه بشخصي خفية عن أصدقائي . فاذا كان ناظر المحطة سيرسل إلى رداً مكتوباً فمن المؤكد أنه سيقول « لا » مادام مقتنعاً بأن الشخص المسافر لا يزيد عن محام من « الاجراء » فيكون من الأوفق إذن أن أظهر أمامه في بزتي الانجليزية ، وأن أتكلم اليه ، فربما أحمله على أن يرضى بصرف تذكرة في الدرجة الأولى . ولذا ذهبت إلى المحطة في بذلة « فروك » ورباط رقبه من الطراز الأول ، وأبرزت جنياً انجليزياً ليأخذ منه أجرة السفر ، وسألته أن يعطيني تذكرة في الدرجة الأولى .

- فسألني - « هل أرسلت إلى هذه الرقعة ؟ »

- نعم . واني لأكون ممنوناً إذا سمحت لي بتذكرة ، فان واجبي

يقضى على أن أصل إلى بريتوريا اليوم .

فتبسم في حنو وقال « إني لست من أهل الترنسفال ، بل هولاندى . ولذا أقدر شعورك وأمنحك عطفي . وسأعطيك التذكرة التي تطلبها ، ولكن على شرط أنه إذا أراد مراقب القطار أن ينقلك إلى الدرجة الثالثة ، فلا تحملني أية مسؤولية في الأمر . وأعني بذلك أنك لاتقاضى الشركة . وآمل أن تصل سالماً فاني أراك سيداً كريماً » .

وصرف التذكرة ، فشكرته وأكدت له انى سأرعى عهدي معه .

وجاء شيث عبد الغنى ليودعنى على المحطة . ولقد أبدى أقصى الدهشة عندما عرف أنى تحصلت على تذكرة فى الدرجة الأولى ، ولكنه حذرنى قائلاً - « سأكون بلا شك شاكراً للعناية إذا أنت وصلت بريثوريا سالماً . وأخشى أن لا يتركك مراقب القطار آمناً فى الدرجة الأولى . وإذا تركك هو ، فإن المسافرين سوف لا يتركوك » .

وأخذت مكانى فى الدرجة الأولى من العربى وسافر القطار . وفى محطة « جرستون » أتى المراقب ليفحص التذاكر ، فغضب إذ وجدنى فى الدرجة الأولى وأشار إلى بأصبعه آمراً أن أذهب إلى الدرجة الثالثة . فأبرزت له تذكرتى فقال - « إن هذا لا يهم . يجب أن تذهب إلى الدرجة الثالثة . »

ولم يكن معى فى العين التى أجلس بها إلا رجلاً انجليزياً . فتحدى المراقب قائلاً - « ماذا تعنى بذلك . ومن أجل أى شىء نتعب هذا السيد ؟ ألا ترى أن معه تذكرة فى الدرجة الأولى ؟ أما أنا فلا أسعر بأى تكليف فى أن يرافقنى فى السفر » - ثم نظر إلى وقال - « تفضل واسترح حيث أنت » . فتمتم المراقب قائلاً - « إذا كنت تريد أن ترافق أجيئاً فى السفر فمادامهمنى ؟ » . ثم انصرف .

وحوالى الساعة الثامنة مساء وصل القطار الى بريثوريا .

ولقد ترقبت أن يتلقانى فى المحطة شخص من قبل محامى «دادا عبد الله» وكنت قد صممت على أن لا أنزل فى بيت أحد من الهنود ، فكان

من المنتظر أن لا أجد أحداً منهم . غير أنى لم أجد أحداً أيضاً من قبل الحامى . ولقد علمت بعد ذلك أنى وصلت يوم أحد ، ولم يكن فى استطاعه أن يرسل أى شخص من غير أن يكون فى ذلك شىء من التكليف والامتناع . ولم أكن أعرف إلى أين أذهب ، وخفت أن لا يسمح لى بالمبيت فى فندق من الفنادق .

أما محطة بريتوريا سنة ١٨٩٣ فغيرها الآن ، فقد كانت أنوارها ضئيلة وكان المسافرون قليلى العدد . فتأخرت عن الخروج وتركت جميع الركاب يخرجون قبلى ، حتى أستطيع أن أسأل العامل الذى يجمع التذاكر عما اذا كان فى قدرته أن يهذبى الى فندق صغير ، أو الى أى مكان من نوعه أستطيع أن أقضى فيه الليل ، والا فانى أقضى الليلة على رصيف المحطة ولا بد لى من الاعتراف بأنى خفت أن أسأله هذا السؤال حذراً أن يهينى أو يشتمى .

دخلت المحطة من كل المسافرين وسامت تذكرتى للعامل ثم أخذت ألقى عليه أسئلتى . فأجابنى فى أدب جم ، ولكن اتضح لى أنه لا يستطيع مساعدتى ، وساق الى القدر فى تلك اللحظة عبداً اميركياً ، تدخل فى الأمر واشتبك معنا فى الحديث فقال - « أرى انك غريب . وليس لك هنا أصدقاء ، فاذا سمحت أن ترافقنى هديتك الى فندق صغير يملكه رجل أمريكى يعرفنى معرفة أكيدة . وأظن أنه لا يرفض قبولك » ولم يحل قبولى مساعدته دون شكوك وريب . غير أنى شكرته وقبلت

اقتراحه ، فاقتراني الى فندق اسمه « أسرة جوستون » وانتحى بالمدير ناحية يكلمه ، فقبل أن أقضى عنده الليلة على شرط أن أتناول غذائي في حجرتي ولا أرحها . ثم قال لي - « كن على يقين من أنى بعيد عن شعور كراهية الالوان . ولكنى أجرى على العادات الأوربية هنا . وإذا سمحت لك بأن تتناول طعامك في حجرة الأكل ، فربما امتنع نزلائي أو تركوا الفندق بتاتا » - فأجبت

- أشكرك على أنك قبلتني هذه الليلة . كنت قليل الخبرة بالأحوال هنا ، ولكنى أزداد بها علما مع الزمن . والآن أستطيع أن أقدر موقفك ولا يهمنى أن أتناول عشائي في حجرتي ، وآمل أن توفق الى ترتيب أدق في اليوم التالي .

وذهب بي الى حجرتي ، وظللت بها أنتظر عشائي وأتسلى بالغناء ، لأننى كنت وحدى . ولم يكن في الفندق كثير من النزلاء . وكنت أنتظر الخادم ليحضر الطعام ، ولكن جاء مستر « جوستون » نفسه وقال لي - « لقد شعرت بكثير من الحجل اد طلبت منك أن تتناول طعامك هنا . فتكلمت مع بقية النزلاء بشأنك وسألهم ان كانوا يسمحون لك بتناول الطعام في حجرة الأكل . فأبدوا أن لا اعتراض لهم البتة على ذلك ، بيد أنهم لا يرون أى مانع من أن تظل هنا ماشئت المقام . فتفضل بالنزول الى حجرة الأكل ولك أن تظل بها كيفما شئت » .

فشكرته وذهبت الى حجرة الاكل وتناولت عشائي مغتبطا وبشوية عظيمة

الفصل السابع

فى برتوريا

فى صبيحة اليوم الثانى ذهبت الى مكتب مستر بيكر المحامى ، وكان عبد الله شيث (صاحب الدعوى) قد زودنى ببعض معلومات عنه . ولذا لم يدهشنى انه استقبلنى بأس وبشاسة ، وأخذ يسألى عن بعض الأشياء . ثم قال لى - « ليس عندنا من عمل تشغله كمحام لأننا بالفعل قد لجأنا الى أكبر ذوى رأى . والقضية كثيرة الشعب والتفاريع ، بيد انها معقدة . وغاية ما أستطيع أن أنتفع بك فيه هو أن تساعدنى بامدادى بالمعلومات الضرورية . وفى مستطاعك أن تجعل علاقتى بموكلى أكثر سهولة ، وستكون أنت المسلك الوحيد الذى به أتمكن من التزود بالمعلومات منه . وهذا على ما أعتقد أمر ذو قيمة . وانك لو اجد كراهية الجنس واللون قد بلغت حدًا خفيًا فى هذه البلاد ، وليس من السهل أن تجد محلا تقيم فيه باطمئنان . ولكن أعرف امرأة فقيرة هى زوجة رجل تاجر رقيق الحال . وغالب ظنى انها تقبل أن تعيش معها وبذلك يمكن أن يزيد دخلها »

فأخذنى الى منزلها وكلها فى خلوة بشأتى وقبلت أن أبقى معها تلقاء خمسة وثلاثين شلنًا فى الأسبوع نومًا وطعامًا .

. أما مستر بيكر فكان من كبار المبشرين بالدين النصراني ، وأكثرتهم حماسة . ولا يزال حيا الى الآن ، وقد تفرغ للرسالة التبشيرية وترك مهنته الأصلية . وهو متوسط الغنى . ولقد استمر يكاتبنى ، ولكنه ظل فى كل ما يكتب أميناً لمعتقدده . فهو لا يزال يذكر النصرانية ونخامتها وسمو مراميها ، ويزعم انه من المستحيل أن ينعم الانسان بالسلام الأبدى ، ما لم يعتقد ان عيسى ابن الله ، وانه مخلص النوع الانسانى .

ومنذ أول مقابلة استطاع مستر « بيكر » أن يستخلص منى متجهى الدينى ، فقلت له : « انى هندوكى مولداً ، ولكنى لا أعرف كثيراً عن تفاصيل الدين الهندوكى ، ومعرفتى بالأديان الأخرى أقل من معرفتى بدينى الأصلى ، وفى الحقيقة لا أستطيع أن أحدد بالضبط موقفى من الأمور الدينية ، أو أن أحقق ماهو ، أو مايجب أن يكون معتقدي . وانى لأميل أن أدرس دينى الأصل بعناية ، وأن أكب على درس الأديان الأخرى ، على قدر ما تسمح ظروفى » .

فاغتبط مستر بيكر إذ سمع منى هذا الكلام وقال : « انى أحد مديرى بعثة التبشير العامة فى جنوبى افريقية ، وشيدت كنيسة خاصة بمالى لألقى بها مواعظ دينية بانتظام . ولست من أولئك المصايين بمرض الجنس أو اللون . ولى أصدقاء يرون رأيى هذا ، فنجتمع كل يوم حوالى الساعة الأولى بعد الظهر ونكب على صلاة حارة ندعو الله فيها أن يمنحنا

السلام والنور ، واني لأسر أن توافينا الى هناك لأقدمك الى أترابي ،
الذين سوف يقتبطون بمرآك ، ولا أحجم عن أن أقول انك سوف تسر
بصحبتهم . وكذلك أريد أن أزودك ببعض الكتب الدينية لتقرأها ،
ولوأنت يجب أن تعرف أن أبا الكتب كلها هو الانجيل المقدس ، وهو
الذي اخصك بالنصيحة في أن تجعله سميكة »

فشكرت مستر بيكر ووعده بأني سوف أشهد صلاة الساعة الأولى
بعد الظهر بانتظام على قدر ما أستطيع فقال : « اذن سأنتظرك غداً
حوالى الساعة الأولى لنذهب معا وبصلى » ثم افترقنا بعد التحية
الواجبة .

ولم يكن لدى من الوقت ما يكفي للتفكير والتأمل ، فذهبت تواء الى
الحان الذى كنت أنزل فيه ودفعت حسابي وانتقلت الى مأوى الجديد
حيث تناولت وجبة الظهر ، وكنت سيدة المنزل من الطيبات ، فأعدت
لى غذاء نباتيا . غير انه مضى زمن قبل أن أعود على المعيشة مع الأسرة
وأشعر انى فى منزلى . وبعد ذلك ذهبت لألاقي ذلك الصديق الذى
زودنى « دادا عبد الله » بتوصية له . فعلمت منه أكثر مما كنت أعلم
عن المتاعب التى يعانيتها الهنود فى جنوبى افريقية ، وأظهر لى تصميمه
على أن أعينس معه فشكرته وعرفته انى أفضل ترتيب حياتى على وجه
يقنعنى ، فاكتفى بأن يسألنى أن لاأحجم عن أن ألبأ اليه فى كل شئ .
احتاج اليه .

وخيم الظلام ، فعدت الى المنزل وتناولت عشائي ثم ذهبت الى حجرتي واستلقيت مغموراً في لجة عميقة من الأفكار ، ولم يكن لدى من عمل يتغلى في ذلك الوقت ، ولكن الذى أثار دهشتي المحصر في ذلك الاهتمام الذى وجهه الى مستر بيكر . وأخذت أفكر فيما يمكن أن تكون الفائدة التى أجنيها من العمل مع زملاء انحصر كل همهم فى الدين ؟ والى أى حد يجوز لى أن أذهب فى درس النصرانية ؟ وكيف أستطيع أن أفهم النصرانية من غير أن أدرس ديانتى الهندوكية درساً عميقاً مستفيضاً ؟ ولقد خلصت من هذه التأملات بنتيجة واحدة محصلها أن أكب خالى الفكر والغرض على درس كل مايقع لى وأن أنصرف مع مستر بيكر وجماعته كما يريد الله أن يهدينى ، على أن لا أتطوح الى التفكير فى اعتناق دين آخر قبل أن أعرف ما هو دينى الأصيل . وما وصل بى الفكر الى هذا الحد حتى أغفيت وأخذتني سنات نوم هادئة طويلة .

وفى اليوم التالى حوالى الساعة الأولى بعد الظهر ذهبت الى ملتقى العبادة الذى أقامه مستر بيكر فقدمى الى مس هاريس ومس جاب ومستر كوتس وغيرهم . وقد ركع الجميع يصلون فركت مثلهم . وكانت الصلاة مجرد ابتهال الى الله فى طلب أشياء كثيرة ، كل منهم على حسب حاجته . ولكن التوسل الدائم كان فى سبيل الدعاء بأن يمر اليوم فى سلام وأن يأمر القادر الأحد بأن تفتح أبواب القلب . ولكن أضيف الى ذلك دعاء توجهوا به نحوى بقولهم — « يارب أنر الطريق لأخيـنا الحديد

الذى هبط جمعيتنا ، وأعم عليه يارب بما أنعمت به علينا من طمأنينة، وخلصه بحق سيدنا عيسى كما خلصتنا . أجب دعاءنا بحق عيسى عليك « ولم يكن في هذه الاجتماعات تراتيل أو موسيقى وكنا نفترق كل يوم عقب الابتهاال بطلب شيء خاص ، كل منا إلى بيته لتناول الطعام . ولم تكن الصلاة تستغرق أكثر من خمس دقائق .

أما مس هاريس ومس حاب فكانتا آنستين حطمتا الشباب ودلفتا إلى الكهولة . وكانتا تعيشان معاً . فعينتا إلى موعداً الساعة الرابعة بعد ظهر كل أحد لا تناول معهما الشاي في بيتهما فاذا اجتمعنا في ذلك الموعد ، أعطيت لمستر كوتس يومياتي الدينية التي تعودت أن أدونها خلال الأسبوع وأتناقش معه في الكتب التي كنت أقرأها والآثار التي تخلفها مطبوعة في نفسي . وكانت الآنستان تقصان علينا تجاربيهما اللذيذة وتصوران الطمأنينة والسلام اللذين تحسان بهما في نفسيهما . أمامستر كوتس فكان شاباً مخلص السريرة صريحاً . وكنا نخرج للنزهة ماشيين ، فكان لا يترك فرصة تمر دون أن يقدمني إلى غيره من الرجال المشتغلين بنشر النصرانية . فلما زادت ألفتنا أخذ يعطيني كتباً يختارها لي بنفسه ، حتى أصبح عندي مجموعة كبيرة منها . وبقدر كاف من الايمان الثابت اكببت على قراءة هذه الكتب ، ولكن لم أترك أمراً فيها من غير أن أقتله بحثاً ومناقشة .

وبقدر ما أهدى إلى من كتب ، قدمني لأصدقاء من مخلصي النصارى .

وكان من بين هؤلاء أسرة تنتمى إلى جمعية تدعى «اخوان بليموث». غير انى لا أنكر أن أكثر الذين قدمنى اليهم مستر كوتس كانوا أخياراً طيبين . وأبين مظهر لى من اخلاقهم انهم كانوا يخافون الله . ولكن حدث ذات يوم أن جابهنى أحد أعضاء « اخوان بليموث » بسؤال لم أكن على استعداد لأن اجيب عليه . قال

«انك لاتستطيع أن تدرك ما فى ديننا من جمال . ويطهر من كل أقوالك أنك تعكف دائماً على التأمل والتفكير فى خطايانا كل لحظة من لحظات حياتك ، محاولاً أن تصلح من أمورنا وان تعوضنا عنها كفارة واستغفاراً . فكيف تتصور ان دوراك حول هذه الدائرة التى لاتنتهى يمكن أن يحبوك الخلاص الاخرى . انك لن يطمئن لك قلب أو يحل بصدرك السلام . انك تسلم باننا جميعاً واقعون فى الخطيئة . ولذا يجب أن تعرف مدى ما يصل اليه معتقدنا من الكمال . فان الغرض الذى تحاول الوصول اليه من طريق التفكير فى ذنوبنا ، انما هو طمع فيما لامطمع فيه ، ولكننا رغم هذا نتطلع الى الخلاص الاخرى والفداء التام . وكيف نستطيع أن نحتمل عبء الخطيئة ؟ اننا لاستطيع أن نلقيه على كاهل عيسى . فانه وحده ابن الله المحرر عن المعاصى والخطيئات . هو القائل بأن أولئك الذين يؤمنون به دون غيرهم هم الذين سوف يفوزون بالخلود الأبدى . وفى هذا سر الرحمة الالهية غير المتناهية . ولما كان ايماننا

(م - ٨)

بعيسى كاملا وثقتنا بنفرائه تامة ، اعتقد بجانب هذا ان خطايانا لن
تقيد ضمائرنا . اننا يجب ان نعصى وان نخطىء . لأن من المستحيل أن
يعيش الانسان في هذه الدنيا مزها عن الخطيئة . ومن أجل هذا تعذب
عيسى وكفر عن كل خطايا النوع الانسائى . والذى يقبل فداء عيسى
ويعتقد به ، هو دون غيره الذى يحظى بالسلام الأبدى . فانظر الآن
وقس الفارق بين القلق الذى تحسه فى حياتك ، وبين السلام والطمأنينة
التي نلحظها فى حياتنا »

غير أن هذا التدليل سقطت عندى حجته سقوطا كاملا ، فأجبت فى
خضوع « إذا كان هذا هو النصرانية ، فانه يستحيل على أن أقبلها .
إننى لا أبحث عن الخلاص والفداء عن كل ما يترتب على خطايائى ، انى
أبحث كيف أتخلص من الخطيئة ذاتها ، بل من مجرد التفكير فى أن
أخطىء . وحتى أبلغ هذا الغرض ، سأظل مغتبطا بأن أكون حائراً
قلقا » . فرد على محدثى قائلاً « إنى أؤكد لك أن محاولتك بائرة . وأرجو
أن تماود التفكير فيما قلت لك » . ولقد برهن محدثى على أنه يعنى مايقول ،
فانه كان يرتكب الخطايا عمداً وباختياره ، وقال لى مرة ان ارتكابه هذه
الخطايا لا يهمه ولا يحزنه ولا يقلق باله .

ولكنى كنت علمت قبل أن تكون لى أية علاقة بهؤلاء الصحاب ،
ان ليس النصرارى جميعاً من المؤمنين بهذه النظرية فى الخلاص الأخرى .
فلن مستر كوتس كان يخاف الله ويخشاه . وكان صافى القلب ، يعتقد

بحرارة في احتمال أن يصل الانسان الى براءة النفس . أما الآنستان فكاتنا من مذهبه . ولقد زاد اقتناعي بهذا مذ وجدت أن بعض الكتب التي أهداها الى كانت تفيض اخلاصاً وتعبدًا . فكنت تجد أن مستر كوتس قد اضطرب وقلن من جراء ما حدث معي ، غير أني استطعت أن أحقق لديه أن معتقدًا فائلا يستقر في نفس أحد « اخوان بليموت » لن يغير من رأبي في حقيقة النصرانية ، وأن الصعاب التي تواجهني انما تقع في بواح أخرى غير هذه . وأبنت له من بعد أن هذه الصعاب تحوم حول الأناجيل والتفاسير المقبولة فيها .

وقبل أن أسوق الكلام في علاقات أخرى مع النصارى ، يجب على أن أمضى في سرد تجارب وقعت لى في ذلك الحين . فقد كان لتاجر يدعى « شيث طيب حاجى خان محمد » في « بريتوريا » نفس المركز الذى يشغله « دادا عبد الله » فى ناتال . ولم يكن من المستطاع أن تقوم حركة عامة من غير أن يكون هو المحرك لها . فتعرفت به فى أول أسبوع هبطت فيه بريتوريا وأطلعته على رغبتى فى أن أتعرف الى كل هندی مقيم فيها . وأول خطوة خطوتها أنى دعوت الى اجتماع شهده تجار « الميان » كما شهده قليل من الهندوكيين ، لأن الهندوكيين فى بريتوريا قليلو العدد .

وألقيت فى هذا الاجتماع خطبة هى أول خطبة عامة ألقيتها فى حياتى ولقد أحطت بالموضوع بعد تحضيره وانحصر كلامى فيه على الحض على

الأمانة في العمل والتعامل . فقد سمعت من كثير من التجار أن الصدق غير مستطاع في العمل التجارى . فيقولون ان العمل التجارى أمر دنيوى صرف ، والصدق مبدأ دينى . ومعتقدهم أن العمل شئ والدين شئ آخر . فهاجمت هذا المعتقد فى خطبتى وسفهته ، ودعوت التجار الى ايقاظ روح الواجب فى نفوسهم .

ووجدت عادات الهنود فى جنوبى افريقية بعيدة عن أن تتفق مع القواعد الصحية مقيسة بعادات الانجليز الذين يعاشوهم ، فلفت أنظارهم الى هذا الأمر الهام . ثم أهبت بهم أن يتناسوا الخلافات الدينية والطائفية ، وأبنت لهم عن الضرورة التى تدعو الى ذلك . وفى النهاية اقترحت تأسيس جمعية يمكن أن تتصل بالسلطات الحكومية المختصة للنظر فى المصاعب التى تعترض حياة الحالية الهندية فى جنوبى افريقية ، وتمهدت بأن أبذل فى سبيل هذه الجمعية من الوقت والخدمات كل مستطاع .

ولقد اغتبطت بنتيجة الاجتماع وقر القرار على أن يعقد اجتماع كل أسبوع على ما أذكر . فكانت تعقد الاجتماعات بانتظام حيناً وبغير انتظام حيناً آخر ، فتناول الرأى وتناقس . فتعرفت بكل الهنود المقيمين فى بريتوريا ، وأحطت بكل أحوالهم خبراً . ثم حولت نظرى الى القوميسير الانجليزى فى بريتوريا مستر « جكوبس ده وت » وحاولت أن أتعرف اليه . وكان هذا الرجل يعطف على الهنود ، ولكنه

كان ضعيف النفوذ . غير أنه على كل حال وعد بأن يساعدنا على قدر ما يستطيع ، ودعاني إلى لقياء كلما أردت أو مست الحاجة الى ذلك . ثم اتصلت بعد ذلك بإدارة سكة الحديد واخبرت المشرفين عليها أنه حتى لدى الخضوع للوائحها ونظاماتها ، فإن الصعاب التي يعانيتها الهنود لدى السفر على خطوطها لا يمكن أن يكون لها أى مبرر . فحصلت على رد مفاده أن تذاكر الدرجتين الثانية والثالثة يمكن أن نصرف للهنود الذين يكونون في هندام لائق . غير أن هذا الرد كان بعيداً عن أن يرضيني لأن الحكم على حسن الهندام أمر متروك لاختيار ناظر المحطة . وكان القومسير البريطاني قد أطلعني على بعض الأوراق المتعلقة بأحوال الهنود ، كما سلمني « طيب شيث » أوراقاً أخرى تماثلها . فعرفت منها مقدار القسوة التي عومل بها الهنود لدى طردهم من أرض حكومة « الأورانج الحرة » فكان مقامى في بريتوريا سبباً في أن أدرس أحوال الهنود المقيمين في ناتال وفي حكومة الأورانج الحرة ، ولم أكن أتوقع أن دراستي لأحوالهم سوف تكون ذات قيمة لا تقدر في المستقبل ، لأنى كنت أفكر في العودة الى وطنى في نهاية العام ، ان لم يكن قبل ذلك ، اذا انتهت القضية التي دعيت من أجلها . ولكن الله أراد لى غير ما كنت أتوقع .

ولقد كان مقامى في بريتوريا سنة كاملة أعظم تجربة وقعت لى فى حياتى . فهناك أتحت لى الفرص لأعرف شيئاً من سر الأعمال العامة،

وعرفت إلى أية درجة يمكن أن تنتهى كفايتي في مزاولتها . وهناك بدأ الروح الدينى يكون قوة حية تحرك نفسى ومشاعرى ، واستطعت أن أحصل على مرانة كافية فى الاجراءات القضائية، فعرفت كل الأشياء التى يمكن لمحام مبتدىء أن يدرسها فى مكتب محام قديم ، واقتنعت بأنى لن أسقط فى الحياة إذا امتنعت المحاماة ، بعد أن درست سر المهنة وأحطت بالوسائل التى لا مندوحة عنها للنجاح لمحام مثلى .

ولم تكن قضية دادا عبد الله من القضايا الصغيرة . فقد كانت قيمتها تقدر بأربعين ألفا من الجنيهات الانجليزية ، وكان سببها عقوداً تجارية ، فكثر شعابها وتعددت واحيها الفنية والحسابية . كما كان جزء منها يقوم أصلا على وثائق تعهدية ، وجزء على وعد بارسال وثائق أخرى مثلها . وكان وجه الدفاع الذى يستمسك به خصومه قائما على الدعوى بأن هذه الوثائق قد أخذت بطريق الغش والخداع . فأخذت أدرس القضية أعمق درس ، وصرفت فيها من العناية جهد مستطاعى . وكان موكلى رجلا فائق القدرة ، ووضع فى كل ثقته ، فسهل ذلك على مأموريى . ولاحظت أن قدرتى على الترجمة قد تضاعفت من الكبابى على ترجمة الرسائل ، وكان أكثرها فى اللغة الكجراتية . غير انه على الرغم من اهتمامى بالمسائل الدينية والمسائل العامة معاً ، كنت لا اضحى فى سبيلها الا بجزء من وقتى ، اذ لم تكن فى ذلك الحين من أوليات المسائل التى اهتم بها . لأن تحضير الدعوى استغرق كل همى . وقد

استغرق الجزء الأعظم من وقتى الكبابى على مراجعة القوانين والاطلاع على القضايا التى تعتبر الأحكام الصادرة فيها ذات مساس بالدعوى . فكانت النتيجة انى أملت بحقائق القضية المأما أرجح انه لم يفز به طرفا الخصوم ، لأن أوراق كل منهما كانت فى حيازتى وتحت تصرفى . وهنا تذكرت نصيحة مستر «بنكث» اذ قال لى وأنا فى لندن مرة ان الحقائق يتكون منها ثلاثة ارباع الهيكل الذى تقوم عليه الدعوى . ولقد طبق هذه القاعدة فيما بعد محام شهير من محامى جنوبى افريقية هو المرحوم مستر «ليونارد» . فى احدى القضايا التى كانت تحت اشرافى ، رأيت ان الحق وان كان فى جانب موكلى ، فان القانون حسب ظاهره كان ضده . فلما يئست من الدعوى ذهبت الى مستر «ليونارد» لاستشيريه . فوافق على أن حقائق الدعوى قوية، ولكنه قال لى: «مستر غاندى . لقد تعلمت شيئاً واحداً وهو اننا اذا عنبنا بالحقائق فان القانون يعنى بنفسه . فالواجب اذن ان تتعمق فى درس حقائق هذه الدعوى الى غور اعمق» . - وأوصانى بأن اكب على درس الدعوى درساً أوفى ، ثم أعود اليه مرة أخرى . فلما مضيت فى درس حقائق الدعوى تبينت فيها نواحي كانت غامضة ، وعثرت على دعوى مشابهة لها كانت موضوع مناقشة فى محاكم جنوبى افريقية . فسررت بهذه النتيجة وذهبت الى مستر «ليونارد» وأطلعته على كل شئ . فقال «حسناً سنبج الدعوى . ولكن يجب ان نجعل للقاضى الذى سوف يدرسها ، تقديرًا فى أذهاننا » .

لما كنت احضر قضية « دادا عبد الله » لم اكن قد ادركت بعد ما للحقائق من قيمة وأثر في الدعاوى القضائية. فالحقائق معناها « الحق » واذا لجأنا إلى الحق فان القانون يكون في عوننا بطبيعة الحال، ومن غير احتياج الى جهد. وقد رأيت أن الحقائق في قضية « دادا عبد الله » قوية كل القوة فأ كست الدعوى مركزاً ممتازاً ، وان القانون لا بد من أن يؤيده ويكون في جانبه . ولكنى رأيت بجانب هذا ان الخصومة اذا اصر عليها الطرفان سوف تحطم المدعى والمدعى عليه معاً ، فوق انهما كانا من دوى القربى ومن قطان مدينة واحدة . ولم يكن يعرف أحد الى أى زمن سوف تستمر الخصومة - فاذا تركت للمحاكم فربما استمرت الى غير نهاية، وبغير أن يكون منها أية فائدة لأحدهما، ولذا رغب كلاهما في فض النزاع وشطب الدعوى اذا كان ذلك مستطاعا .

فقابلت « طيب شيث » ونصحته بأن يخضع للتحكيم . ورغبت اليه في أن يقابل مستشاريه وخلصاءه وأشرت اليه بأنه اذا كان من المستطاع تعيين حكم يحوز ثقة الطرفين ، فان الخصومة تنتهى في أقرب وقت . وكانت أتعاب المحامين آخذة في الازدياد يوماً بعد يوم ، حتى وصلت حداً كادت تستغرق فيه كل مالهيهما من الموارد ، على الرغم من أنهما كانا من كبار التجار كما قلت من قبل . كما أن الدعوى استفرغت كل جهدهما واستحوذت على نشاطهما حتى كان يتعذر على أحدهما أن يجد وقتاً يصرفه في أى عمل آخر . وكنت ألاحظ أن سوء النية أخذ

يستفحل بينهما . وكان كلاهما يبذل أقصى جهده ليصل الى النتيجة التي يرغب فيها . وأخيراً وافق « طيب شيث » على اقتراحى ، وعين الحكم وعرضت عليه الدعوى بحذفها وربحها عبد الله .

غير أن هذا لم يرضنى ، فان موكلى اذا أراد أن ينفذ الحكم تواء ، فان « طيب شيث » سوف يعجز عن القيام بأداء ما يطلب « دادا عبد الله » . وهنالك عادة اكتسبت قوة الشريعة وان كانت غير مكتوبة ، يفضل معها رجال « الميان » من أهل « بورباندر » الموت على الافلاس . وكان يتعذر على « طيب شيث » أن يدفع مبلغاً يوازى سبعة وثلاثين ألفاً من الجنيهات ونفقات الدعوى . وكان مصمماً على أن يدفع المبلغ كله غير منقوص درهماً واحداً ، كما كان يفزع من اعلان افلاسه . فلم يكن لدينا الا طريق واحد ، هو أن يقبل دادا عبد الله أن يحصل على المبلغ أقساطاً معتدلة . وكان عبد الله رجلاً كريم الأخلاق واسع الثروة ، فقبل أن يحصل على حقه دفعا موزعة على عدد طويل من السنين . ولم تكن مهمتى فى تسوية الدفع على أقساط بأقل مشقة من سعى فى سبيل التحكيم . غير أنهما اغتبطا بالنتيجة ، كما رفع تسامحهما من مقامهما فى أعين الناس . أما فرحى فكان عظيماً ، فقد فقحت مسائل القانون العملية ، وأعنى بها أن أستحوذ على الناحية الشريفة من الطبيعة الانسانية ، وأن أفتح قلوب الناس للخير . وعرفت أن مهنة المحامى الحقيقية تنحصر فى التقريب بين الأطراف التى فصلتها المصالح والمطامع . ولقد كان لهذا

الدرس العملى أثر فى نفسى حتى انى فى خلال العشرين عاماً التى قضيتها محامياً ، عملت على اتمام الصلح بين المتخاصمين فى مئات من القضايا التى عرضت على لأبشرها . ولم أخسر شيئاً من جراء مبدئى هذا . لم أفقد شيئاً من المال ، بله نفسى وروحى .

...

فى ذلك الوقت الذى قضيته فى « بريتوريا » كنت غالباً ما أرافق مستر كوتس فى زهات ليلية ، وكنا قلما نرجع الى المنزل قبل الساعة العاشرة . ولكن كان هنالك قانون تتناول أحكامه « ذوى الألوان » المقيمين فى الترسفال، وكان يحظر على الهنود المشى على الأرصفة أو البقاء خارج المنازل إلى ما بعد الساعة التاسعة مساءً من غير احازة خاصة . فماذا سوف يحدث لو أن البوليس اعتقلنى ؟ وكان اهتمام مستر كونس بالأمر أكثر من اهتمامى به . وكان من عادته أن يحصل على اجازات لخدمه السود . ولكن كيف يستطيع أن يعطينى احدى هذه الاجازات ؟ وللسيد وحده حق الحصول على اجازة لخدمه . فاذا طلب اجازة ، أو فرض وكان مستر كوتس مستعداً لأن يزودنى بواحدة منها ، فانه يكون فى خطر من أن يستكشف الأمر ويتهم بالفسخ والخذاع .

لهذا صجبنى مستر كوتس أوأحد أصدقائه ، ولست أذكر من صجبنى منهما بالضبط ، الى أفوكاتو الحكومة دكتور « كروز » وظهر أننا من خريجي مدرسة واحدة . فلما علم بأنى أريد الحصول على اجازة تبيح لى

البقاء خارج المنزل الى ما بعد الساعة التاسعة ، أبدى أسفه وتأثر كل التأثر ، وعطف على كل العطف . ولم يكتف بأن يزودنى بالاجازة ، بل أعطانى خطاباً يبيح لى البقاء خارج المنزل فى أى وقت أشاء من غير أن يتدخل البوليس فى أمرى . ولذا كنت أصحب هذا الخطاب كلما برحت المنزل . أما أنى لم أحتج إلى إبرازه فى حادث من الحوادث ، فكان مجرد مصادفة لم تتكرر مع غيرى .

أما النتائج التى كانت تترتب على نظام المشى على الأرصفة ، فكانت معضلة . فقد تعودت أن أخترق شارع « پرز دنت » إلى سهل فسيح يقع لدى نهايته . وكان بيت الرئيس « كروجر » فى ذلك الشارع ، وهو عبارة عن بناء يستوفى كمال الذوق غير ذى اتساع وليس له حديقة ، ولا يمكن بحال تمييزه عن بقية المنازل القائمة حفاى الشارع . وكانت منازل بعض الأغنياء فى بريتوريا أكثر فخامة من منزل الرئيس كروجر وكلها محاطة بمحاذق غناء . والحقيقة ان ما اتصف به الرئيس كروجر من البساطة كان مضرب الأمثال . ولولا رجل البوليس الواقف أمام الباب ، لما استطعت أن تعرف أن المنزل مملوك لأحد كبار موظفى الحكومة . وكنت أمر على الرصيف وأتجاوز الشرطى كل يوم من غير أن يعترضنى أحد أو يقع لى حادث .

وكانت العادة أن يبدل رجل البوليس الواقف لدى الباب من آن لآخر . فحدث مرة أن أحدهم ، ومن غير أن يأمرنى بترك الرصيف (المشى)

دفعني بكل قوته وركلني برجله إلى وسط الشارع . والحق أني فزعت ، وقبل أن يكون لدى من الوقت ما يسمح لي بأن أسأله عن سبب فعلته ، ناداني مستر كوتس ، وقد اتفق أن كان ماراً بنفس المكان على ظهره جواده قائلاً :

« غامدى - لقد رأيت كل شيء . واني أسر أن أكون شاهدك إذا أردت أن تقاضى هذا الرجل : واني لحزين لأنك هوجمت بشراسة وقلة أدب » فقلت له

« ليس بك من حاجة لأن تحزن . ماذا يمكن أن يعرف هذا الرجل المسكين فان كل « دوى الألوان » لديه سواء في هذه البلاد . والقاعدة التي وضعتها لسلوكي تقضى بأن لا ألجأ الى القضاء اذا نالني أى أذى يتناول شخصي ، فليس ادن في نيتي أن أقاضيه » فقال لي - « انك لجدير بذلك . ولكن فكر في الأمر مرة أخرى . فان

الواجب أن نعطي مثل هذا الشخص درساً ينفعه » ثم تكلم مع الشرطى وعنفه . ولم أستطع أن أعى ما قالوا لانهما كانا يتكلمان باللغة الدانمركية ، لأن الرجل كان من البوير ، ولكنه اعتذر إلى ، من غير أن تكون بي حاجة الى الاعتذار . لأننى كنت سامحته بالفعل .

غير أنى لم أخلق هذا الشارع مرة أخرى : فقد يتفق أن يأتى غيره ممن هم جاهلون بحادثتى معه ، وقد يعاملونى بمثل ما عاملنى . ولماذا

أحمل جسمى ركلة ثانية من غير ضرورة ؟ لهذا أخذت طريقاً آخر
لنزهتى .

بيد أن هذه الحادثة لم تذهب من عيز أن تترك فى نفسى أنرا عميقاً
جعلنى أرثى لحال الجالية الهندية، فأخذت أناقشهم فى أن تقوم بتجربة ،
إذا كان من الضروري أن نلجأ الى ذلك ، بعد أن أقابل القومسير
الانجليزى وأكلمه فى أمر هذه الانظمة الجائرة .

فأكبت على درس الحالة السيئة التى وصلت اليها الجالية الهندية ،
ولجأت الى التجارب الشخصية ، فضلاً عن قراءة كل ما كتب فيها
وسماع كل ما يمكن أن يستمع منها . وسرعان ما اتضح لى أن جنوبى
افريقية ليست بالسكان الذى يستطيع هندى يخترم نفسه أن يقيم فيه ،
وأخذ عقلى يشغل ليل نهار فى التفكير فيما يمكن أن تكون الطريقة
التى يلجأ اليها لمعالجة هذه الحالة وتحسينها

وظفق مستر « باكر » يشفق على مستقبلى فاصطحبني إلى جمعية تدعى
« جمعية ولنجتون » وكان من عادة البروتستانت من النصارى أن
يعقدوا مثل هذه الاجتماعات كل عدد من السنين ليزدادوا بالدين بوراً ،
وبالايمان صفاء . وقد ندعو عملهم هذا « بالاحياء الدينى » . وكانت
جمعية ولنجتون من هذا الطراز ، ويرأسها رجل دينى معروف هو المحترم
« اندرو هوراي » . وقد تخيل مستر باكر أن عبير السمو الدينى وحماسة
أعضاء الجمعية وتقانيهم فى الدين قد يحملنى على أن أعتنق النصرانية .

غير أن ملجأ الأخير كان ينحصر في الصلاة والأدعية . لأن ثقته بالصلاة كانت لا تنتهي عند حد . بل كان يعتقد أن الله لن ينجيب سؤال إنسان يصلي إليه ويدعوه بحرارة الإيمان . وكان يستشهد على ذلك بتصرف رجال من أمثال جورج موللرفي بريستول ، وكان يتوسل بالصلاة الحارة حتى في سبيل قضاء مصالحه الدنيوية . فكنت أستمع الى كلامه في تأثير الصلوات من غير كثير انتباه ، وجعلته يعتقد أن ما من شيء يمنعني عن اعتناق النصرانية اذا أنا استمعت الدعوة إليها . ولم أتردد في أن أعدّه بهذا الوعد لأنني كنت قد وطنت نفسي على أن أستجيب دائماً لداعي الصوت الخفي الخارج من أعماق وجداني . ولذا اغتبطت لأنني ألقيت بنفسي في حماه . أما أن أعمل على غير ما يدعوني إليه ، فان ذلك يكون من آلم الأشياء إلى نفسي .

وذهبنا إلى مدينة ولنجتون ، ولقد لاقى مستر باكر بعض الصعاب لأنه يصطحب رجلاً مثلي من ذوى الألوان . وكان قد قاسى الأمرين مراراً عديدة من قبل بسببي واضطربنا أن نقف السفر يوماً بأكمله ، لأن يوم الأحد أدركنا خلال سفرتنا ، ومن عادة مستر كوتس وصحبه أن لا يكسروا السبت . وبعد أخذ ورد طويلاً قبل مدير فندق المحطة أن يقبلني كنزيل ، ولكنه لم يسمح لي مطلقاً بأن أذهب الى حجرة الطعام . وكان مستر « باكر » ممن لا ينهزمون بسهولة . فاستمسك بالحقوق التي يجب أن يتمتع بها زلاء الفنادق . ولكن أدركت الصعوبة

التي تعترضه . وكذلك كان الأمر في ولنجتون . فاني نزلت حيث نزل
مستر باكر . وفضلا عن أنه كان يحاول أن يخفي عنى المتاعب التي سببتها
له ، كنت أقف على الكثير منها ، على غير إرادة منه في أن أعرفها .

وكان مقر هذه الجمعية عبارة عن حجرة يلتئم فيها عدد من غلاة
النصارى . فأسرني ما رأيته فيهم من حرارة الايمان . وقابلت هنالك
مستر « اندرو موراي » وأدركت أن كثيرا منهم كانوا يصلون من أجلى ،
وأحببت الاستماع إلى بعض ترانيلهم ، فقد كان فيها حلاوة ورنه جميلة .
واستمر الاجتماع ثلاثة أيام . واطلعت على مقدار ما بلغ الايمان بأفراد
الجمهرة ، ولكنى لم أر سببا يحملى على أن أبتدل بمعتقدى معتقداً آخر .
وتعذر على أن أعتقد أن من الممكن أن أصعد إلى السماء أو أن أمنح
الخلاص بمجرد أن أصبح نصرانياً . ولما أطلعت بعض أصدقائى من
الأعضاء على فكرى ، أسفوا وكأنهم صدموا وصدوا دون البلوغ الى
أمنية عزيزة لديهم . ولكن لم يكن فى مستطاعى أن أفعل غير هذا ،
فان المشكلات التي اعترضتنى كانت قد حلت فى مكان من نفسى أبعد
من هذا غورا . رأيته بعيداً على عقلى أن يعتقد أن عيسى وحده دون
غيره كان ابن الله المتجسد ، وأنه لا خلود الا لمن يعتقد فى صحة رسالته
واذا كان من الممكن أن يكون لله أولاد ، فكلنا أولاده . واذا كان
عيسى مثل الله أو أنه الله بنفسه ، اذن فكل الناس يكونون كمثل الله
أو يكونون الله بنفسه . ولم يتسع عقلى لاعتقاد أن عيسى بميته وبدمه

قد فدى الإنسانية وطهرها من خطاياها . على أنه قد يكون في ذلك شيء من الحق ، ولكن مجازاً . ثم لم يغب عنى أنه على المعتقد النصراني ، ليس من شيء في الدنيا له روح إلا الإنسان ، وليس كذلك بقية المخلوقات ، التي يعتبر موتها فناء تاماً . وكنت أعتقد ما يخالف ذلك . ويمكنني أن أعتبر عيسى شهيداً ، وأنه رمز التضحية المجسم ومعلم روحاني إلهي . ولكنه ليس أكمل إنسان أخرجته البطون إلى ظاهري الأرض . أما موته فوق الصليب فأروع مثال يمكن أن يقدم للإنسانية . ولكن القول بأن صلبه قد تضمن أسراراً ومعجزات ، فذلك ما لم يكن في مستطاع الإيمان به أو نصديقه . وكذلك لم تزودني حياة المؤمنين من النصراني بما لم تزودني به حياة غيرهم من المؤمنين بأديان أخرى . ورأيت في حياة غير النصراني من صالح العمل والتفاني في الإصلاح ، مثل ما رأيت في النصراني تماماً . أما من الناحية الفلسفية فلم أدرك شيئاً خارقاً للعادة في المبادئ النصرانية ، فمن ناحية التضحية أرى أن الهنود يفوقون النصراني بمراحل واسعة . ولهذا تعذر علي أن أعترف بأن النصرانية دين كامل ، أو أنها أكمل الأديان .

ولقد أفضيت بفكرتي هذه لكثير من أصدقائي النصراني ، ولكن أجوبتهم لم تكف لإقناعي ، وبقيت كما أنا . فلم أستطع أن أقبل مبدأ أن النصرانية كاملة ، ولا أنها أعظم الأديان . وكذلك كان معتقدي في الدين الهندوكي حينذاك . فان النقائص التي تعتور الدين الهندوكي

كانت مكشوفة لى . وأخص ما كان يعتور ذهنى فى ذلك الوقت مبدأ
معاملة « الأنجاس » . أما اعتبار هذا المبدأ جزءاً مكوناً فى الدين
الهندوكى ، فاعتقدت دائماً أنه بدعة دخلت على الدين ، لا مبدأ أصيلاً
فيه . ولم أستطع أن أفقه معنى لتعدد الطوائف والمذاهب أو ما المعنى فى
قول الذين يقولون بأن أسفار « الفيدا » هى كلمات الله المنزلة . فإذا كانت
هذه الأسفار منزلة ، فلماذا لا تكون الأناجيل ، ولماذا لا يكون
القرآن ؟

وبقدر ما رغب أصدقائى من النصارى فى أن أعتنق النصرانية ،
رغب المسلمون فى أن أعتنق الاسلام . ولقد شغلنى « عبد الله شيث »
مدرس مبادئ الاسلام ، وكان لديه ما يقول فى وصف جماله والتغنى
بمحاسنه .

فكتبت إلى « ريشاند باى » أفضى اليه عنكالاتى القليلة ، كما كتبت
إلى غيره من رؤساء الدين ، وتلقيت منهم أجوبة . ولقد غمرنى رد
« ريشاند باى » بطمأنينة ، إذ نصحنى بأن أكون صبوراً ، وأن
أتعلم فى درس الهندوكية . وانى أذكر جملة مما كتب إذ قال -
« اعتقد ، من غير أن يكون اعتقادى هذا متأثراً بميولى النفسية ، أن
ديناً آخر غير الهندوكية لا يمكن أن يحوز ما فيها من كمال الوضع أو
عمق الفكرة أو سعة النظر فى دقائق النفس أو حب الاحسان » .

واشترت ترجمة « صال » للقرآن وأخذت في قراءتها ، كما حصلت على كتب أخرى تتعلق بالاسلام . وفضلا عن هذا اتصلت بكثير من أصدقائي النصارى فى إنجلترا . فقدمنى أحدهم إلى « ادورد متلند » فشرعت أكتبه . فأرسل إلى كتاب « الطريق القويم » وهو كتاب ألفه بالاشتراك مع « أنا كنجسفورد » كما أرسل الى كتابا آخر هو « التفسير الجديد للاناجيل » فاعتبطت بكليهما ، بعد أن ظهر لى أنهما يؤيدان الهندوكية . أما الكتاب الذى اختلبنى بحو فكتاب تولوستوى « مملكة الله فى نفسك » فان ما خلف هذا الكتاب فى نفسى من الأثر باق لا يزول . وأمام ما فى هذا الكتاب من استقلال الفكر وسمو الآداب والأمانة والصدق ، تضاءلت كل الكتب التى أعطانيها مستر كوتس حتى أنها لم تعد شيئا مذكورا .

وجدت نفسى فى ذلك الوقت أكثر اكبابا على خدمة مصالح الجالية الهندية ، وإن ذلك الأمر أخذ يستهوينى شيئا فشيئا .

أما الدافع الذى دفعنى على أن أحصر همى فى ذلك فكان سعى المتواصل فى سبيل أن « أحقق ذاتى » واستقل بها عن كل الأشياء وعن كل الأوهام . واعتقدت أن الدين الحقيقى انما ينحصر فى « العمل » ، لأننى شعرت إذ ذاك بأن الله لا يمكن أن يتحقق فى نفسى إلا من طريق العمل . والعمل عندى قد انحصر فى خدمة « الهند » لأن الهند كانت الهدف الذى استهوانى بالفطرة ، ومن غير أن أحاول أن أخلق فى نفسى

ميلا إليه يدفعني إلى خدمة مصالحه . ولكني لم أهبط جنوبى افريقية إلا هرباً من دسائس « كاثياوار » وفراراً من مكايدها ، وسعيّاً فى سبيل الحصول على رزقى وقوتى . غير أنى ، كما قلت من قبل ، وجدت نفسى مغموراً فى سبيل الثور على الله والعمل على « تحقيق ذاتى » والاستقلال بها عن كل ما يحيط بى فى الوجود من أشياء .

ولقد عرف فى أصدقائى من النصارى تعطشى إلى المعرفة ، حتى لقد بلغ بى التعطش إليها حد الرغبة الملحة . ولكنهم كانوا لا يتركوننى فى سلام ، ولو أظهرت لهم عدم اكتراثى واستهتارى . فلما كنت فى « دوربان » استكشفتنى مستر « والتون » رئيس بعثة المبشرين فى جنوبى افريقية ، وربطت بيننا أواصر الصداقة حتى أصبحت كأنى أحد أفراد أسرته . وكان السبب فى هذه الصداقة علاقتى بعسدد من النصارى فى بريتوريا . وكان لمستر والتون نزعة خصيصة به ، فأنى لم أنذكر أبداً أنه دعانى إلى اعتناق النصرانية . بل اكتفى بأن يشرح لى حياته ويعرضها أمامى ككتاب مفتوح لأستخلص منها ما أريد ولأكون على علم بتفاصيلها . أما مسز والتون فكانت سيدة ذات آداب ، سامية المدارك ، واسعة العقل . ولقد اختلبنى ما فى حياة هذين الزوجين من نظام واتساق . وكان كل منا يعرف تماماً ما يختلف فيه عن الآخر من وجهات النظر . وقد عجزت المناقشات الطويلة عن أن تقرب من نواحي الاختلاف ، ولكن ظهر لى أن اختلاف وجهات النظر ومناقضة الآراء يصبح ذا

قيمة كبيرة من حيث الوقوف على الحقائق ، على شرط أن يعاون الاختلاف روح التسامح والاحسان وحب الحقيقة . ولقد تملكني الإعجاب بما رأيت في مستر ومنز والتون من التواضع والصبر والاحتمال والاكباب على العمل ، فكنت آنس بصحبتهما وأسعى لأن أصرف معهما من الوقت ما أقتصد من أعمالى الأخرى .

وكان لصادقتهما أثر كبير في أن أحتفظ بالاهتمام بالدين والروح الدينية حية في قرارة نفسى . ولكن لم أجد في نفسى من حب الاكباب على البحث الدينى في ذلك الوقت ما كنت أجد من قبل في بريتوريا ، غير أن ما كنت أنفق من وقت في الدرس الدينى ، وإن كان ضئيلا ، لم يكن يخلو من فائدة وريح: بيد أنى لم أقطع مراسلاتى في الابحاث الدينية ، فقد استمر « ريتاندا باي » يهدينى ويزودنى بالحقائق . وأرسل لى صديق كتاب « نارماداشنكر » المسمى « ذرمافيشان » فانتفعت بمقدمته . وكنت قد سمعت بالحياة البوهيمية التى قضاها ذلك الشاعر ، ولكن مقدمة الكتاب أوقفتنى على التطور الانقلابى العظيم الذى طرأ على حياته من درس المبادئ الدينية ، فكان لذلك أثر في نفسى اختلبنى اختلابا .

وأخذت أحب الكتاب . فقرأته من ألفه الى يائه بكل عناية وانتباه ، وقرأت باهتمام كتاب العلامة « مكس مولر » وعنوانه « الهند - وما نتعلم منها » ، كما قرأت ترجمة « أسفار اليوباشاد » التى

نشرتها الجمعية الثيوصوفية ، وكان هذا سبباً في أن أوجه عنايتي إلى الهندوكية ، وأخذ ما فيها من جمال وجلال يظهر لي جلياً واضحاً . غير أن هذه النزعة لم تولد في نفسي أراً من التحامل على الأديان الأخرى . ثم قرأت كتاب « حياة محمد وخلفائه » تأليف « واشنجطون ارفنج » والفصل الذي كتبه كارليل في البطل في صورة نبي ، وكان هذا سبباً في أن تسمو منزلة محمد في نفسي إلى حد الاجلال العظيم والتقدير السامي . وقرأت أيضاً كتاباً عنوانه « كلمات زرادشت »

ومن هذه السبيل استطعت أن اوسع معلوماتي عن الديانات المختلفة . وقوى في هذا الدرس زعة النظر الذاتي والعمل على أن أضع موضع التنفيذ ما يستهويني من المبادئ التي أدرسها خلال مطالعاتي . وجعلت ازاول بعض التجارب « اليوجية » كما استطعت أن أدرك هذا المذهب في الكتب الهندية التي وقعت لي . ولكن لم استطع أن أتقدم فيها ، وصممت على أن أعاود مزاولتها بارشاد ممرن حبير عند ما أعود الى الهند . ولكن لم أشبع في نفسي هذه الرغبة حتى الآن .

وأخذت ادرس تولستوى درساً عميقاً واسعاً حتى استوعبته . فكان لكثير من كتبه آثار في نفسي لن تزول . ومن هذه الآثار اعتقاد ان الحب المتبادل بين شعوب العالم ممكن التحقيق ، وان لتحقيقه ممكنات كثيرة يمكن اللجوء اليها في سبيل جعله عاماً بين الناس أجمعين . في ذلك الوقت بدأت علاقتي بأسرة نصرانية اخرى . وتحت تأثير

هذه العلاقة أخذت أشهد اجتماعات « كنيسة ويزلى » كل أحد، وكنا ننصرف من الكنيسة الى الغداء فى بيتهم . غير ان الكنيسة لم تترك فى نفسى أى أثر . ولم أكن أرى فى الاجتماع من الروح الدينية شيئاً . فانى لم أشهد فى المجتمعين روح التوجه الدينى والغمرة القدسية التى تشمل النفوس المتجهة الى الله . وكنت أرى فى المصلين جمعاً من الناس بهظتهم المطامع الدنيوية ، وانهم لا يذهبون الى الكنيسة الا للتسلية أو بحكم العادة . وكنت اغنى فى بعض الاحيان ويهوم برأسى النعاس ، فانتبه حجلاً ، ولكن كثيراً ما كنت أرى عيرى من النصارى قد اخذتهم الغفوة . فلم استطع الاستمرار طويلاً على هذه الحال ، فامتنعت عن الذهاب الى الكنيسة .

غير ان امتناعى عن الذهاب الى الكنيسة كان سبباً فى أن تنقطع علاقتى توأماً بالاسرة التى كنت ازورها كل أحد . واستطيع أن اقول بأنى حذرت من أن أزورها . وإليك ما وقع . فان مضيفتى كانت سيدة طيبة السريرة صافية النفس ، ولكنها كانت ضيقة العقل ، وكنا كثيراً ما نتناول بالكلام مختلف المسائل الدينية . وكنت فى ذلك الوقت اعيد قراءة كتاب «ارنولد» نور آسيا . فاخذنا مرة نقارن بين حياة عيسى وحياة بوذا ، فقلت لها مرة انظرى الى رحمة «غوتاما» . انها لم تقتصر على النوع البشرى وحده ، بل تناولت كل الاحياء . ألا ترى ان الانسان يفيض قلبه بالحب اذ يفكر فى حمل وديع مسكين يحمله فوق كتفيه ؟

وان الانسان ليعجز عن أن يجد مثل هذا الحب الشامل لكل الاحياء
 في حياة عيسى » - غير أن هذه المقارنة آلمت السيدة الطيبة القلب
 كل ألم . واستطعت ان أدرك شيئاً من مشاعرها . فكففت عن
 الكلام وذهبت الى فاعة الطعام وكان لها ابن لم يتجاوز الخامسة حضر
 مناقشتنا . ومن طبعى ان أسر بعشرة الأطفال ، وكنت وهذا الطفل
 صديقين حميمين - فأخذت أذم قطعة اللحم التى كانت فى صحنه وأمدح
 التفاحة التى كانت أمامى - فتأثر الطفل وأخذ يمدح الفواكه ويذم
 اللحوم .

ولكن الأم استنكرت هذا . فحذرتنى أن أعود اليه . فغيرت
 موضوع الكلام مستقوياً على نفسى . وفى الأسبوع التالى ذهبت لزيارة
 الأسرة ولكن لحظت شيئاً جديداً من الامتناع . غير أنى لم أفكر فى
 الانقطاع عن الزيارة . غير أن السيدة سهلت لى الطريق فقالت لى -
 « يامستر غاندى . أرجو أن لا تمتعض إذا أنا صارحتك بأن طفلى
 لا ينتفع بصداقتك . لقد أخذ يتوانى فى أكل اللحوم ويطلب الفواكه
 وذلك يذكرنى دائماً بمناقشاتك . وهذا كثير احتماله . فانه إذا امتنع عن
 أكل اللحوم يضعف ، وربما يمرض . فكيف أحتمل هذا . فأرجو
 أن تحصر مناقشاتك معنا نحن الكبار . لأننى متأكدة أن مناقشاتك
 هذه لها أثر سيء على الأطفال » . فأجبتها - « انى آسف . فانى أقدر
 شعورك كوالدة ، لأننى أيضاً لى أطفال . ومن الممكن أن تقف هذه الحال

عند حد ، ويجب إذن أن أمتنع عن هذه الزيارات ، دون أن يكون لذلك
أى تأثير على صداقتنا » . فشكرتني بسرور ظاهر .
وعلى الرغم من أنى اقتحمت طريقاً لم يرده لى أصدقائى النصارى ،
فانى أشعر بأنى مدين لهم بما عرسوا فى من نعمة البحث الدينى .
وسأذكر على الدوام علاقتى بهم مغتبطاً مسروراً . غير أن الأيام كانت
تخبأ لى من أمثال هذه العلاقات النفسية المقدسة ، كنوزاً أكبر مما
زودتنى به فى ذلك الحين .



الفصل الثامن

عنف الغوغاء في دوربان

في منتصف سنة ١٨٩٦ عدت الى الهند . ولما كان الحصول على بواخر من الناتال تقصد رأساً الى كالكوتا ايسر من الحصول على بواخر تقصد الى بومباي ، سافرت على باخرة تقصد التنغر الأول . ذلك لأن الاجراء المتعاقدين كانوا بحرون الى جنوبي افريقية أما من كالكوتا أو من مدراس . وبما كنت افطم الطريق بين كالكوتا وبومباي ، تخلفت عن القطار فقضيت يوماً في « الله آباد » وهناك بدأت مهمتي في شرح الحالة في جنوبي افريقية . فزرت مستر تشسني - Chesniy - محرر جريدة البيونير « Pioneer » أي « الرائد » . فكلمني بأدب وعرفني بصراحة أن ميوله تتجه الى العطف على المستعمرين . ولكنه على الرغم من هذا وعدني بأن يقرأ أي شيء أكتبه ويشير إليه في جريدته . وبهذا اكتفيت .

وفي أثناء اقامتي في الهند كتبت رسالة شرحت فيها حالة الهنود في جنوبي افريقية . فأشارت اليها كل الجرائد على وجه التقريب وطبعت مرتين . ووزع منها خمسة آلاف نسخة في كثير من أنحاء الهند

وفي أثناء هذه الزيارة أتيح لى أن أرى زعماء الهند ، وهيئت لى
الفرص العديدة التى ألقىت فيها خطابات عامة فى بومباى وپونا
ومدراس . وليس من قصدى أن أشرح هذه الأشياء باطناب ولكن
حسى أن أذكر أنه بينما كنت فى اجتماع عام فى كالكوتا، وصلنى تلغراف
من ناتال يسألنى فيه مرسلوه أن أعود إلى الناتال نوآ ، فقصر هذا الحادث
أمد زيارتى للهند . لأنى أدركت من هذا التلغراف أنه لا بد أن تكون
قد قامت حركة معادية للهنود ، فتركت عملى الذى بدأت فى كالكوتا
غير كامل وذهبت إلى بومباى ، وركبت أول باخرة ومعى أسرتى . وكان
بيت « دادا عبد الله » قد اشترى الباخرة « كورلاند » - Gourland -
وبذلك أضاف هذا البيت الى أعماله التجارية مخاطرة حديدة ، بأن
يكون له فوق البحار باخرة تمخرها بين « بوربندار » وناتال . وتبعث
هذه الباخرة باخرة أخرى تدعى « ناذيرى » - Naderi - مملوكة لشركة
بواخر خليج العجم ميممة شطر الناتال . فكان ركاب الباخرتين
يناهزون الثمانمائة مسافر .

وكانت الدعوة التى نشرتها فى الهند قد نالت من الاهتمام قدراً جعل
الحرائد الهندية تهتم بها وتفسح لها من أعمدها وجعل روتر يرسل
اشارات برقية عنها إلى انجلترا . وهذا لم أعرفه إلا عندما وصلت الناتال .
وكان وكيل روتر فى انجلترا قد أرسل برقيات إلى جنوبى افريقية لخص
فيها خطاباتى فى الهند تلخيصاً مبالغاً فيه . ولم يكن هذا الأمر حديداً

في الهند كانت محوطة بروح الاحتياط حذر المبالغة والتفريط . ولما كنت أعرف بالتجربة أن شرح حادثة لشخص غريب عنها قد يحدث فيه من الأثر أكثر مما نقصد أن نقل إلى ذهنه منها ، عملت جهدي في أن أصف الموقف في جنوبي افريقية لاخوانى الهنود بروح أكثر هوادة مما تجيز الحقائق الواقعة . ولكن قليلا من الأوروبيين كانوا يقرءون ما أكتب في ناتال ، والذين كانوا يهتمون بها أقل من الذين يقرءونها . ولا شك في أن الحالة كانت تختلف اختلافا طاهراً بين هذا وبين الأثر الذي أحدثته خطاباتي وكتاباتي في الهند . فان آلافاً من الأوروبيين قرأوا برقيات روتر التي لخص فيها أقوالى . وتجد من جهة أخرى أن موضوعاً له من التقدير والاهمية أن تتناقله البرقيات ، تصيه لأول وهلة حمى الاهتمام به لاكثر مما يستحق . وظن الاوروبيون في ناتال أن عملي في الهند له من الاهمية ما قدروه له في أنفسهم ، وان من المحتمل أن يلغى نظام الحصول على أجراء بالتعاقد معهم على العمل ، فيتأثر بالخسارة مئات من المزارعين الاوروبيين من جراء ذلك . وفضلاً عن هذا فانهم شعروا بأن أهل الهند أصبحوا ينظرون اليهم بمنظار أسود . وبينما كان الاوروبيون في ناتال على ما وصفت من اضطراب العقل ، وصلتهم أخبار عودتى إلى ناتال على طهر الباخرة « كورلاند » ومعى ثلاثمائة أو أربعمئة مسافر من الهنود ، وان الباخرة « ناديرى » كانت على وشك الوصول في الوقت ذاته وعليها عدد لا يقل عن هذا ، فألهبهم

هذه الأخبار وزادتهم هياجاً ، وانفجرت براكين الشعور إلى أقصى حدودها . وعقد أوريو ناتال اجتماعات كبيرة ، حضرها في الغالب أكثر شخصياتهم ظهوراً ومنزلة . وكان المسافرون الهنود على وجه عام ، وأنا على وجه خاص ، موضع نقد مرير ، حتى لقد صور وصول الباحرتين كورلاند وناديرى إلى الناتال بمثابة « غزوة » هندية لتلك البلاد . وقال خطبائهم انى أنا الذى أحضرت هؤلاء الثمانمائة من المسافرين إلى الناتال ، وان هذه هى الخطوة الاولى فى سبيل خطة مرسومة محصلها أنى أرمى إلى اغراق الناتال بسيل عرم من مهاجرى الهنود الاحرار . وترتب على هذا أن يصدر المجتمعون قرارات يقضون فيها بأن لا يسمح للمسافرين ، وأنا أولهم ، بأن ينزلوا إلى الناتال ، وأنه فى حالة ما اذا عجزت الحكومة عن أن تمنع المسافرين عن النزول ، فان اللجنة التى كونت من الأوروبيين يكون لهما الحق فى أن تنصح لأعضائها بأن يخرقوا القوانين ويمنعوا المسافرين عن هبوط أرض ناتال بالقوة . ووصلت الباحرتان إلى ناتال فى نفس اليوم الذى صارت فيه هذه القرارات .

كان أول مظهر الطاعون الدملى فى الهند سنة ١٨٩٦ . فأخذ الأوربيون هذه الحقيقة ذريعة يتذرعون بها ليمنعونى عن الهبوط الى بر الناتال . ولقد ووجهت الحكومة بكثير من الصعاب القانونية . ذلك لأن قانون تحديد الهجرة لم يكن قد عمل به بعد . فى حين ان ميول الحكام

كانت كلها مع لجنة الأوربيين : يدلك على هذا ان مستر « اسكومب » Mr Escombe - وهو عضو طاهر من أعضاء الحكومة قد اخذ بضلع كبير في الاجتماعات التي عقدتها هذه اللجنة . وهنالك قاعدة مقررة معترف بها في كل الثغور بأنه في حالة حدوث اصابة بمرض معد بين ركاب باخرة ، أو اذا كانت الباخرة آتية من ثغر موبوء ، فرض عليها أن تبقى تحت الحجر الصحي عدداً من الأيام . على أن هذا الخطر لا يمكن أن يفرض إلا على أساس صحى فقط ، وعلى مقتضى أوامر يصدرها الضابط الصحى في الثغر . غير أن حكومة ناتال أساءت استعمال سلطتها بأن فرضت هذا الخطر لأسباب سياسية . فعلى الرغم من انه لم تحصل إصابة بمرض معد ، حجر على الباخرتين صحياً ، وظلتا تحت هذا الحجر مدة أطول مما يلزم إذ بقيتا على هذه الحال ثلاثة وعشرين يوماً . وفى أثناء هذه المدة كانت لجنة الأوربيين لاتنى نشطة عاملة . حتى لقد نال الشركاء « دادا عبد الله » أصحاب الباخرة « كورلاند » ووكلاء شركة بواخر خليج العجم التي كانت تملك الباخرة « ناديرى » ، كثير من عنتهم وغطرستهم . ولقد استعملت مع أصحاب الباخرتين كل المرغبات لكي يقتنعوا بأن تعود الباخرتان بمن عليهما من المسافرين من حيث أتيئا ، ثم هددوا بالمقاطعة والمطل عن العمل إذا هم لم يصدعوا بما طلب اليهم أو رفضوا ما عرض عليهم . ولكن الشركاء « دادا عبد الله » كانوا على جانب عظيم من الشجاعة . حتى لقد أجابوا بأنهم لا يبالون

إذا نزل بهم الخراب وحل بهم الدمار ، وأنهم سوف يخوضون عمار المعركة حتى نهايتها المرة ، ولكنهم لا يقبلون أن يجروا على ارتكاب جريمة شنعاء بأن تعود الباخرة بمن عليها من المسافرين الأبرياء في حالة لا معين لهم فيها . ولقد أظهروا بموقفهم هذا أن الوطنية لا تنقصهم . ولا أنسى أن أذكر أن محامي هذه المؤسسة وهو المستر « لوتون » كان رجلاً شجاعاً مقداماً .

و شاء الخط أن يصل الى افريقية في ذلك الوقت هندي ذو مكانة هو السير « مشو هلال هيرالال نازار » وابن عم المرحوم « ناناهاى هاريداس » القاضى المعروف . ولم يكن لى به من صلة ، كما أنى لم أكن أعرف أنه ذاهب إلى جنوبى افريقية . ولا حاجة لى لأن أذكر أنه لم يكن لى من يد فى احضار المسافرين الذين عصت بهم الباخرتان كورلاند وناديرى . فالكثيرون منهم كانوا من سكان جنوبى افريقية الأقدمين . كما كان الكثيرون منهم ذاهبين رأساً إلى الترнсفال . ولقد أرسلت مذكرات تهديدية أرسلتها لجنة الأوروبين إلى هؤلاء أيضاً ، فقرأها عليهم قباطنة الباخرتين . وجاء فى هذه المذكرات صراحة أن الاوروبين الذين يقطنون ناتال كانوا فى هياج خطير وحالة خلقية مريعة ، فاذا حاول المسافرون الهنود على الرغم من هذا التحذير أن ينزلوا إلى البر ، فان رجال اللجنة الاوروبية سيكونون على الرفأ مستعدين لأن يلقوا كل من تمس قدماء منهم أرض ناتال إلى البحر .

فترجمت هذه المذكرة للمسافرين على طهر الباخرة كورلاندا . وترجمها لركاب الباخرة ناديرى رجل هندى يعرف اللغة الانجليزية . وكانت النتيجة أن رفض ركاب الباحتين العودة ، وأضافوا إلى ذلك أن الكثيرين منهم كانوا ذاهبين إلى الترنسفال ، وأن بعضهم من قطان ناتال المقيمين بها ، وأن لكل منهم الحق المطلق في أن ينزل إلى البر ، ولذا فاهمهم على الرغم من تهديدات لجنة الأوروبيين، قد صمموا على النزول إلى البر ليعرفوا إن كان لهم الحق في ذلك، أم أنهم حرّموا قانوناً هذه الحقوق . ولقد بلغت حكومة ناتال آخر حدود الصبر على مثل هذه الحال السادة . فالى أى حد يمكن أن تسمح باستمرار مثل هذا الخطر غير القانونى ؟ كان قد مضى ثلاثة وعشرون يوماً ، من غير أن يلين الشركاء « دادا عبد الله » ومن غير أن ينكص المسافرون أو تهزم شجاعتهم . ورفع الحجر الصحى بعد ثلاثة وعشرين يوماً وسمح للباحتين أن تقلعا إلى المرفأ . وكان مستر « اسكومب » قد استطاع في هذه الأثناء أن يهدى شيئاً من نائرة أعضاء اللجنة الأوروبية . فقال في احدى الاجتماعات - « ان الأوروبيين في دوربان قد أطهروا من الاتحاد والشجاعة ما هو جدير بالثناء . لقد فعلتم أقصى ما في استطاعتكم ، وساعدتكم الحكومة ، فحجر على الهنود ثلاثاً وعشرين يوماً ، استطعتم في أثناءها أن تعبوا عن شعوركم وعواطفكم وتظهروا رأيكم العام .

(م - ١٠)

ولا شك في أن هذا سيكون له أثره في حكومة الامبراطورية ، كما أنه جعل الطريق الذي سوف تسير فيه حكومة الناتال سهلاً معبداً . فإذا منعتم بعد ذلك هندياً واحداً عن النزول إلى البر ، أضرتكم بمصالحكم ووضعتم الحكومة في موضع عسير ، وأوقفتموها في أخرج موقف . وحتى هذا سوف لا يمكنكم أن تمنعوا هندياً واحداً من النزول إلى ناتال . فلبس المسافرون جميعاً ممن يحق لنا أن نغضب عليهم أو نتقم منهم . وبينهم نساء وأطفال . ولما سافروا من بومباي لم يكن لديهم من علم بحقيقة شعوركم . فنصيحتي الخالصة لكم أن تفرقوا وأن لا تعيقوا هؤلاء الناس عن مغادرة الباخرتين . واني أوكد لكم أن حكومة ناتال سوف تنال من المجلس التشريعي القوة الكافية التي تستطيع بها أن تقيد الهجرة إلى هذه البلاد » وليس هذا غير تلخيص لما قال مسنر « اسكومب » . ولقد امتعض سامعوه ، ولكنه كان ذا نفوذ واسع على الأوروبيين في ناتال ، ففرقوا احتراماً لنصحه ودخلت الباخرتان إلى الميناء وألقتا مراسيهما على المرفأ .

وصلتني رقعة من المستر اسكومب ينصح لي فيها بأن لا أغادر الباخرة مع بقية المسافرين ، وأن أنتظر إلى المساء ، حتى يرسل إلى مراقب بوليس الميناء ليذهب معي إلى البيت ، وأضاف إلى ذلك أن أسرتي حرة في أن تنزل إلى البر في أي وقت تشاء . ولم يكن هذا بمثابة أمر بمقتضى القانون، بل كان من باب النصيحة للقبطان لكي لا يسمح لي

بالنزول من الباخرة، وليعرفني الخطر الذي يعتورنى . ولم يكن لدى القبطان من السلطة ما يجعله يعنى بالقوة من مغادرة السفينة ، ولكنى صممت على أن أقبل مقترحاته . فأرسلت أسرتى إلى بيت صديقى القديم وموكلى « پارسى رستومجى » وأخبرتهم بأنى سوف ألاقيهم هنالك . ولما نزل المسافرون من الباخرة حضر مستر « لوتون » مستشار دادا عبد الله وصديقى الشخصى لمقابلتى ، وسألنى لماذا لم أعادر السفينة ؟ فأحترته بأمر ما كان من خطاب مستر اسكومب . فقال لى بأنه يمتت فكرة بقائى الى المساء وأن أدخل المدينة دخول لص أو خصيم . وأنى اذا لم أكن خائفاً ، أستطيع أن أرافقه ففسير إلى المدينة كما لو لم يكن قد حصل أى شىء . فأجبت به بأن الأمر لم يكن عن خوف من ناحيتى بل كان عن مراعاة اللياقة والأدب فى أن أرفض أو أقبل مقترح مستر اسكومب . فابتسم مستر لوتون وقال - « ماذا فعل لك مستر اسكومب حتى تهتم بمقترحه ؟ وأى سبب يملك على أن تظن أنه انما اقترح ما اقترح شفقة عليك ورحمة بك ، وليس الباعث عليه غرضاً آخر ؟ انى أعرف أكثر منك دقائق ما حصل بالمدينة وما كان من أثر مستر اسكومب فى الحوادث التى وقعت » . ولكنى قطعت عليه الحديث بإيماءة

غير أن مستر لوتون عقب على ذلك بقوله : « يمكننا أن نفرض أن مستر اسكومب قد كتب رقعة اليك مدفوعاً بأسى البواعث ، ولكنك اذا وافقت على مقترحه أهنت نفسك . ولذا أنصح اليك ، اذا كنت

على استعداد ، أن ترافقنى الآن . فالقبطان من رجالنا ، ومسؤوليته مسؤوليتنا . وهو غير مسؤول إلا أمام « دادا عبد الله » . وانى لأعرف ما سوف يفكرون فيه ازاء هذا الأمر ، لأهمهم أظهروا فى هذا الصراع شجاعة نندر مثلها . » - فأجبت - « دعنا نذهب اذن . وليس عندى تمهيدات أقوم بها . وكل ما علىّ أن أضع عمامتى على رأسى . فليخر القبطان أولاً ثم يغادر الباخرة ؟ » . واستأذنا القبطان فأذن .

كان مسنر لوتون محاميا قديما واسع الشهرة فى دوربان . وكنت قد عرفته وتوثقت بيننا عرى الصداقة . وكان من عادتى أن أستشيريه فى القضايا التى آسى فيها صعوبة أو أوكله عنى باعتباره أقدم منى بالمهنة عهداً وأوسع تجربة . وكان رجلاً شجاعاً قوى البنية مفتول العضل . أما طريقنا فكان يخترق الشارع الرئيسى فى دوربان . ووافت الساعة منتصف الخامسة من المساء . عند ما بدأنا فى المسير . وكانت السماء يكسوها غيم خفيف وكانت الشمس قد انحدرت نحو المغيب فلم تكن ترى . والمائى على قدميه أن يمضى ساعة برمتها حتى يصل الى بيت « پارسى رستومجى » . وكان الناس الواقفون على أرصفة المرفأ ليسوا أكثر عدداً من المعتاد . ولكننا بمجرد أن نزلنا من الباخرة لمحنا بعض الصبية . ولما كنت الهندى الوحيد الذى يلبس عمامة ذات طابع معين ، فسرعان ما عرفت ، وبدأ الصبية يصيحون « ها هو غاندى ! هنا غاندى ! حطموا غاندى ! أحيطوا بغاندى ! » وأقبلوا نحوى . وبدأ بمضهم يلقى

على الحجارة . وشاركهم بعد قليل أوريون أسن منهم ، وأخذت جماعة الغوءاء المفتونين تزداد تدرجاً . وفكر مستر لوتون أن هناك خطراً محدقاً بنا إذا مضينا نسير على الأقدام ، فنأدى عربة يد لتقلنا . وحتى الساعة لم أكن قد ركبت عربة يد لأنني كنت أستعجن أن أستقل عربة يجرها واحد من بني آدم . ولكنني شعرت بأن واجبي أن أستخدم عربة اليد لأول مرة . ولقد عالجت في حياتي خمس أو ست حالات ، وإن شئت فقل تجارب ، استبنت منها أن الشخص الذي يريد الله له النجاة لن يصيبه الضرر ولو ألقى بنفسه فيه . وعلى الرغم من أنني مجتهد هذه المرة أيضاً ، فاني ما شككت في أن نجاتي لم تكن من عمد نفسي ولا بمهارتي . وكان الذي يجز العربة رجل من « الرولو » - Zulus - فهدده الصيادان والرجال الأوريون بأنه إذا سمح لي بأن أستقل عربته فعقابه الضرب المبرح ونحطيم عربته . وسمعنا من هذا « الزولي » كلمة « خا » أي « لا » وذهب بعيداً عنا . فحمدت الله لأنني لم أحمل على أن أخجل نفسي بأن أركب عربة يجرها فرد من أبناء آدم .

لم يصبح أماننا من مفر في أن نمضي مشياً على الأقدام إلى حيث قصدنا . وتبعنا الغوءاء . ولم تكن ننتقل خطوة حتى يزداد الغوءاء في العدد . وماوصلنا شارع « وست » - West - حتى أصبح عدد المتظاهرين مريعاً . وتقدم رجل قوى الأعصاب من مستر لوتون وفرق بينه وبينى . فأصبح في موقف لا يستطيع فيه الدنو مني . وبدأ الغوءاء يسيئونني

ويلقون على الحجارة ، بل وكل ما تصل اليه أيديهم . ورموا بمماتي إلى الأرض . ثم تقدم منى شخص بدين كثير الصياح وصفعى على وجهى وركلى بقدمه . وكنت على وشك أن أسقط على الأرض مغشياً على ، عندما أمسكت بجذائذ منزل قريب منى . واستطعت أن أتنفس برهة ، ولما ذهبت عنى نوبة الانغماء بدأت أسير فى طريق . وفى ذلك الوقت فقدت كل أمل فى أن أصل المنزل حياً . على انى أذكر جيداً انى حتى فى تلك الحالة لم أشعر فى قلبى بأية حفيظة نحو الذين يؤذونى .

بينما كنت أسير ببطء متهادياً مترنحاً فى طريق ، كانت مسز « الكسندر » زوجة مراقب بوليس دوربان مقبلة فى الناحية الأخرى . وكانت بيننا معرفة وثيقة ، والحق أنها سيدة فيها شجاعة واقدام . فعلى الرغم من أن السماء كانت غائمة وقد انحدرت الشمس للمغيب ، فإنها نشرت شمسيته لتقينى بها ومشيت الى حانئى . ومن عادة الاوروبيين ان لايهينوا سيدة ، وعلى الأخص زوجة مراقب البوليس ، وهو رجل متقدم فى السن معروف عند الناس حتى المعرفة محبوب لديهم ، فكيف يفكرون فى ايدائها ؟ وكان لابد من ان تؤذى اذا هم صوبوا محوى . لذلك أشعر بأن المصار التى لحقتنى بعد صحبتها كانت غير ذات بال . وكان مراقب البوليس قد عرف بأن الغوعاء تهاجنى فأرسل بعض رجاله لحمايتى . وأحاط بى رجال البوليس . وكان مركز البوليس فى طريقنا . فلما وصلنا وجدت ان مراقب البوليس كان واقفا ينتظر قدومنا . وعرض

على أن أحتجى بمركز البوليس فرفضت وشكرته قائلاً . « لا بد لي من أن أصل الى حيث أقصد . واني لمؤمن بعث أهل دوربان ايماني بقداصة قضيتي . فستكرأ لك على اهتمامك وارسالك رحال البوليس لحمايتي . واني لأشكر مسز الكسندر لانها ساهمت بأكثر من الواجب في سبيل سلامتي .

ووصلت بيت « رستوجى » من غير حادث آخر . وكان الليل قد بدأ يرخى سدوله عندما وصلت . وأخذ طبيب الباخرة كورلاند يمتحن جروحي لأنه كان هنالك . فلم يجد في كثيرأ من الحراح . ولكن كدماً كبيرأ كان يؤلنى أشد الألم . غير أنى فضلاً عن هذا لم اترك لاستريح . فان آلافا من الاوروبيين تجمهروا أمام منزل « رستوجى شيث » . ولما خيم الظلام شاركهم في تجمهرهم عدد من « الفتوات » ، وأرسلوا الى رستوجى شيث كلمة يقولون فيها بانه اذا لم يسلمنى اليهم أحرقوا المنزل بمن فيه وأنا معهم . على ان رستوجى شيث كان هندياً من الذين لاتلين قناتهم . ولما علم مستر الكسندر مراقب البوليس بالحالة اختلط بالفوعاء ومعه عدد من البوليس السرى . واستحضر منصة ووقف عليها . ثم خدع الفوعاء بأنه سوف يتكلم فيهم ، وبهذه الخدعة استطاع أن يحتل باب منزل رستوجى حتى لا يستطيع أحد أن يقتحمه ويدخل الى البيت ، وكان قد أوقف رجالا من البوليس السرى فى الأماكن الضرورية . وبمجرد أن وصل أمر أحد أتباعه أن يستخفى فى زى تاجر

هندي بأن يلبس ملابس هندية ويصبغ وجهه ، حتى يستطيع أن يقابلني وأن يحمل الى الرسالة الآتية: « اذا كنت تريد أن تنقذ صاحبك وضيوفه وماله ، واسرتك شخصياً ، فاني أنصحك بأن تستخفي في زى كوستابل هندي وتخرج من باب ببت رستومجي الخلفي ثم تندس مع رجلى هذا في الجمع الحاشد حول المنزل وتتسلل الى مركز البوليس . ان عربة تنتظرك في منعطف الشارع . وهذه هي الطريقة الوحيدة التي أستطيع بها أن أنقذك وأنقذ غيرك . ان الغوعاء في هياج حتى انه ليتعذر على أن أحكم أهواءهم . فاذا كنت متردداً في اتباع مستورتي ، فاني أخشى أن يهدم الغوعاء بيت رستومجي من أساسه . وهناك لا أستطيع أن اقدر كم من الارواح سوف ترهقوكم من الاموال سوف تدد . ولقد أدركت الموقف بسرعة فاستخفيت في زى كوستابل وعادرت منزل رستومجي . ووصلت أنا والضابط مركز البوليس في أمان . وفي ذلك الوقت كان مستر الكسندر يماجن الغوعاء ويغنيهم أغنيات يستدعيها الموقف حيناً ، ويتكلم فيهم حيناً آخر . فلما علم أنني لفت مركز البوليس ، انقلبت محافته جداً وسأل :

- « ماذا تريدون ؟ »

- « نريد غاندى . »

- « ماذا تريدون أن تفعلوا به ؟ »

- « نحرقه » .

- « أى ضرر أحدث لكم » ؟
- « لقد سود وجوهنا فى الهدوء ويريد أن يفرق الباتال سبيل من الاجراء » .
- « وماذا سوف تعملون لو انه لم يخرج » ؟
- « اذن محرف المنزل » .
- « ان زوجه وأولاده هنا أيضاً . وهالك رجال ونساء غيرهم .
- أفلا تخرجون من أن تحرقوا نساء وأطفالا » ؟
- « ان مسؤولية ذلك تقع عليك . اننا لا نريد أن نؤذى أى شخص آخر
- ولذا نطلب اليك أن تسلمنا عاندى » .
- وهنا ابسبم مراقب البوليس فى هدوء وأخبر الغوعاء بأننى غادرت منزل رستوبجى ومررت فى وسطهم ووصلت إلى مأمن آخر . فصاحوا معاً . « هذا كذب ! هذا كذب ! » فأجابهم
- « اذا كنتم لا تصدقون مراقب بوليسكم العجوز ، فأرجو أن تنتخبوا لجنة من بينكم مكونة من ثلاثة أو أربعة أفراد . على أن بتعهد الباقون أن لا يقتحموا المنزل ، فادا لم تجد هذه اللجنة عاندى فى المنزل عدتم بسلام الى منازلكم . انكم مهتاجون اليوم ، ولا تريدون أن تطيعوا البوليس . وهذا مما يضعف الثقة بكم ، لا بالبوليس . لهذا تحايل البوليس عليكم ، فأخرج فريستكم من وسطكم فخرتم الصفقة . ولا شك فى أنكم لا تلومون البوليس على هذا . ان البوليس الذى

أقمتموه ليحافظ على النظام قد قام بواجبه .

ولقد خاطب مراقب البوليس الغوءاء بلباقة وقوة حتى استل منهم الوعد الذى أراد . وعينت لجنة . وفحصت بيت رستوى فحصاً دقيقاً ، وأخروا الغوءاء بأن مراقب البوليس صادق وأنه كسب منهم الصفقة . وهنا امتعض الغوءاء . ولكنهم نفذوا عهدهم وانصرفوا من غير أن يرتكبوا عبثاً . وكان وقوع هذا الحادث فى يوم ١٣ من يناير سنة ١٨٩٧ .

...

فى صبيحة اليوم الذى رفع فيه الحجر الصحى عن الباخرتين ، قابلى مكاتب احدى صحف دوربان على ظهر السفينة . وسألنى عن كل شىء ، وكان من السهل على أن أتصل من الهمم التى وجهت الى وأن أقيم له الدليل على ذلك بما أرضاه . ولقد أثبت له بأسهاب أى لم أتورط فى أية مغالاة ، وانى لم أفعل الا ما أعتقد أنه واجب على . وانى اذا توانيت عن أن أظهر ما أظهرت ، فانى لا أكون جديراً بأن أسمى رجلاً . وظهر هذا كله على صفحات الجرائد فى اليوم التالى . ولقد اعترف ذوو النهى من الأوروبيين بخطئهم . وعبرت الصحف عن ميولها وعواطفها نحو الأوروبيين وموقفهم فى ناتال ، ولكنها بجانب هذا دافعت عن موقفى وعملى . وكان من وراء ذلك أن ازداد صيتى ذيوماً ، واكتسب الهنود احتراماً ، حتى لقد ظهر أن الهنود ، ولو أنهم فقراء معدمين ، ليسوا

جبناء ، وأن التجار الهنود على استعداد لأن يجاهدوا ليحافظوا على احترامهم ومن أجل وطنهم ، من غير تقدير لما سوف ينزل بهم من خسائر . وعلى الرغم من أن الجالية الهندية كانت سوف تقاسى الآلام ، وعلى الرغم من الخسائر الفادحة التي نزلت بيت « دادا عبد الله » ، فإن النتيجة اجمالاً كانت مفيدة . فإن الجالية الهندية استطاعت أن تتمتعن قوتها ، وبذلك زادت ثقتها بنفسها . وأنا شخصياً قد استفدت من هذه التجربة ، حتى أنى ما فكرت فى ذلك اليوم إلا وشعرت بأن الله كان يهيئنى لأن أضع « الستياجراها » موضع التنفيذ . ولقد كان لحوادث ناتال هذه صدى تردد فى انجلترا ، فإن مستر تشامبرلين وزير المستعمرات أبرف الى حكومة ناتال يسألها أن تحاكم الذين آذونى وأن تأخذ العدل مجراه فى مسألتى .

وكان مستر اسكومب مدعياً عمومياً فى حكومة ناتال فاستدعانى اليه وأطلعنى على برقية مستر تشمبرلين . وأظهر أسفه لما نالنى من الإيذاء ، كما أبدى سروره من أن نتائج مطاردتى لم تسكن أشد مما كانت . وأضاف الى ذلك - « انى أوكد لك بأنه لم يكن من قصدى أن تؤذى أو يؤذى أى شخص من أفراد جاليتكم . ولأنى خفت من أن ينالك الأذى ، أرسلت اليك رقعتى ناصحاً بأن لا تغادر السفينة الا مساء . فلم تحب أن تأخذ باقتراحى . وليس من قصدي أن أوجه اليك أى لوم فى أنك أخذت بنصيحة مستر لتوتون . فإن من حقك أن تعمل كل ما تراه صواباً .

وحكومة ناتال تقبل كل طلبات مستر شامبرلين بحذافيرها ، وترغب في أن يقف مهاجموك موقف الاتهام . فهل يمكنك أن تستدل على أى شخص من الذين هاجموك ؟

فأجبتة بأنه ربما كان فى امكانى أن اعين شخصاً أو اثنين منهم ، ولكنى صممت تصميماً قاطعاً على أن لا أشكو أحداً . فان كل المعلومات التى تلقاها مهاجى انما تلقوها من رؤسائهم وزعمائهم ، وانه لكثير أن يطلب الانسان من غوعاء أن يحكموا فيما اذا كانوا على صواب أو على خطأ . فاذا كان كل ماسمعوا عى صحيحاً ، فمن الطبيعى أن يهتاجوا وأن يرتكبوا شيئاً من الخطأ فى ثورة من الغضب . وان الجماهير المستاءة الصاخبة كثيراً ما حاولت أن تنفذ العدالة بهذه السكيفية . وادا كان لى أن ألوم احداً فانى انما ألوم لجنة الاوروبيين . وربما يكون روتر قد نقل أخباراً مشوهة . ولكن زعماء الاوروبيين لما علموا بقدومى الى ناتال ، كان من الواجب عليهم وعلى اللجنة أن نسألنى فى الشكوك التى ساورتهم من جراء أعمالى فى الهند .

فأجابنى مستر اسكومب قائلاً : « انى أفهم ماتقول حق الفهم ، وانى لاحترم أقوالك وأقدرها . انى لم أكن مستعداً لأن أسمع منك انك لاتريد أن تحاكم الذين آذوك وهاجموك . وانى ما كنت لاشعر بأية غضاضة من أن تطلب محاكمتهم . ولكن بما أنك أبديت تصميمك على أنك لاتريد أن تحاكمهم ، فانى لا أتردد فى أن أقول لك بأنك لم

تصل الى رأى الصائب فى الموضوع لا غير ، بل أقول لك بصراحة بانك بهذا سوف تقدم لجالتك خدمات أكبر مما قدمت لها، بما تبدى من القدرة على ضبط النفس . وكذلك يجب على أن أصرح فى الوقت ذاته بان رفضك أن تحاكم الذين آدوك سينقذ حكومة ناتال من أن تقف موقفاً من أسوأ ماتتصور . ولو أردت أن تحاكمهم، فاذن تضطر الحكومة الى القبض عليهم ، ولكن لا يخفى عليك أن الاوروبيين سوف يحتاجون لهذا العمل وسوف يكون سبباً فى قيام عاصفة من النقد الرير لا يمكن لاية حكومة أن تواجهها. ولكنك اذا كنت قد صممت نهائياً على أن لا تحاكمهم ، فعليك اذن أن تكتب لى مذكرة تفيد ذلك . على انى لا أستطيع أن أدافع عن حكومتى بأن أرسل الى مستر تشامبرلين ملخصاً عن حديثك هذا . فانى سوف أبرق له ملخصاً من مذكرتك التى سوف تكتبها . على أنى لا أطلب منك أن تكتب لى هذه المذكرة الآن ، فالأوفق أن تستشير أصدقاءك . وخذ رأى مستر لوتون . واذا رأيت انك بعد استشارتك هذه لاتزال مصمماً على ما ترى الآن، فاكتب الى . ولكن يجب أن تبين فى مذكرتك بجلاء بأنك ترفض تحت مسؤوليتك الشخصية أن تحاكم الذين هاجوك . فى هذه الحالة فقط أستطيع أن انتفع بما تكتب » .

فقلت له - «لم يكن عندى أية فكرة فى أنك أرسلت الى لتخاطبني

فى هذا الشأن . ولم أستشر أى انسان فى هذا الموضوع ، ولا أريد أن
أستشير أى شخص الآن . فانى لما صممت على أن أبارح الباخرة وأسير
مع مستر لوتون ، كنت قد هiyأت نفسى على أن لا أحزن أو أمتعض
إذا نالى أذى . فاعتبر اذن أن محاكمة الذين آذونى أمر خارج عن
موضوع المناقشة . ان هذا عقيدة دينية ثابتة فى نفسى . »

وبعد أن فهت بهذه الكلمات تناولت ورقة بيضاء وكتبت له
ما أراد وسلمتها اليه .



الفصل التاسع

حرب البوير

لما قامت حرب البوير في سنة ١٨٩٩ واجه الهنود في جنوب افريقية حالة دقيقة، بل مشكلة نشأت عن التساؤل في الجانب العمل الذي يقومون به ازاء الحرب . أما البويريون فقد اشتبك كل الذكور منهم في الحرب وحملوا السلاح . فترك المحامون مكاتبهم والمزاعون حقولهم والتجار متاجرهم والخدم وظائفهم - أما الانجليز فلم يشترك رجالهم في الحرب بالنسبة التي اشترك بها رجال البوير . غير أن عدداً كبيراً من غير رجال الحرب في مستعمرة الكاب والناثال ورودريشيا تقدموا متطوعين لخوض عمار الحرب . وتبعهم في ذلك كثير من المحامين ذوى المكانة والتجار ذوى الأموال والسمعة الحسنة . وكانت احدى التهم الموجهة إلى الهنود أنهم لم يهبطوا جنوب افريقية إلا ليلتروا الأموال وانهم عبء ثقيل وكمية ميتة يحملها الانجليز على أكتافهم . بل شبهوا بالديدان التي تعيش في جوف الخشب لتأكل منه اللباب، وانهم لا يعنون من مصالح جنوب افريقية بشيء الا تعمير جيوبهم . بل انهم لا يقومون بآية تضحية حتى ولو غزيت البلاد أو هوجمت منازلهم وانتهكت حرمانها . وفي هذه

الحالة لاتصبح مهمة الالجابز فاصرة على الدفاع عن أنفسهم ، بل يتلو ذلك أنهم يضطرون الى حماة المهود . ولقد بدأنا نفكر في هذه الاعترارات ، وشعرنا جميعاً بأن هذه فرصة ساححة يمكننا أن نرهن فيها أن هذه التهم للأساس لها ، ولكن انتهينا من التفكير في الأمر بالنتائج الآتية :

« ان الانجليز يستندون بنا ويضطهدونا بقدر ما فعل البوير . واذا كنا نتعرض الى صعاب ومتاعب في الترنسفال ، فان حالنا في الناتال ليس بأقل منها في تلك ، أوفى مستعمرة الكاب ، صعوبة وقسوة . والفرق ، ان كان هنالك فرق ، فانه بتناول الدرجة ، ولا يتناول الصفة . وفضلا عن هذا فاننا لسنا بأكثر من حالية من الارفاء . وبما اننا نعرف ان البوير ، وهى أمة صغيرة ، اما تحارب دفاعا عن حريتها ، فلماذا نشترك في حرب تعجل بدمارها ؟ ووقوف كل هذا لا يمكن لأحد أن يتكهن بأن البوير سوف يهزمون . وانا انتصروا فلاشك في انهم سوف ينتقمون » وكان من بين المهود جماعة قوية تؤيد هذه النظرية بحجارة . وكنت أفهمها جيداً وأزنها الوزن الكافى . ولكن مع ذلك لم اقتنع فرفضت الأخذ بها وأنتت للجلالية رأى كالآتى :

« ان وجودنا في جنوب افريقية يتوقف على أننا من رعايا بريطانيا . ولما ونيانا نعمل تحت هذا العنوان في كثير من الظروف لنحقق هذا الأمر عملياً . وكنا نفخر دائماً برعويتنا البريطانية ، وألقينا في روع رجال الحكومة ، كما أقنعنا انفسنا ، بأن من دواعى الاعتباط ان نشعر

بهذه المفخرة . وان قليلا من الامتيازات التي تتمتع بها انما تتمتع بها تحت عنوان اننا بريطانيون . وانه لمن أنكى مايصيب كرامتنا باعتبارنا أمة ، ان نقف مكتوف الأيدي ننظر بجمود الى الخطر الداهم يواجه الانجليز ويواجهنا معهم ، لأنهم سيئون معاملتنا . وهذا الموقف السلبي الاجرامى ، من شأنه أن يضاعف متاعبنا . فادا فاتتنا هذه الفرصة التي جاءتنا عرضاً ، لنبرهن من طريقها على فساد التهم التي نعتقد نحن انها غير صحيحة ولا أساس لها ، فاننا انما نقف بذلك موقف من يقدم نفسه للآتهام وييده وثيقة الاناث . ولا عجب بعد هذا اذا أمعن الانجليز في اساءتنا وفي النظر اليها نظر الاحتقار والامتهان أكثر مما يفعلون . اننا لاشك نكون مخطئين . أما قولنا بأن التهم التي توجه اليها لا أساس لها وفاسدة لدى الواقع وانها لم يقم عليها برهان واحد ، فليس له من معنى الا اننا نخدع أنفسنا . قد يكون في القول بأننا في الامبراطورية لا نزيد عن اننا عبيد أرقاء قوة ، غير اننا عملنا حتى الآن على أن نحسن مركزنا ، وطللنا عاملين لهذا ونحن في حضن الامبراطورية . ولقد كانت هذه سياسة زعمائنا في الهند دائماً ، كما هي سياستنا . أما اذا رغبتنا رغبة حقيقية في أن ننال حريتنا وأن تتمتع بتحسين أحوالنا ونزيد رفاهتنا كأعضاء في الامبراطورية ، فهاهي أمامنا الفرصة الذهبية نتهازها بأن نساعد الانجليز في الحرب بكل الوسائل التي تصل يدنا اليها . وعلى الرغم من أنه يجب

علينا أن ندعن الى الاعتقاد بحقيقة أن العدل يؤيد البوير ، فان بجانب هذا يجب أن نفكر في أنه ليس من حق كل فرد يتمتع برعوية دولته ان يفرض عليها الأخذ برأيه في كل الحالات . ان السلطات لا يمكن أن تكون دائماً على صواب ، ولكن مادام أن الرعايا يدينون بالطاعة لحكوماتهم ، فان واجبهم على وجه عام بقضى عليهم بأن يعاونوا الحكومة بأنفسهم ، وان يدعنوا لوجهة نظرها .

«ووضلاً عن هذا كله فاني أرى انه اذا رأت طائفة من الرعية ان عمل حكومتها لا يتفق وآداب الدين ، فهناك يجب عليهم ، قبل أن يتقدموا بمساعدتها أو معاندتها، ان يحاولوا اقناع رجال الحكم بالاقلاع عن خطتهم ولو تعرضت حياتهم للخطر. على اننا لم نقم بعمل كهذا. بيد اننا لا نشعر بمثل هذا الجرح النفسى في الحالة القائمة الآن ، وليس لأحد منا أن يقول اننا انما نرغب في الاعتماد عن الاشتراك في هذه الحرب لئلا هذا السبب الاجماعى . فواجبنا الطبيعى باعتبارنا أعضاء في الامبراطورية ، ان لا نناقش في احتمالات الحرب وتقديراتها ، بعد أن نشدت الحرب فعلاً ، بل ان نشترك فيها ونساعد بقدر مايصل جهدنا. واذا فرضنا أخيراً انه في حالة انتصار البوير - وانتصار البوير في حدود الاحتمال الآن - تكون حالتنا في النهاية اسوأ منها في الابتداء ، وان البوير سوف ينزلون بنا اقصى الانتقام، ونكون بهذا قد ظلمنا البوير الشجعان وظلمنا أنفسنا. واني لأرى أن التفكير في مثل هذا ضياع ، ولا يكون له من معنى الا التعبير عن

خنوثتنا وضعفنا واتهاماً لولائنا . وهل يفكر انجليزى واحد الآن فيما
يحتمل أن يحدث فيما لو خسرت إنجلترا الحرب ؟ وان رجلاً على وشك
الاشتباك فى حرب دامية ، لا يمكن ان يفكر فى مثل هذه الوجوه ،
إلا ويكون خائفاً لرجولته . »

ولقد قبل الكثيرون وجهة نظرى غير أن المسألة العملية بدأت
تواجهنا . فمن ذا الذى سوف يلقى بسمعه لصوت الهنود الضعفاء فى
وسط هذه الجلبة الدامية التى تبعثها هذه الحرب الشعواء ؟ ولم يكن أحد
منا قد استعمل من قبل سلاحاً من أسلحة الحرب . وحتى الأعمال التى
يمكن أن يقوم بها غير المحاربين تحتاج إلى مرانة وتدريب . وليس منا
من يعرف كيف يسير بنظام حربى . كما أنه ليس من السهل الهين أن
يمشى الانسان مسافات بعيدة واحماله على ظهره . وقد يعاملنا البيض
باعتبارنا « اجراء » - Goolies - أو يسبوننا أو ينظرون الينا نظرة
احتقار . فكيف يمكن احتمال هذا كله ؟ وإذا تطوعنا للخدمة ، فما هى
الطريقة التى تقنع بها الحكومة على أن تقبل منا هذا العرض ؟ وبعد
نقاش انتهينا إلى رأى الأخير . ومحصله اننا إذا كانت لدينا الارادة ،
فان الله سوف يهبنا القدرة على أن نخدم فى الحرب ، وإنه لا يلزمنا أن
نعنت أنفسنا بالتفكير فى كيفية القيام بما يعهد إلينا من الأعمال ، بل
يجب علينا أن ندرّب أنفسنا على القيام به إلى الغاية التى تصل إليها
استطاعتنا ، واننا مادما قد صممنا على أن نخدم فى الحرب ، فالواجب

أن نمسك عن النظر في تفضيل أى من الأعمال التى يعهد إلينا بها ،
وأن نفضى حتى عن السباب إذا وجه إلينا .

ولقد واجهتنا صعوبات شديدة فى سبيل أن يقبل طلبنا من جانب
الحكومة . وقصتنا فى هذه الناحية طلية مسلية ، ولكن ليس هنا
موضع سردها . ويكفى أن أشير هنا إلى أن زعماءنا تدربوا على العناية
بالجرحى وتمريض المرضى ، وحصلوا على شهادات طبية بصلاحياتهم
للعمل وأرسلوا خطابا للحكومة بذلك . ولقد أحدث هذا الخطاب كما
أحدثت رغبتنا الأكيدة فى خدمة أغراض الحرب فى أية ناحية تريد
الحكومة أن توجهنا فيها ، أثراً عميقاً . فشكرتنا الحكومة فى خطاب
رسمى ، ولكنها رفضت ما عرضنا عليها مبقية على ذلك إلى حين . غير
أن البوير قد استمروا فى تقديمهم كما لو كانوا سيلا محتاحا ، وخيف أن
يلغوا دروبان . وتكدر الجرحى والقتلى فى كل مكان . وكنا نجد
ملتسنا حيناً بعد حين ، وفى النهاية سمحت الحكومة أن نكون مسمى
فيما بعد « فرقة الأسعاف الهندية » . وكنا أبدينا رغبتنا فى أن نقوم
بعمل النظافة فى المستشفيات ونعمرها بالكس ونقل الأوساخ . فلا
عجب أن يكون تكوين فرقة اسعاف منا فكرة تقابل بكل ارتياح .
واقترحنا أن ينضم إلينا الهنود الأجراء ذوى العقود . ولما كانت
الحكومة فى احتياج اذ ذاك الى أكبر عدد ممكن من الرجال ، اتصل
رجالها بالذين لديهم أجراء من ذوى العقود ، كى يسمحوا لرجالهم

بالتطوع . وبذلك استطعنا أن نكون فرقة للأسعاف عظيمة القدر مكونة من ١١٠٠ هندي غادرت دوربان الى خطوط النار . ولما عزمنا على المسير تلقينا من مستر اسكومب - الذى يعرفه القارىء من قبل - رسالة يبلغنا فيها تحياته وتبريكاته ، وكان اذ ذاك رئيس المتطوعين الأورويين فى ناتال .

وكان عملنا هذا مادة متجددة تغذى جرائد جنوبى افريقية، بل كان رسالة جذبة من الهنود لأهل تلك البلاد ، لأنه لم يكن يتوقع أحد أن الهنود سوف يشتركون فى هذه الحرب بأى عمل مهمما كان نوعه . وكنا فى البدء قد تلقينا دروسنا الأولية فى الأسعاف الوقتى على الدكتور « بوذ » فرافقنا الى الميدان باعتباره مراقباً صحياً . وكان من رجال الدين الأتقياء، وعلى الرغم من أن عمله كان قاصراً على الاختلاط بالمسيحيين من الهنود، فإنه أخذ يخالط الهنود جميعاً من كل نحلة ودين . وكان فى الميدان فرقة اسعاف أوربية بجانب الفرقة الهندية ، وعمل كلاهما معاً فى مكان واحد .

وسرعان ما تراكمت علينا الأعمال ، وكانت أعمالاً أشق مما تصورنا . فان حمل الجرحى من الميدان سبعة أو ثمانية أميال كان جزءاً من عملنا اليومى . وكان يحدث فى بعض الأحيان أن نضطر الى حمل جنود وضباط بالغة جراحهم ، مسافات بعيدة قد تبلغ بعض الأحيان خمساً وعشرين ميلاً . وقد نبدأ بالمسير الساعة الثامنة صباحاً ، ونعنى

خلال الطريق باعطاء الجرحى جرعات من العقاقير ، ونواصل المسير فلا نصل الى المستشفى الا في حدود الخامسة مساء . فلا شك اذن في أن العمل كان شاقاً مضنياً . وحدث مرة أن اضطررنا أن نحمل جرحى على أكتافنا وسير بهم حمساً وعشرين ميلاً في يوم واحد . أضف الى ذلك أن الجيش البريطانى أصيب بفشل تلو فشل في بداءة الحرب ، وجرح منه الكثيرون . ولهذا كان من رأي الضباط أنه من الضروري أن يقلعوا عن فكرة عدم دخولنا إلى خطوط النار . ولكن يجب أن أقر هنا أنه عندما قامت مثل هذه الضرورة ، أخبرنا أن عقود التطوع تنص على أن نكون في حى من مثل هذا الخطر ، فلم يكن لدى الجنرال « بولر » - Buller - فكرة أن يجبرنا على أن نعمل في خطوط النار ما لم نكن على استعداد لأن نقبل العمل في مثل هذا المأزق باختيارنا ، واذ ذاك يكون قبولنا أمراً يقابل بمنتهى الشكران والحمد . وكنا جميعاً في توق لأن ندخل منطقة الخطر ، ولم نرغب في أن نعمل خارجها منذ بدء عملنا . ولهذا سررنا بالفرصة السانحة . ولحسن الحظ لم يصب أحدنا بجرح سواء أمن الرصاص أم من أى شىء آخر . وعلى الرغم من أن فرقنا كثيراً ما كانت تتصل باعضاء فرق الاسعاف المؤقتة المكونة من الأوربيين أو تحتك بالجنود الاوربية ، فلم يشعر واحد منا أن الاوربيين أساءوا معاملته أو تصرفوا معه بشىء من الشذوذ . وكانت فرق الاسعاف المؤقتة مكونة من الأوربيين المقيمين في جنوبى افريقية ، وكلهم من الذين

أخذوا بضلع في الدعوة التي قامت ضد الهنود قبل الحرب . فلما عرفوا أن الهنود بسوا هذه الاساءات ، وانهم هبوا للعمل الى جانبهم في وقت الحاجة ، شعروا من أعماق قلوبهم بالعطف والمحبة . ولقد نوه الجنرال « بولر » بأعمالنا في بلاعاته ، ونال السبعة والثلاثون رئيساً الذين كانوا يقودون الفرق مداليات حرية اعترافا بفضلهم .

ولما تمت أعمال الجنرال « بولر » في انقاذ بلدة « لادى سميت » حلت فرقنا كما حلت الفرق الأوروبية . ولقد استمرت الحرب طويلا بعد ذلك . وظللنا على استعداد لأن نشترك فيها ، حتى لقد ذكر في أمر تسريح الفرق ان الحكومة لا تني عن دعوتنا للعمل إذا وقع ما يستدعي القيام بأعمال واسعة النطاق .

وأرى من الواجب أن أذكر حادثة دات شأن في هذا الوطن . فقد كان في « لادى سميت » عندما حصرها البوير وهددوها عدد قليل من الهنود ، فضلا عن كان مها من الأوروبيين . وكان بعضهم يتعاطى التجارة ، بينما كان الآخرون من الأجراء ذوى العقود يعملون في مد السكك الحديدية أو كخدم لبعض الانجليز . ومن بينهم من يدعى « باربوسنع » وكان يكنى دائما بالأجر - Coolie - وبالتقرب من بلدة « لادى سميت » وضع البوير على تل مدفعا من مدافع الميدان ، هدد المدينة بالدمار ، واستطاع أن يهدم بعض المباني ويذهب ببعض الأرواح . وكان لابد من أن تمر دقيقة أو دقيقتان قبل أن تصل كرة هذا المدفع إلى هدف

سددت اليه . فاذا أمكن أن ينذر السكان بان المدفع أطلق قبل أن تصل كرتة إلى حيث سددت ، أمكن للآهلين أن يحتموا ، وبذلك يدرءون عن أنفسهم الخطر . فكان « باربوسنغ » يجثم على شجرة قريبة من البلدة طيلة الوقت الذي كان يستعمل فيه المدفع لتهديدها ، وعيناه تنظران إلى التل ، ويقرع جرساً في اللحظة التي يلمح فيها نار المدفع . فاذا سمع السكان الجرس احتموا حالا ونجوا بأنفسهم من كرة المدفع التي ينذرهم « الأجير » بأنها أطلقت لتحصد أرواحهم .

ولقد نوه الضابط الذي كان معه هودا اليه أمر الدفاع عن « لادى سميث » بأعمال « باربوسنغ » فقال انه كان يقوم بعمله بكل نشاط وحماسة ، حتى انه لم يخطئ مرة في أن يقرع الناقوس كلما أطلق المدفع . ولا حاجة بي الى القول بأن حياته كانت دائماً في خطر طيلة عمله هذا .

الفصل العاشر

الطاعون الأسود

فى « جوها نسبرج » ، حيث أقيمت بعد أن وضعت حرب البوير أوزارها ، أخذت أعمالى القضائية تزداد وتضاعف . وذات مرة كان عندى أربعة كتبة من الهنود ، ليس من الصعب على أن أقول انهم كانوا أقرب لأن اعتبرهم كأولادى منهم ككتبة مأجورين . ومع هذا فانهم لم يكفوا للقيام بالعمل .

وبلغ بى الجهد منتهاه . فترا كمت على الأعمال ، حتى خيل الى انه من الصعب على مهيا جهدت نفسى ، ان أقوم بأعمال مهنتى وأعمالى العامة . وشعرت انى أميل الى استخدام كاتب أوروبى . ولكنى لم أكن على ثقة بأن أجد رجلا أو امرأة أوروبية تخدم رجلا من ذوى الألوان مثلى . غير إنى صممت على أن ابحث . فاتصلت برجل مهنته أن يقدم الكاتبين على الآلة الكاتبة لمن يطلب أحداً منهم . وكنت أعرفه من قبل ، وسألته أن يبحث لى عن كاتب يعرف الاختزال اذا كان ذلك فى مستطاعه . وكان لديه عدد منهم ووعدنى بأنه يجتهد فى أن يجعل أحدهم يقبل العمل معى . ووقع على فتاة إيقوسيه تدعى مس «دك» - Miss Dick كانت قد وصلت من إيقوسيا فى تلك الآونة . ولم تكن تأنف من أن

تحصل على عيشها بطريق شريف ايما وجد العمل ، وكانت في حاجة فأرسلها المتعهد الى وبأسرع مما كنت اتصور استطاعت أن تملكني
- « انك لاتأنفين من أن تخدمى رجلا هنداً . »

فأجابتنى بحزم « أبداً »

- « ماذا تطلين أجرا على عملك . »

- « هل تظن ان سبعة عشر جنيهاً ونصفاً يكون مرتباً كبيراً جداً ؟ »

- « لا أعتبر انه كبير جداً اذا كنت تستطيعين أن تؤدى ما أطلب

من الأعمال . ومتى تبدئين ؟ »

- « الآن اذا أردت . »

فسررت من أجوتها ، وبدأت املى عليها خطابات . وفل ان يمضى زمن طويل بدأت أشعر بأها أصبحت فى منزلة ائنة أو أخت لى أكثر من كاتبة . وقلما كنت اجد أى خطأ يستحق الملاحظة على عملها معى . وكنت أعهد إليها عالماً بمراقبة الحسابات وكانت تبلغ بصعة آلاف من الجنيهات ، كما جعلتها أمينة على دفاتر الحساب . ولقد نالت ثقتى التامة ، وزادت العلاقة بأن جعات تطلعنى على أفكارها وميولها . واستشارتنى فى مسألة اختيار زوج لها ، فأخليت سبيلها مغتبطاً لتزوج . وبمجرد ان أصبحت مس « دك » مسر « مكدونالد » تركت العمل معى . ولكن كثيراً ما كانت تلبى كل ما أطلب منها اذا اضطررتنى الظروف أن ألأ اليها .

وكانت لدى ضرورة في أن نحل محلها كاتبة أخرى ، وساعدنى الحظ في أن أجد فتاة أخرى تدعى مس «سلسين» - Miss Schelsin - قدمها إلى مستر «كلنباخ» . وهى الآن رئيسة مدرسة البنات فى الترانسفال ولم تكن تتجاوز السابعة عشرة عندما قدمت إلى . على أن بعض ميولها ونزعاتها كانت أكثر مما يمكن أن احتمله أو يحتمله مستر «كلنباخ» . وقد أخذت تعمل لتتعلم أكثر مما تؤدي عملاً . غير أنها لم تكن مصانة بمرض اللون . ولم تكن لتقيم أى اعتبار لا للسن ولا لتجارب الحياة . فأنها لا تتأخر عن أن تهين أى رجل وأن تصارحه برأيها فيه . وكثيراً ما كانت توقعنى بتهورها واندفاعها فى مآزق حرجة ، ولكن كان فى مزاجها من الصدق والاحلاص ما يكفى لأن نذهب بكل أثر قد يخلقه تصرفها .

وكانت تضعيتها كبيرة . فقد طلت زمناً طويلاً لا تتناول أكثر من ستة جنيهات كل شهر ، ورفضت أن تأخذ أكثر من عشرة جنيهات . ولما أردت أن أحملها على أن تأخذ أزيد من هذا المبلغ كانت تردنى دائماً قائلة - «انى لم أوجد هنا لآخذ مرتباً منك . انى انما أعمل معك لأننى أحب أن أعمل معك وأحب مثلك السامية لا أكثر» . وكانت شجاعته لا تقل عن تضعيتها . أنها من النساء القلائل اللاتى عرفتهن فمرفت فيهن خلقاً أنقى من البلور وشجاعة تتضاءل بجانبها شجاعة الفرسان . ولقد أصبحت الآن امرأة متقدمة فى السن . ولست أعرف

من أفكارها الآن بقدر ما كانت تعمل معي ، ولكني لا أتوانى عن القول بأن صلتى بهذه السيدة ستظل من الذكريات المقدسة عندي . ولهذا أعتقد انى انما أكون خائناً للحق اذا أنا حاولت أن أحنى شيئاً مما أعرف عنها . لم تكن تفرق بين الليل والنهار فى العمل للغرض الذى أخدمه . كانت تخاطر بالخروج فى جنح الظلام لتأدية بعض الخدمات وحيدة وترفض بغضب أن يخرج معها أحد لحراستها . وتطلع اليها ألوف من الهنود الاشداء والشجعان يستوحونها النصيح والهداية . وفى أثناء القيام بحركة « الستيا جراها » Satyagraha سجن جميع الزعماء على وحه التقريب فقادت هى الحركة عمفردها ومن غير معين . فكانت تقود الألوف وترد على عدد عظيم من المراسلات وتقوم بشؤون جريدة « الرأى الهندى » - Indian Opinion - وتحمل كل هذا على أكتافها من غير أن تشكو نصباً أو تشعر بملل .

وكان « جو كمال » - أحد زعماء الهند - يعرف كل الذين يتصلون بى فى العمل ويشاركوننى فيه . ولقد امتدح الكثيرين منهم وقدر أعمالهم . ولكنه أعطى المقام الاول لمس « شلسين » وفضلها على كل الذين كانوا يعملون معى من أوروبيين وهنود . فقال لى « قلما وقعت على مثل التضحية أو الشجاعة أو الزهد الذى رأيت فى مس « شلسين »

انها تستحق المقام الأول بين كل الذين يعملون معك » .

وفى ذلك الوقت تقدم إلى السيد « مدنجيت » بفكرة إصدار

« الرأى الهندى » وأراد أن أشير عليه فى الأمر . وكانت فى يده مطبعة يديرها فوافقت على مقترحه ، وصدرت الجريدة فى سنة ١٩٠٤ وعلى رئاسة تحريرها السيد « منشو خلال نازار » . ولكن كان على أن أحمل عبء العمل كله ، لأنى كنت أغلب الاحيان أقدم بحمل المسؤولية عن كل ما يتعلق بالجريدة . ولم يكن هذا لأن السيد « منشو خلال » لم يكن قادراً على القيام بعبئها ، فانه كان يقوم بعمل صحى واسع النطاق فى الهند ، بل لأنه لم يكن يتقدم للكتابة فى المسائل المتعلقة بجنوب افريقية مادمت موجوداً . وكان له الثقة التامة بقدرتى على الحكم فى الأشياء ، ولذلك أتقى على كاهلى عبء القيام بتحرير الجزء الصادر من قلم التحرير ومباشرته .

و بعد أن مصت كل هذه الأعوام على صدور هذه الجريدة أستطيع أن أحكم على أنها خدمت الجالية الهندية فى جنوب افريقية أجل خدمة . فاننا لم نفكر مطلقاً فى أن نجعل هذه الجريدة عملاً تجارياً . وفى خلال المدة التى ظلت هذه الجريدة تحت اشرافى ، لم يصبها من تغير فى الاتجاه الا وكان سببه تغير عميق يصيبنى فى حياتى . فالرأى الهندى وجريدة الهند الفتاة ونافاجيفان Navajivan وهى الجريدة الاسبوعية الكجراتية التى أصدرها ، كلها بمثابة مرآة ينعكس عليها جزء من حياتى . فكنت أفرغ فى أعمدة هذه الجريدة اسبوعاً بعد آخر عصارة ذهنى وخلاصة روحتى ، وأخذت أفسر مبادئ « الستيا جراها » وعملياتها . ففى خلال

عشرة أعوام ، أى من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩١٤ ، ماعدا العطلة
الاجبارية التى كنت أقضيها فى السجن ، لم يصدر عدد منها من غير
أن يكون لى فيه مقالة الا فى النادر القليل . ولا أذكر انى خطت كلمة
واحدة فى هذه المقالات قبل ان اقتلها بحثاً وتمحيصاً ، أو كلمة حاولت
فيها أن أبالع مختاراً ، أو أى شىء قصدت منه مجرد ارضاء الناس . وبالحق
ان اصدار هذه الحريدة كان لى عمتابة تدريب علمنى كيف أضبط نفسى ،
كما كان لاصدقائى بيئة حسنة يتصلون من طريقها بأفكارى . وكان
المنتقدون قلما يقعون على شىء يستحق أن يوجه النقد اليه . وفى الواقع
اعلم أن النعمة التى كنت احرر بها مقالاتى فى « الراى الهندى » كانت
تضطر النقاد الى أن ياجموا أقلامهم . ولا شك فى أن القيام بحركة
« الستيا جراها » كانت مستحيلة بدون هذه الصحيفة . أما بالنسبة
الى فقد أصبحت مدرسة أدرس فيها الطبع الشرى فى كل حالاته وعلى
مختلف ألوانه . ولما كان همى أن احدث رابطة نقية صافية بين المحرر
وقرائه ، غمرنى سيل من المراسلات اعتاد كاتبوها أن يصارحونى بما
فى قلوبهم . فكان بعضها أخوياً مستجماً وبعضها انتقادياً أو هجومياً على
مقتضى مزاج الذين يكتبونها . فكانت هذه المراسلات مدرسة واسعة
أقرأ فيها ما يصلنى منها وأهضمه هضم كافياً ثم أجيب عليه . حتى لقد
خيل الى أن الجالية كانت تشعر أن سن واجبها أن تكاتبنى . وهنا
أدركت قيمة المسؤولية التى تلقى على كاهل الصحفي ، كما كانت السلطة

التي أصبحت لى على الجالية من طريق هذه الصحيفة، سبباً فى أن تكلل
حملى المقبلة بالنجاح وأن تصبح محترمة الحانب قوية لا تقاوم .

عند ما بدأت باصدار هذه الجريدة ، وفى أول شهر من عمرها ،
استبنت بجلاء أن أول واجب الصحافة ينحصر فى الخدمة العامة . فان
الصحافة قوة عظيمة . وكما ان السيل الجارف الذى لا يصدده عن جريانه
شىء ، قد نغرق البلاد ويذهب بالحرث والنسل ، كذلك يكون شأن القلم
الحامح فانه لن يخلف إلا دماراً . أما اذا كان الساطان الذى يحكم القلم مستمدا
من عوامل حارجية ، فان الأثر يكون أشد تسميماً للافكار وأمعن تهديماً
من الحاجة الى الهوادة والريث . ولن يكون للقلم من أثر تجنى فوائده ،
إلا اذا كان الساطان الذى يحكمه مستمداً من ضمير الكاتب ووجدانه .

كتب على بعض الطوائف التى تؤدى إلينا أعظم الخدمات وأجلها ،
وهم الذين اخترنا نحن اليهود أن ندعوهم أنجاساً أو منبوذين ، ان
يعزلوا فى أماكن بعيدة عن جنبات المدائن والقرى . وكذلك كان الحال
فى أوربا النصرانية ، فقد مر على اليهود عصر كانوا فيه أنجاس أوربا ،
حتى لقد أغلق على الاحياء التى كانوا يسكنونها اسم بغيص ممقوت -
Shetto - وعلى نفس هذه القاعدة أصبحنا أنجاس جنوب افريقية .

كان قداماء اليهود يعتقدون انهم شعب الله المختار ، ويخرجون عن
هذا الاختيار كل الشعوب والأمم الأخرى . فكانت النتيجة أن تقع
على اخلافهم لعنة شديدة وعقاب مخيف تلقاء خيلائهم . وكذلك حدث

مع الهنود فانهم كانوا يعتبرون أنفسهم «آرياس» - Aryas - متمدين ، مع اعتبار جزء من ابناء عمومتهن ومن يمتون اليهم بصلة الدم ، انجاساً منبوذين ، فكانت النتيجة أن يحل بهم انتقام الهى لا ينال الهنود النازلين بجنوبى افريقية وحدهم بل يحل بالمسلمين والبارسين ومعهم أولئك الذين نبذوهم وسموهم أنجاساً من أهل وطنهم ومن لهم جلود لا تختلف فى اللون عن جلودهم .

فى جنوبى افريقية أطلق علينا ذلك الاسم البغوض المهن «أجراء» Coolies - وهذه الكلمة فى الهند تدل على « الحمال » ، ولكنها فى جنوبى افريقية تدل على معنى حقير دنس ، وتنقل الى ذهن الأوروبي نفس المعنى الذى ينقله اسم الأنجاس فى الهند ، حتى لقد سميت الأحياء التى خصصت للأجراء باسم « حظائر الأجراء » . وكان فى جوهانسبرج حظيرة من هذه الحظائر . فكان الهنود يكسسون فيها تكديساً ، لأن الحظيرة لم تكن لتتسع فى المساحة بنسبة ازدياد ساكنيها . وفضلاً عن أن البلدية لم تكن لتعنى بتنظيف المراحيض الا اتفاقاً ، فانها أهملت أن تتخذ أى اجراء صحى ، فضلاً عن ترك الطرق وسخة غير معبدة ولا منارة . وكانت بعيدة عن أن تفكر فى صحة الذين يحلون بهذه الحظائر . والهنود الذين يعيشون فيها ، كانوا على جهل تام بالقواعد الصحية ، ولم يكونوا يقوموا بشئ من هذا القبيل مالم ترشداهم البلدية اليه . ان ذلك الترك الاجرامى الذى تعمدته البلدية ، وجهل النزلاء الهنود ،

تضافرا على أن يجعلوا من هذه الخطائر موثلا للأمراض . فالبلدية على أنها كانت بعيدة عن أن تعمل أى عمل من شأنه أن يحسن الحالة ، مع أن هذا كان من واجبيها ، اتخذت هذه الحالة التى نشأت عن إهمالها بالذات ذريعة لأن تأمر بهدم المحلة التى يسكنها الأجراء ، واستصدرت أمراً بزع ملكيتها من الذين يملكونها .

وبما كان الهنود مذعورين فزعين من هذه الحال تفشى وباء الطاعون الأسود ، ويدعى الطاعون النيوموى أى الرئوى ، وهو أذكى وأشد وطأة من الطاعون الدملى . ومن حسن الحظ أن محلة الهنود لم تكن مصدر الوباء ، بل ان الوباء تفشى فى منجم من مناجم الذهب بالقرب من جوها سرج . وكان أكثر العمال فى هذا المنجم من العبيد ، الذين لم يكن ليسأل عن نظافتهم وصحتهم إلا مؤاجروهم من البيض . وكان من بين العمال الذين يعملون هناك عدد قليل من الهنود ، أصيب ثلاثة وعشرون منهم بهذا الوباء ، وعادوا دات ليلة الى حظائرهم يحملون معهم جراثيم هذا المرض الخبيث . واتفق أنه كان هناك السيد « مدنجيت » يسعى لاجتلاب مشتركين لجريدة « الرأى الهندى » . وكان رجلا لا يعرف الخوف طريقاً إلى قلبه . فتأثر كل التأثر من مرأى هؤلاء الفرائس يقتلهم المرض ويقصر آجالهم الوباء ، فأرسل إلى مذكرة كتبها بالقلم الرصاص فيها ما يلى :

« حدث وباء فجائى بالطاعون الأسود . والواجب عليك أن تحضر
توّاً لتتخذ الاجراءات الضرورية ، والا فاننا لابد من أن نحتمل المسؤولية.
أرجوك أن تحضر بسرعة » .

وكان السيد « مدبحيت » قد اقتحم باب منزل خال ووضع فيه كل
المصابين . فركبت دراجتى الى المحلة مسرعاً وأرسلت مذكرة الى كاتب
المدينة أخطره بالحالة . وأسرع الدكتور « وليم جدفرى » الذى كان
يزاول مهنته فى جوها نسبرج الى النجدة بمجرد أن علم بهذه الأخبار ،
وأخذ يقوم بمهمة الطبيب والممرض معاً للمصابين . ويقينى الذى يقوم
على تجاربي أن قلب الاسان ما دام طاهراً نقياً ، فان الكوارث تجر
معها الرجال والمعدات لمقاومتها . وكان فى مكتى أربعة من الهنود هم
كاليانداس ومنكلال واننان لا أذكر اسميهما . لقد جاء لى بكاليانداس
أبوه لأقوم على تهذيبه . وانى لأصرح بأنى فلما التقيت بهندى فى جنوبى
افريقية أطوع منه أو أكثر جاذبية . وكان لحسن الحظ غير متزوج
إذ ذاك ، ولذا لم أتوان فى أن أعهد اليه بمهمات يستدعى القيام بها أن
يجتاز المرء مآزق مهما كانت حرجة . أما منكلال فقد استخدمته فى
جوها نسبرج . وكان أيضاً غير متزوج على ما أستطيع أن أذكر .
وصممت على أن أضحى بأربعتهم . ولك أن تسميهم بما شئت ، فادعهم
كتبتى أو زملائى أو أولادى . ولم يكن بى من حاجة لأن أستشير
كاليانداس . فى حين أن الآخرين أظهروا استعدادهم التام للخدمة بمجرد

أن عرضت عليهم الأمر ، بل قالوا « حينما تذهب نذهب » ، فكان لجوابهم على اختصاره رنة حلوة لن أساها .

وكانت ليلة ليلاء . تلك الليلة الى قننا في حلالها بالتمريض مسهدين . وكنت قد فمت من قبل بتمريض كثير من المرضى ، ولكن لم أمرض مصاباً بالطاعون الأسود . ولكن اتضح لى أن جراءة الدكتور « جدفري » وجسارته ، معدية تطفئ على من حوله . ولم يكن هناك من حاجة للقيام بمهمات كثيرة . فان واجبنا المحصر فى أن يعطى المرضى جرعاتهم بنظام ، وأن يقوم بتلبية طلباتهم ، وأن نحفظهم وبفراشهم فى حالة نظافة تامة . ولقد اعتبطت كل الاعتباط بما رأيت فى فتاى من النشاط فى العمل وعدم الاكتراث بالمتاعب والبعد عن الخوف . وأما تقدير الشجاعة التى أداها دكتور « جدفري » ورجل محك مثل « مدنجيت » فما لا يقوى قامى على وصفه . وكما كانت الروح التى أبداها الفتان نبيلة سامية .

ولقد شكرنى كاتب البلدة على أنى استعملت البيت الخالى كمستشفى . واعترف لى فوق ذلك بأن مجلس البلدة لم يكن لديه المؤهلات التى يمكنه بها أن يقاوم مثل هذه المفاجأة ، ولكنه مستعد لأن يقوم بكل المساعدة التى فى قدرته . وكذلك كان شأن البلدية فانها لم تكدر تستيقظ وتشعر بمسؤوليتها ، حتى أخذت تعمل ما فى استطاعها بكل الوسائل الممكنة .

وفى اليوم التالى وضعت البلدية تحت تصرفى مظلة ، واقرحت أن ينقل الرصى اليها . ولكن البلدية لم تقم بتنظيفها . فامها كانت مهمة وغير نظيفة . فقمنا بتنظيفها ، وحصلنا على بعض الأسرة من محسنى الهنود ، ونسقنا مستشفى مؤقتا . وأرسلت الينا البلدية ممرضة، ولكن دكتور « جدفري » ظل يواصل العمل .

وكانت الممرضة سيدة رحيمة القلب ، فأخذت تعنى بالرصى عناية الممرضات العارفات بالواجب ، ولكننا منعناها عن أن تمسهم ، حتى لا تنتقل العدوى إليها .

ومات عشرون عندما كنا فى المظلة . وفى هذه الآونة كانت البلدية مشغولة فى اتخاذ اجراءات أخرى . وكانت هنالك مصحة للأمراض المعدية تبعد عن جوها نسبرج سبعة أميال تقريباً . فقل الثلاثة الباقون إلى خيام بالقرب منها ، وعملت الترتيبات اللازمة لإرسال الاصابات الجديدة اليها . وفى خلال بضعة أيام سمعنا أن الممرضة الرحيمة أصيبت بالمرض وقضت نحبها .

وكنت لما انتشر الوباء قد أرسلت إلى الحرائد مقالا ملتهباً . أتهم فيه البلدية بالاهمال وأحملها مسؤولية التغاضى عن القيام بواجبها نحو محلة الهنود بعد أن أصبحت من ممتلكاتها ، وأعزو اليها السبب فى انتشار الوباء . فكان من أثر هذا المقال أن انضم إلى مستر « هنرى بولاك » ، كما كان سبباً فى صداقتى بالمحترم « يوسف دوك » .

الفصل الحادى عشر

« حتى هذه النهاية »

قلت فى فصل سابق إنى اعتدت أن أتناول وجباتى فى مطعم نباتى .
وهناك التقيت بمستر « البرت وست » . وكنا نلتقى هنالك كل مساء
ثم نخرج للنزهة بعد العشاء . فقرأ مقالى فى الصحف عن تفشى
الطاعون ، ولما لم يجدنى فى المطعم ساورته الوسوس فى أمرى .

وكنت والمشتغلون معى قد أخذنا نخفف من أغذيتنا منذ أن تفشى
الوباء ، لأنى كنت من قبل قد اتبعت قاعدة التخفيف من الأغذية
عند انتشار الأوبئة . وكان هذا سبباً فى أن أمتنع عن تناول وجبة
المساء كلية . وكنت أعرف صاحب المطعم معرفة أكيدة ، فعرفته بأنى
أعنى بأمر المصايين بالطاعون ، ولذلك أرغب فى أن أتفادى الاتصال
بالمترددين على المطعم جهد المستطاع ، فأنتهى من وجبتى قبل أن يصل
غيرى إلى المكان .

ولما لم يجدنى فى المطعم يومين أو ثلاثة على التوالى ، زارنى مستر
« وست » فى منزلى ذات يوم فى الصباح الباكر ، وكنت آنهياً
للخروج للنزهة . ولما فتحت له الباب بادرنى بقوله - « لم أجذك فى المطعم

وخفت أن يكون قد أصابك مكروه . ففكرت في أن أحضر مند
الصاح لأكون على ثقة من أن أجذك في البيت . والآن تجدني تحت
أمرك . انى على استعداد أن أخدم المرمى . وأنت تعرف أنى ليس
ورائى من يحتاج إلىّ » .

فعبرت له عن شكرى وامتنانى ومن غير أن أفكر لحظة واحدة
أجبتة - « انى سوف لا أشغلك كممرض . واذا لم تقع اصابات أخرى،
فانا سوف نفرغ من عملنا فى التمريض بعد يوم أو اثنين . ولكن لدى
مع هذا أمر آخر » .

- « ما هو »

- « هل تستطيع أن تعنى بمطبعة « الرأى الهندى » فى دوربان ؟
- « انك تعلم أن عندى مطبعة . والراجح أنى سأذهب ، ولكن
هل تسمح أن أعطيك رأيى الأخير فى المساء ؟ فأبى الكلام فى هذا الأمر
إلى زهتنا فى الليل . »

فاغبتبت بهذا . وفى أثناء تريضنا فى المساء أخبرنى أنه عزم على
الذهاب . ولم يكن المرتب بأمر ذى بال عنده ، لأن المال لم يكن من
مغرياته . ولكن اتفقنا على أن يكون مرتبه عشرة جنيهات انجليزية
وجزءاً من الربح . وفى اليوم التالى سافر متر « وست » الى دوربان
مع بريد المساء . ومنذ ذلك الوقت حتى الساعة التى فارقت فيها شواطئ
جنوبى افريقية ظل مستر « وست » يشاطرنى الأفراح والآتراح .

كان مستر « وست » من أسرة مهنتها الزراعة في مدينة « لوث »
 - Louth - وكان تعليمه قاصراً على ما يمكن تحصيله من مدرسة عادية ،
 ولكن مدرسة التجارب علمته كثيراً ، كما استطاع أن يعلم نفسه بنفسه .
 ولقد عرفته وعرفت أنه كان دائماً رجلاً انجليزياً من ذلك الطابع النقي
 القلب الميزن الذي يخاف الله ويحب الانسانية .

وعلى الرغم من أنى والمستغلين معى قد أعفينا من عملنا في تريض
 المصايين بالوباء ، فقد كان أماننا كثير من الأعمال التى ترتت على
 تفشى الوباء ، تتطلب الانجاز . وكنت قد فرغت من مسألة اهمال البلدية
 للحى الهندى . ولكن البلدية لم تعن من الأمر بأكثر مما كان يهمها
 من صحة السكان الاوروبيين . فأخذت تنثر الأموال ثراً وتبدها
 تمديداً لتقاوم الطاعون . وعلى الرغم من الحوادث الاجرامية التى
 عدتها وألقت مسؤوليتها على البلدية من اهمال الهنود وانكار وجودهم
 كأحياء بشرية ، لم يسعنى إلا أن أشكر لها اهتمامها وجزعها على حماية
 أرواح الاوروبيين ، حتى انى لم أتوان عن أن أمد لها بدى بكل مساعدة
 ممكنة لتخفيف الحمل عنها فى مهمتها الشاقة . ولقد شعرت بأنى اذا
 أمسكت عن أن أمد يد المعاونة ، فان مهمة البلدية ستكون أكثر
 صعوبة مما لو عاونتها ، ولم تكن تتوانى من ناحيتها عن استعمال القوى
 المسلحة ، وتفعل أشنع ما يتصور من الحوادث . ولكن سلطات
 البلدية كانت مغتبطة بسلوك الهنود ، حتى ان كل الاعمال التى اتصلت

فيا بعد بمقاومة الطاعون قد سهلت وعبدت سبيلها . ولقد استعملت كل نفوذى لدى الهنود كي أجعلهم يخضعون لما تأمر به البلدية ويؤدون لها ما تحتاج اليه . وكان من الصعب على الهنود أن يذهبوا هذا المذهب حتى النهاية ، ولكنى أتذكر أنه لم يخالف واحد منهم بصيحة أبديتها .

ووضعت محلة الهنود تحت حراسة يقظة قوية ، حتى ان الدخول اليها والخروج منها كان مستحيلا بغير أمر خاص . غير أنى والمستغلين معى كان منا ترخيص حر يبيع لنا الدخول والخروج كيفما نشاء . وكان الغرض من هذا أن يغلى السكان هذه المحلة ويعيشوا فى خيام تضرب لهم فى سهل متسع يبعد عن جوها نسبرج ثلاثة عشر ميلا لمدة ثلاثة أسابيع ، ثم تحرق المحلة حتى تدمرها النار تدميراً . وكان ترتيب العيش فى الخيام ، وما يقتضى لذلك ، من حمل الزاد والحاجيات الأخرى يحتاج الى زمن ما ، وفى خلال هذا الزمن ، ضربت الحراسة على المحلة . ولكن الناس كانوا وجلين مشفقين . غير أن وجودى معهم كان يسليهم ويطمئنهم .

وأشعلت النيران فى المحلة بعد اخلائها مباشرة . ولهذا السبب وفى الوقت نفسه أحرقت البلدية كل الاخشاب التى كانت تملكها فى السوق ، وتحملت خسارة تبلغ عشرة آلاف من الجنيهات . أما السبب الذى حملها على حرق أخشابها ، فلا أنها اكتشفت بعض فئران ميتة بين

الأخشاب . وبهذا كان من الواجب أن تمضى البلدية فى تحمل نفقات باهظة ، ولكنّها بذلك نجحت فى التغلب على انتشار الطاعون وتنفست المدينة الصعداء مرة أخرى .

وكان الطاعون سبباً فى أن يعظم قدرى ويرتفع شأنى بين الهنود الفقراء ، وازداد عملى وتضاعفت واجباتى فازدادت مسؤولياتى . كما كانت اتصالاتى الحديدية بالأوروبيين وازديادها توثيقاً، سبباً فى أن تتكاثر التزاماتى الأدبية لتقاء الجميع .

وفى ذلك الوقت تعرفت بمستر « هيرى بولاك » فى نفس المطعم النبأى الذى تعرفت فيه بمستر « وست » . فذات ليلة أرسل إلى شاب كار يأكل على مائدة بعيدة عنى بطاقته، مبدئياً رغبته فى أن يقابلنى . فسألته أن يشاركنى الجلوس على مائدتى ، ففعل .

- « أنا سكرتير تحرير « الناقد » - Critic - ولما قرأت مقالك فى الصحف عن تفشى الطاعون شعرت برغبة ملحة فى أن أراك . وانى لسعيد بهذه الفرصة . »

ولقد ملكنى مستر « بولاك » منذ أول مقابلة اذ آست فيه الصراحة والاخلاص . ومنذ أول لقاء توثقت علاقتنا، وظهر أن آراءنا ومبادئنا تتفق فى كل المسائل الجوهرية . كان محباً للحياة البسيطة ، وفيه كفاية نادرة تمكنه من أن ينفذ كل الأشياء التى تلائم عقله ويخرجها إلى حيز العمل ، حتى ان بعض الانقلابات التى أحدثها فى حياته كانت

موقوتة وبنت ساعتها فضلا عن التطرف والمغالاة فيها .

وكانت « الرأى الهندى » تريد أعباؤها ونفقاتها المالية يوما بعد يوم .
وأول تقرير تسلمته من مستر « وست » عن حالتها كان مزعجاً . قال
فى تقريره - « انى لا أنتظر من العمل ذلك الرىح الذى توقعته . بل
أخشى أن تنالنا خسارة . فالكتب ليست مرتبة ، وهالك متأخرات
يجب تحصيلها - ولكن الانسان لا يستطيع أن يقف لها على أول يعرف
أو آخر يوصف . وهناك حاجة ماسة للقيام بعارة واسعة النطاق فى
كل أطراف العمل . غير أن هذا كله لا يجب أن يرعجك . فانى
سأجتهد فى أن أصلح الأحوال على قدر ما أستطيع . وسأبقى سواء
أحصلت على ربح أم لم أحصل » .

وكان من الممكن أن يترك مسنر « وست » العمل بمجرد أن رأى
أن أمله فى الربح مفقود ، ولم يكن لى وجه أن ألومه . والواقع أنه
كان من حقه أن يقاضبنى ، لأنى أوهمته بأن العمل مربح من غير أن
يكون بين يدى رهان فاطع على ذلك . ولكنه لم يتفوه يوماً بكلمة
يشتم بها ربح الشكوى أو التامل . غير أنى شعرت بأن هذا الأمر جعل
مستر « وست » يظن بأى غرر ساذج .

لما تلقيت كتاب مستر « وست » سافرت توالاً إلى ناتال . وكنت
قد وثقت فى مستر « بولاك » الثقة كلها ، وقد حضر ليودعنى على المحطة
وترك معى كتاباً لأقرأه خلال الطريق ، وأكد لى أنى سوف أشغف به .

أما هذا الكتاب فكان كتاب « رسكن » الذى عنوانه « حتى هذه

النهاية » - Unto This Last .

لم أستطع أن ألقى الكتاب من يدى منذ فتحته . لقد احتلبنى .
ومسافة السفر من جوها نسرج إلى باتال أربعة وعشرون ساعة .
فوصل القطار إلى دوربان فى المساء . ولكن لم أستطع أن أنام تلك الليلة ،
فانى كنت قد صممت أن أعير خطنى فى الحياة مستهدياً بالضوء الذى
استمدته من الكتاب . ولم أكن قد قرأت كتاباً من تأليف
« رسكن » قبل ذلك الوقت . وفى حياتى الدراسية ندر أن قرأت كتابا
خارجاً عن المتون المدرسية ، وبعد أن دلفت الى الحياة العامة ، لم يكن
لدى من وقت كاف للقراءة . وترتب على هذا أن معرفتى المستمدة من
الكتب كانت ضئيلة . وأعتقد بأننى لم أفقد كثيراً من جراء هذا القيد
الحبرى . بل على الصد من ذلك أعتقد أن قلة فراءتى جعلتني أهضم
ما قرأت هضمًا كاملاً . والكتاب الوحيد الذى استطاع أن يحدث انقلاباً
سريعاً فى حياتى هو كتاب « رسكن » - حتى هذه النهاية - واشغفنى
به ترجمته الى اللغة الكجرانية .

ويقينى أنى استكتسفت فى كتاب « رسكن » هذا بعضاً من أعمى
ما تأصل فى نفسى من المعتقدات ، وكان هذا هو السبب فى أن الكتاب
اختلبنى واستولى على كل الاستيلاء ، وحملنى على أن أحدث انقلاباً
جوهرياً فى حياتى . فان الشاعر هو ذلك الرجل الذى يستطيع أن يوقظ

الخير الكامن في قلب الانسان . وليس كل الشعراء متساوين في التأثير
لأن كل انسان انما ينشأ نشأة تختلف مقاييسها عن نشأة غيره .

واليك الصورة التي فهمت بها تعاليم « رسكن » !

أولاً - ان خير الفرد مشمول في خير المجموع

ثانياً - ان عمل المحامي له نفس القيمة التي لعمل الحلاق ، في أن
لكليهما الحق في أن يعين من عمله .

ثالثاً - أن حياة العمل - أي حياة الزارع والصانع اليدوي - هي
الحياة الجديرة بالانسان العاقل .

وكنتم أعرف التعليم الأول . أما الثاني فكنت أشعر به ، ولكن
لا أتبينه تماماً . وأما الثالث فلم يطرأ لي على بال . غير أن « رسكن »
جعله أمامي جلياً واضحاً على قدر ما أعتقد بأن التعليمين الثاني والثالث
انما يندمجان في الاول .

واستيقظت مع الفجر وفي حرقه لأن أضع هذه التعاليم موضع
التنفيذ .

وتناقشت مع مستر « وست » فيما كان من أثر كتاب « رسكن »
في نفسي وعقلي ، واقترحت عليه أن ننقل « الرأي الهندي » الى مزرعة
يعمل فيها الجميع وبعرق جبينهم يتقاضون أجوراً متساوية ويعنون
بالطبعة في وقت الفراغ . ووافق مستر « وست » على مقترحي وحددنا
ثلاثة جنيهاً أجراً لكل انسان ، مع غض النظر عن اللون والقومية .

ولكن واجهتنا مشكلة. فهل يقبل العشرة العمال الذين يعملون في المطبعة على أن ينتقلوا معها إلى مزرعة ويقنعون بأجر معين كهذا ؟ غير أننا انتهينا من التفكير في هذا الأمر بأن الذى لا يقبل منهم الأجر المحدد يبقى أجره كما هو ، ويجتهد تدرجاً أن يتقرب من الأغراض التى نرى إليها حتى يصبح عضواً فى المستعمرة الجديدة .

من بين الذين كانوا يعملون فى المطبعة « شجا نلال عاندي » أحد أبناء أعمامى . فأدليت إليه بمقترحي فى نفس الوقت الذى ناقشت فيه مستر « وست » . وكان له زوج وأولاد . ولكنه تعود منذ صغره أن يعمل معى ويطيعنى ، لثقته بى . فوافق من غير أن يناقش أو يسأل سؤالاً . وطل فى كنفى منذ ذلك الحين . وكان معنا رجل ميكانيكى هو « عوفندسوامى » فقبل المقترح أيضاً . أما الباقون فلم يقبلوا المقترح ولكنهم صارحوا بآرائهم يذهبون معى إلى حيث أذهب .

وأذكركم أنى لم أحتج الى أكثر من يومين لأفرغ من هذا الترتيب مع العمال . وفى الحال أعلنت عن شراء قطعة أرض تقع قريباً من إحدى محطات سكة الحديد بالقرب من دوربان . فوصلنى عرض يتعلو بمزرعة تدعى « العنقاء » - phoenix - وذهبت وبصحبتى مستر « وست » لنعاينها ، وفى أسبوع اشتريت عشرين « أكرأ » من الارض ، تحتوى على ينبوع جميل وقليل من شجر البرتقال والمانجو . وكان بجوارها مساحة تبلغ ثمانين « أكرأ » فيها عدد أكبر من أشجار الثمار وبيت ريفى

متخرب . فاشترينا هذه المساحة أيضاً ، ودفعنا في الاثنين ثمنا ألفا من الجنيهات الالمليزية .

وكان « بارسي رستومجي » عوني وساعدي في كل ما يماثل هذه المشاريع . ففتن بهذا العمل . ووضع تحت نصرفي أنقاض مظلة حدببة كبيرة وغيرها من مواد البناء . وساعدني بعض التجارين الهنود الذين عملوا معي في حرب البوير على إقامة مكان للمطبعة .

وبدأت أعمل كي أحمل أولئك الذين قدموا معي من الهند من الأقارب والأصدقاء ليعملوا في جنوبي افريقية ، وكانوا مستغولين بأعمال مختلفة . على أنهم هبطوا تلك البلاد ليجثوا عن الثروة ، فكان من أشي الأعمال أن أستغويهم ، ولكن البعض وافق على الذهاب معي . ولبس لي أن أسجل هنا من أسمائهم إلا اسم « ماجنلال غاندي » فانه وحده بقى معي ، في حين عاد الباقون إلى أعمالهم الأولى . أما « ماجنلال » فقد ترك عمله لياقي بدلوه مع دلوى ، وبكفايته وتضحيته واستماتته في سبيل العمل ، يستحق أن يوضع في الصف الأول مع الذين عاونوني في هذه التجارب الخلقية العنيفة ، فضلا عن أنه كان صانعا يدويا من أمهر الصناع . وهو من هذه الناحية يجب أن يسجل اسمه في رأس القائمة .

كونت مستعمرة العنقاء سنة ١٩٠٤ وعلى الرغم من العقبات الشديدة فان « الرأى الهندي » مازالت تصدر عن هذه المستعمرة حتى الآن .

ولم يكن من الهين أن يصدر أول عدد من الجريدة عن مستعمرة
العنقاء ، واذا لم أكن قد اتخذت احتياطين بعينهما ، لتعذر اصدار العدد
الأول هناك ، ولتركنا أمره بتاتا . فلم يكن لدى من رغبة في أن تكون
لدينا آلة لإدارة المطبعة ، وفكرت أن ادارتها باليد أكثر ملاءمة مع
البيئة الجديدة ، كما عزمت على أن يكون كل العمل الزراعى يدوياً .
ولكن خشية أن يكون هذا الأمر غير ممكن التنفيذ ، نقلنا معنا آلة
لإدارة المطبعة ، تدار بالبترول . غير أنى اقترحت على مستر « وست »
أن محتاط فنصطحب شيئاً يمكن أن يدير المطبعة باليد في حالة ما اذا
تعطلت الآلة عن العمل . فاشترى عجلة يمكن بها أن تدار المطبعة بقوة
السواعد .

ولن أنسى ما حيت أول ليلة . فقد ربطنا الصحف المصفوفة
بالحروف على محاسة المطبعة ، ولكن الآلة تعطلت عن الدوران .
فاستدعينا من دوربان مهندساً ليصلح من شأنها . فعمل ومستر
« وست » كل ما استطاعا ، ولكن بغير جدوى . وتولانا القلق
جميعاً . فحضر الى مستر « وست » أخيراً وعيناه مغرورقتان بالدمع وقال
لى - « ان الآلة سوف لا تدور ، وأخشى أن تعطل الصحيفة عن الصدور
في ميعادها » .

فأجيبته : « اذا كان الأمر كذلك فلا حيلة لنا . وكذلك لافائدة من
ذرف الدموع . ولكن الفائدة في أن نعمل كل ما يستطيع بشر أن

يعمله . مهل فكرت في عجلة اليد ؟ » .

-- « ولكن أين الرجال الذين يديرونها ؟ وليس فينا الكفاية للقيام بأعبائها . اننا نحتاج الى أربع رجال سناوبون عليها ، ورحلنا متعبون حتى الاعياء » .

ولم تكن أعمال البناء في المستعمرة قد تمت بعد ، وكان النجارون لا يزالون معنا . ورأيتهم نياماً على الأرض في حجرة المطبعة . فقلت له مشيراً اليهم ، « ألا يمكن أن نتفع بهؤلاء النجارين ؟ انه ينبغي أن نقضى الليل في العمل . وأظن أن هذه الوسيلة لاتزال في متناولنا » فأجابني ، « أما أنا فلا أجسر على أن أوقط النجارين ، في حين أن رجالنا يكاد يصرعهم الابهاك » .

فأيقظت النجارين وطلبت معونتهم . فلم يحتاجوا الى ضغط ، وقالوا . « اذا لم نكن على استعداد لأن نؤدي ما نستطيع في وقت الحاجة وطلب العون ، فأية فائدة فينا ؟ انه عمل ليس شاقاً » . أما رجالنا فكانوا على استعداد للعمل .

ولقد طهر العرج على أسارير مستر « وست » ، وبدأ يغنى أغنية يحبها عندما بدأنا في العمل . فناوبت النجارين ، وأخذ كل من الموجودين دوره على التوالي ، وظللنا نعمل حتى الساعة السابعة من الصباح . وكان لا يزال أمامنا عمل كثير ، فقلت لمستر « وست » انه من المستحسن

أن نوقظ المهندس ليرى ان كان من الممكن أن تدور الآلة، فاذا استطاع أن يديرها أمكننا أن نفرغ من عملنا في الميعاد المناسب .

وأيقظه مستر « وست » ، فذهب تواء الى حجرة الآلة . وسرعان ما دارت الآلة بمجرد أن جربت التجربة الأولى . وتعالّت أصوات الفرح من جوانب المطبعة . ولكنى تساءلت ، كيف حدث هذا ؟ كيف ان كل ما صرفنا من جهد ذهب عبثاً وكيف تدور الآلة في هذا الصباح كأن لم يكن بها خلل ما ؟ فأحابنى مستر « وست » - من الصعب أن تعرف السبب . ان الآلات قد تسلك بعض الأحيان مثل سلوكنا ، ففتحناج إلى الراحة .

وانى لاشعر بحزن عميق كلما تذكرت أنى أسست مستعمرة العنقاء ولكن لم أستطع المقام فيها غير قليل . وكانت فكرتى الأساسية أن أصنى أعمالى القضائية تدرجا وأقيم بعد تصفيتهما فى العنقاء فأحصل على معاشى بقوة ساعدى وعرق جبينى وأجنى سعادة العمل بإسعاد العنقاء وأهلها . ولكن لم يشأ القدر أن يكون هذا . فقد دلتنى تجاربى على أن الانسان بفكر فى حين أن الله يدبر أموره . ولكنى وجدت بجانب هذا أنه حيثما كان الغرض هو البحث عن الحق ، فلا أهمية اذن ولا تفكير فى أن تفشل المشروعات التى يفكر فيها المرء ، لأن النتيجة

مهما كانت ، فلن تكون شراً ، بل وعالب ما تكون أفضل مما نتوقع .
وهكذا كان . فان المتجه الذى اتجهت فيه العنقاء ، والحوادث التى
وقعت بعد تأسيسها لم تكن شراً على اطلاق القول .

ومن أجل أن نجعل كل مقيم فى مستعمرة العنقاء يحصل على قوته
بقوة ساعده ، قسمنا الأرض الواقعة حول بناء المطبعة أقساماً كلا منها
ثلاث « أكرات » . ووقع نصيبى على قسم منها . وفى كل قسم منها
بنينا بيتاً من الخشب قائماً على أعواد من الحديد . وكانت رغبتنا أن نقيم
أكواخاً من لبنات الطين أو يوتاً من اللبنة المحروقة ، ولكن
اتضح لنا أن المشروع كثير النفقة بما لا يتوازن مع مواردنا ، فضلاً
عن أن كل انسان كان يرغب فى أن يستقر فى مكانه فى أقرب وقت ممكن .
ولما عدت الى جوها نسبرج أخبرت « بولاك » بكل ما فعلت ،
وبكل الانقلابات التى تناوبت على أفكارى ومتجهاتى . فكان سروره
عظيماً عندما عرف أن الكتاب الذى أقرضنى اياه كان له هذه النتائج
البعيدة . وسألنى فى شوق - « أليس من الممكن أن أشارك فى هذا
المشروع الجديد » فأجبته قائلاً - « بدون شك . انك تستطيع اذا
أردت أن تشارك فى المستعمرة » فأجابنى - « انى على استعداد تام ،
اذا تفضلت وقبلتنى » - واشترك معنا .

ولقد أسرنى بقوة عزمته . وأندر رئيسه بأن لديه شهراً واحداً

سوف يترك بعده العمل . ووصل بعدها الى العنقاء في الميعاد الذي
حدده . ولقد أسر قلوب الجميع بalfته وحسن معاشرته ، وسرعان ما
أصبح عضواً محبوباً في أسرة العنقاء .

ان البساطة عنصر أصيل في طبيعته . ولذا وجد أن الحياة في العنقاء
ليست شيئاً جديداً عليه ، فصبح فيها سباح السمك في الماء .



الفصل الثاني عشر

ثورة الزولو

لم يمض زمن طويل على هذه الحوادث ، حتى تناقلت الجرائد خبر ثورة قام بها « الزولو » فى ناتال . ولم أكن أحمل أية ضغينة ضد الزولو ، فانهم لم يضرُوا هندا مقيما بجنوى افريقية ، رعمًا عن أنه كانت تساورنى شكوك كثيرة فى أمر هذه الثورة . وكنت اذ ذاك أعتقد أن الامبراطوية البريطانية لم توجد فوق ظهر هذه الأرض إلا للعمل على خير الانسانية . ولقد حال شعورى المطلق بالولاء لها عن أن أتمنى أى ضرر يلحق بالامبراطورية . ولذا لم تكن أحقية الزولو فى الثورة أو عدم أحقيتهم مما يؤثر فى حكمى القاطع فى الامر . وكان فى ناتال قوة من المتطوعين معدة للدفاع ، وكان من حق السلطات أن تضم اليها من تشاء للعمل تحت لوائها . وقرأت أن هذه القوة عبئت بالفعل للقيام بقمع الثورة . ولما كنت أعتبر نفسى من رعايا حكومة ناتال ، وصلىتها بها وثيقة قائمة على العطف عليها وحب الخير لها ، كتبت إلى الحاكم العام معبراً عن استعدادى إذا كانت هناك أية ضرورة لأن أكون فرقة اسعاف هندية . فأرسل إلى على الفور كتابا بالقبول . ومن حسن

الحظ انى كنت قد اتخذت كل الترتيبات الضرورية قبل أن أرسل خطابى اليه . وكنت قد عزمت ، إذا قبل عرضى ، أن أترك بيتى فى جوها نسبرج فيؤجر « بولاك » بيتاً أصغر وتذهب زوجى الى مستعمرة العنقاء . وكنت على الدوام سعيداً بأن ألتقى من زوجى كل عون ومساعدة فلم تخطئ القاعدة هذه المرة أيضاً ، ولم أذكر أنها وقفت فى وجهى وحالت دون ارادتى فى مثل هذه الأحوال طيلة حياتى . وبمجرد أن وصلنى كتاب الحاكم ، ذهبت الى دوربان وطلبت مساعدة رجال من الهنود . ولم يكن هناك من حاجة إلى عدد كبير ، وكنا فى النهاية أربعة وعشرين رجلاً منهم أربعة من الكجراتيين غيرى . أما الباقون فكانوا أجراء من جنوبى افريقية انتهت عقودهم ، ماعدا واحداً كان من الباتيين الأحرار .

ولقد أراد طبيب الفرقة التى ذهبت لاختضاع الثورة أن يرفع من قدرى وأن يهون على مهمتى فعينى طبقاً للتقاليد فى رتبة حربية مؤقتة ، وعين ثلاثة من الآخرين انتخبتهم فى رتب أقل من رتبى . ولما وصلت ميدان الثورة لم أجد هناك أى دلالة تدل على أن هناك ثورة بمعنى الكلمة . ولم أرى أثر للمقاومة . أما الذى جعل الاضطرابات تتطور إلى ما يسمى ثورة ، فيرجع إلى أن زعيماً من زعماء الزولو نصح الى اتباعه بالامتناع عن دفع ضريبة جديدة فرضتها الحكومة ، واعتدى على جاويز من الجيش مضى الى منطقته ليجبها . ومهما يكن من الأمر ،

فان عواطفى كانت من الزولو ، واغتبطت عندما وصلت الى رئاسة هيئة
الجيش وأخبرت أن عملنا الأساسى سينحصر فى تمريض الجرحى من
رجال الزولو . ولقد رحب بنا الضابط الطبيب المعهود له بالمستشفى
الحربى . وقال لنا ان الأوروبيين يرفضون أن يقدموا على تمريض جرحى
السود ، وان جراحهم أخذت تتعفن من الاهمال وعدم العناية، وأنه يكاد
يفقد صره على تلك الحال ، بل أضاف إلى ذلك أنه يعتقد أن مقدمنا نجدة
إلهية لانقاذ هؤلاء المساكين ، وسرعان ما زدونا بالأربطة والمطهرات
وغيرها واصطحبنا إلى المستشفى المؤقت . وابتهج الزوليون بمرآنا .
غير أن الجنود البيض كانوا يطلون علينا من ثنايا القضبان الحديدية التى
تفصلنا عنهم ويفروننا بأن لا يعنى بجراح الثوار ، فلما رفض ، يصبون على
الزولو أنواع السباب والشتم . واستطعت بعد قليل ان اختلط هؤلاء
الجنود ، فكفوا عن التدخل فى شؤوننا وأقلموا عن خطهم .

ان الجرحى الذين عهد الينا بتمريضهم لم يجرحوا فى ساحة حرب .
وكان جزء منهم فى الحقيقة أسرى قبض عليهم لمجرد الاشتباه فى سلوكهم .
ولكن الجنرال أمر بجلدهم فجلدوا وأحدث الجلد فى أجسامهم جراحاً
بليغة ، أخذت تتعفن من عدم العناية والاهمال . أما الآخرون فكانوا
من الزولو الموالين للحكومة جرحوا خطأ فى أثناء اطلاق النار على الثوار ،
ولذا أعطوا عصائب يعصبون بها جراحهم . وفضلاً عن عملى هذا عهد
الى بتركيب بعض العقاقير وصرف الأدوية للجنود البيض . وكان هذا

العمل سهلاً هيناً على ، لأنى كنت قد مرنت عليه سنة كاملة فى المستشفى الصغير الذى أسسه دكتور « بوز » . واختلطت من طريق عملى هذا بكثير من الأوروبيين . وكنا نعمل فى فرقة يطلب منها سرعة الانتقال من مكان الى مكان . وقد صدرت اليها التعليمات بأن نتوجه حيثما نخر بأن هنالك وجهاً للخطر . وكنا نتنقل فى الغالب فرساناً لامشاة . ومعجرب أن يتحرك نخيمنا من مكانه يلزمنا أن نتقدم راجلين ومعنا النقالات نحمليها على أكتافنا . وحدث مرتين أو ثلاث مرات ان اضطررنا أن نمشى على أقدامنا أربعين ميلاً فى اليوم . ولكن حيثما ذهبنا ، هيانا الله لعمل انسانى نقوم به وننجزه . وكنا نحمّل الى المخيم فى نقالاتنا جرحى الزولو الموالين الذين كانوا يجرحون خطأ ونعنى بجراحهم ونمريضهم ولقد كانت ثورة الزولو مليئة بالتجارب الجديدة فضلاً عن انها زودتنى بمادة واسعة للتفكير . فان حرب البوير ، على حدتها ، لم تظهرنى على شىء من فظائع الحروب بقدر ما أظهرتنى ثورة الزولو . ان هذه الثورة لم تكن حرباً بالمعنى المفهوم ، بل كانت صيداً مادته الأرواح البشرية . ولم يكن هذا رأيى وحدى ، بل كان رأى الكثيرين من الانجليز الذى صدف أن احادهم . ولئن يقرع أذنيك صبيحة كل يوم دوى الطلقات التى ينثرها الجنود على المحلات الآمنة فتنفجر وتنشر الموت والألم ، وأن تعيش فى وسط الذين ينتثر على مسيرهم الموت ، لامتحان قاس للاعصاب ، بل تجربة من أشنع ماتجرب فى حياتك . ولكنى ازددت

الجرعة المبررة بصبر، وعلى الأخص عندما اقتصر عمل فرقتي على تمرير جرحى الزولو . ولولم نعن بهم لما عني بهم أحد . فكان عملي هذا مما يريح ضميري ويرضى وجداني .

ولكن كان هنالك ما هو أكثر من هذا مما يحمل على التفكير والتأمل . وكانت بقعة قليلة السكان نادرة العمران . وبين التلال وفي خلال الوديان والأغوار ، كانت تنتثر حظائر الزولو الودعاء الذين يقال فيهم « متوحشون » . وكلما كنت أمشي مصحوباً بجرحى أو منفرداً بنفسى فى تلك الوحدة الهادئة ، أقع فريسة فكر عميق .

أخذت أتدبر متأملاً ذلك المبدأ الدينى الذى ندعوه « براهما شاريا » Brahmacharya ومحصله مراعاة العفة وضبط الشهوات ، وما يمكن أن يقوم عليه من المضمونات ، واستقرت معتقداتى فى غور أعمق من أغوار نفسى . ولم أكن قد حققت بعد مقدار الحاجة الى ضبط الشهوات والطهارة فى سبيل العمل على تحقيق الذات ، ولكن ظهر لى بجلاء ان الذى يريد أن يخدم الانسانية بكل ما فى روحه من قوة ، لا يمكن أن يحقق غرضه بغير هذا . وثبت عندى فى ذلك الحين ان لدى فرصاً كثيرة أخرى أستطيع أن أؤدى فيها خدمات من هذا النوع ، وانى ولا شك سوف أجد نفسى عاجزاً عن تأديتها اذا ظللت مغموراً فى شهوات هذه الحياة ومسراتها وفى اعقاب الأطفال والقيام على تربيتهم . وعلى الجملة ثبت فى يقينى أنى لا أستطيع أن أعيش للناحتين : ناحية الشهوة،

وناحية الروح . على اننى ما كنت لأقدم على أن أقذف بنفسى فى آتون
هذه المعركة النفسية الحامية لو ان زوجتى كانت ترتقب طفلاً جديداً .
فمن غير أن تركز الى قواعد « البراهما شاريا » تكون خدمة مصالح
الأسرة غير متفقة مع مراعاة صالح الجماعة . أما اذا وعينا قواعدنا ، فان
مصالح الطرفين يمكن التوفيق بينها . وبعد أن فكرت فى كل هذا شعرت
بقلق منشؤه الرغبة فى أن أعاهد نفسى على هذا عهداً نهائياً . وكان عزمى
على ان أعقد هذا العهد مصدراً للابتهاج على صورة ما . وكذلك وجد
التصور مجالا للترسل والامتداد ، ففتح أمامى أبواباً للعمل النافع
لا تنتهى غاياته

فلما وصلت مستعمرة العناء فاتحت شاجنلال وما جنلال ومستر
وست فى موضوع البراهما شارياً ، كما فاتحت غيرهم فأحبوا الفكرة
وأبدوا قبولهم لضرورة اخذ العهد . ولكنهم لم يتوانوا عن أن يظهروا
الصعوبات التى تتطلبها القيام بهذه المهمة . على أن بعضهم أخذ ينفذ
بصلابة قواعد « البراهما شاريا » ، ونجح بعضهم على ما أعرف . وكنت
قد وقعت مع الواقعين ، وقطعت على نفسى عهداً على أن ارعى قواعد
« البراهما شاريا » وانفذها مدى الحياة . والواقع انى لم اكن قد عرفت
مقدار ما يتطلب القيام بهذا العمل من قوة وصبر لما فيه من سعة الأفق
والعظمة التى تتضاءل امامها النفوس البشرية . وما أزال حتى اليوم
وصعب القيام بهذا العمل تصادفنى فى طريقى وتقف أمامى وجهاً لوجه .

على أن قيمة العهد الذى قطعته كانت ترداد مع الزمن قدراً ومكانة من نفسى ، حتى لقد آمنت بأن الحياة بدون « البراهما شاريا » تكون تافهة ولا طعم لها ، بل وتكون أقرب الى الحيوانية . فان السوائى لا تعرف بطبعها معنى لضبط النفس . أما الإنسان فهو انسان لأنه يستطيع أن يضبط نفسه . وكل ما ظهر لى من كتبنا الدينية انه افراط ومغالة فى امتداح « البراهما شاريا » ، يظهر لى الآن على الضد مما كنت أرى من قبل ، انه صحيح وقائم على التجارب الحقة ، وهذا الأمر يزداد عندى وضوحاً يوماً بعد يوم .

رأيت ان البراهما شاريا ، بما فيها من تلك القوة الشاملة والفاعلية التامة ، لا يمكن أن تكون مراعاتها عملاً سهلاً هيناً ، وانها ليست شيئاً يتعلق بالجسم وحده والاحتكام فيه . حقيقة ان البراهما شاريا تبدأ بالاحتكام فى الجسم وتقييده ، ولكنها لا تنهى عند ذلك . ذلك لأن اكتمالها يقتضى حتماً الحيلولة بين الانسان وبين الأفكار السيئة . فان « البراهما شاريا » اذا كان مؤمناً ، لا يمكن ان تساوره « الأحلام » فى ان يشبع نهمة الجسم ، وامامه قبل الوصول الى هذه الغاية ، سفر طويل لا بد من أن يقطعه اليها .

أما عن نفسى فلا بد من أن أقول ان مراعاة البراهما شاريا فى تقييد الجسم وحده كانت صعبة قاسية . اما اليوم فانى أستطيع أن أقول بحق انى ناج من هذا . ولكن اماهى أن اصل الى النفاية التى اقدر عندها

ان أحسكم فى فكرى ، وهذا أمر جوهرى ولا أقصد بهذا انه تعوزنى العزيمة أو القوة أو الارادة . كلا . ولكن لأنى ماأزال فى حيرة من أمر ذلك النبع الخفى الذى تغزونى من طريقه الأفكار السيئة . وما أشك فى أن الانسان لديه المفتاح الذى يعلق به الباب الذى تلجه وتنفذ منه الى عقله الأفكار غير المرغوب فيها . ولكن لكل انسان ان يفتس عن ذلك المفتاح ويجده من غير أن يستمد العون من غيره . ولقد ترك لنا القديسون والعرايون تجاربهم . ولكنهم مع الأسف لم يتركوا لنا وصفات محققة معصومة عن الزلل نصل من طريقها الى هذه الغاية . ذلك لأن الكمال والحرية انما يأتیان من طريق واحد ، هو طريق العناية الأزلية ، ولذا ترك لنا الذين أفنوا أعمارهم فى البحث وراء الله متوناً مقدسة مثل كتاب « رامانا » Ramanama ملئت بوصف ما لا قوا فى الحياة من خشونة ، وما زاولوا فيها من تقشف وتصوف . ومن غير أن نسلم بأنفسنا الى عنايته القدسية ، فان الاحتكام الكامل فى أفكارنا وتقييدها لن يكون كاملاً . وهذا هو المبدأ الأساسى الذى تضمنته كل الكتب المقدسة . وانى لاحقق صدقه فى كل لحظة من لحظات حياتى التى اجهد فيها نفسى وراء الفوز « بالبراهما شاريا »

ولقد أخذت الحوادث فى جوها نسبرج وجهة جعلتنى اتجه نحو تطهير نفسى تمهيداً للعمل فى سبيل الستيا جراها ^(١) Satyagraha
(١) معناها قوة الحق وقوة الروح وهو الاسم الذى أطلقه مهاتما غاندى على المقاومة السلسة

وانى لأرى الآن بوضوح ان كل الحوادث الجوهرية التى وقعت فى حياتى
والتي ترتبت على هذا العهد ، انما كانت تعدنى لأن أقطعه على نفسى
وروحى . فان المبدأ الذى دعوته « ستيا جراها » كان له وجود فعلى
من قبل أن يوضع له هذا الاسم . وفى الحق ان هذا المبدأ عندما « ولد »
لم أكن أستطيع أن أقول « ماهو » . فقد كنا نستعمل فى اللغة
« الكجراتية » الاصطلاح الانجليزى « المقاومة السلبية »
Passive Resistance لنعبر عنه أو لنصفه . وبينما كنت فى جمعية من
الأوروبيين رأيت أن هذا الاصطلاح ضيق الحدود ولا يدل على حقيقة
المبدأ دلالة صحيحة . فقد فرض انه سلاح الضعيف المغلوب على أمره ،
وأنه قد يكون مدخولاً بالكراهية ، أو انه فى النهاية قد يلجأ الى أعمال
العنف . ولذا حلت كل هذه المدخولات وأبنت عن حقيقة الحركة التى
يقوم بها الهنود . فكان من الضروري مع هذا أن ينحت الهنود كلمة
تدل دلالة واضحة جلية على حقيقة المعركة التى يخوضون عمارها .

غير انى لم أستطع أن أقع على كلمة تطلق اسماً علماً على حقيقة المبدأ ،
ولذلك لجأت الى الاعلان على صفحات « الرأى الهندى » وحددت
جائزة ينالها القارىء الذى يقترح أقوم اصطلاح . وفى النهاية فاز
« ماجنلال عاندى » بنحت كلمة « ستيا جراها » وهى تركب فى
الهندية من مقطعين « سات : حق » و « اجراها : صلابة » وصاغها
هكذا Sadagraha ونال الجائزة . غير انى حباً فى أن أجعلها أبين وأجلى

غيرتها الى Satyagraha « ستيا جراها » ، فدخلت في اللغة الكجرانية لتدل على حقيقة المعركة التي يخوضها الهنود . أما تاريخ الستيا جراها فهو عبارة عن تاريخ حياتي في جنوب افريقية ، وعلى الأخص في تجاربي الشاقة في التزام الصدق في تلك القارة النائية .

...

لقد نجت زوجي ثلاث مرات من الموت بعد أن تصاب بمرض عضال . في المرات الثلاث كان شفاؤها راجعاً الى أدوية منزلية عادية . وعند ما مرضت المرة الأولى كنا نخوض احدى معارك الستيا جراها ، أو كنا على وشك أن نخوض احداها . وكانت تصاب بنوبات من الزيف . وبصحتي أحد أصدقائي من الأطباء باجراء عملية جراحية ، وافقت هي على اجرائها بعد تردد قليل . وكنت تراها مهزولة بحيلة ، وكان الدكتور مضطراً لأن يجرى العملية بغير تخدير . ولكن العملية نجحت ، رغم انها تأملت كثيراً . ولكن الدهش انها احتملتها بشجاعة نادرة المثال . وقام الدكتور وزوجه على خدمتها فصرفا نحوها جهداً ممدوحاً وانتباها انسانياً . ووقع هذا في دوربان ، وتفضل الدكتور فأجاز لي أن أذهب الى جوها نسبرج وأن لا أكون في قلق على المريضة

وفي خلال أيام قلائل وصلني خطاب جاء فيه ان « كسترباي » أصبحت اسوأ مما كانت ، وانها ضعيفة لا تستطيع الجلوس في فراشها ، وانها اصيبت مرة بالاغماء وفقدت الحواس ، وكان الدكتور على علم بأنه

لا يجوز له ان يعطيها خمرًا أو لحماً من غير موافقتي . فخطبني تليفونيا من جوها نسبرج لاوافق على أن تعطى مرق العجل . فأجبتته بأنى لا استطيع أن أعطى تصريحاً كهذا ، ولكنها اذا كانت فى حالة تستطيع معها ان تعبر عما تريد ، فمن الواجب أن يؤخذ رأيها ، وانها حرة فى أن تفعل كيف تريد . فقاطعنى الدكتور قائلا :

« - ولكن ارفض ان أستطلع رأى المريضة فى الأمر . ان الواجب يدعوك للحضور بنفسك . فاذا لم تتركى حرًا فى أن أصف ما أشاء من أصناف الأغذية ، فانى لن اتحمل مسؤولية شفاء زوجك . »
فركبت القطار الى دوربان فى نفس اليوم ، وقابلت الدكتور فأخبرنى مهدوئه المعهود قائلا « انى أعطيت زوجك مرق العجل فى الوقت الذى كلمتك فيه تليفونيا » فأجبتته :

« - انى اعد هذا يا حضرة الدكتور غشاً » . فأجابنى
« انى لا أرى أى وجه للنفس فى أن أصف داوء أو غذاء لمريض . وفى الحقيقة نعتبر نحن معاشر الأطباء أنه من الفضيلة أن نفرض مرضانا أو أقاربهم فى سبيل أن ننقذ حياة بشرية » .
ففسرنى الألم ، ولكنى ظلمت هادئاً . وكان الطبيب رجلاً خيراً وصديقاً شخصياً لى . وأصبح له ولزوجه فى عنق قيد من الجميل الذى لا ينسى ، ولكنى لم أكن مستعداً لأن أقبل الخضوع لآرائه الطبية . فقلت له .

- « خرنى يا دكتور ماذا تقترح أن نعمل الآن . انى لا أستطيع أن أصرح بحال أن تعطى زوجى لهما أو مرق العجل ، ولو أدى ذلك الى موتها ، ما لم تقبل هى أن تتعاطى هذه الأسياء » . فكان جوابه - « أنت حر فى أن تظل على فلسفتك . ولكنى أخبرك أنك مادمت تعهد إلى بعلاج زوجك ، فلا بد من أن يكون لى الخيار المطلق فى أن أعطيها ما أشاء . أما إذا كنت لا توافق على هذا ، فانى أسألك آسفاً أن تأخذها معك . فانى لا أستطيع أن أراها تموت تحت سقفى » .

- « هل تعنى بهذا أنه يجب على أن أنقلها الآن ؟ » - « ومتى سألتك أن تنقلها ؟ انى انما أريد أن أترك حرراً . فاذا فعلت ، فانى وزوجى سوف نعمل لهما كل ما فى استطاعتنا من الممكنات ، ويمكنك أن تذهب لمباشرة عملك من غير أن يكون لديك أقل شاغل من ناحيتها . ولكنك اذا كنت لا تستطيع أن تفهم هذا الشئ البسيط ، فانك تضطرنى لأن أسألك أن تنقل زوجك من بيتى » .

وأظن أن أحد أبنائى كان معى ، فوافق على رأى كل الموافقة ، وقال بأن « كسترباى » لا يجب أن تعطى مرق العجل بأى حال من الأحوال . وبعد ذلك تكلمت مع زوجى . وفى الحق انها كانت ضعيفة ضعفاً يتعذر معه أخذ رأيها فى هذا الموضوع . ولكنى رأيت أن من واجبى ، وإن كان مؤلماً ، أن أفعل هذا . وأخبرتها عن كل ما كان

بينى وبين الدكتور . فأحابتنى جواباً قاطعاً قائلة :

- « انى لن أتعاطى مرق العجل . ان من أندر الأشياء فى هذه الدنيا أن يولد المرء فى هذه الحياة مكتمل الاسانية . وانى لأفضل أن أموت بين ذراعيك ، من أن أدنس جسمى بمثل هذه الدنابات » . فتوسلت إليها ، ثم أخبرتها أنها ليست مجبرة على أن تتبع رأى ومذهى . ورويت لها أمثالا اجتزأتها من هندوكيين بأكلون اللحم ويتعاطون الحجر كدواء . ولكنها ظلت صلبة ولم تلتن فقالت - « لا ، أتوسل اليك أن تنقلنى من هذا المكان فى الحال » .

فاغتبطت . وعزمت على أن أنقلها ، ولكن بشيء من الانفعال . ثم أخبرت الدكتور عن عزمها . فقال لى ١

- « كم أنت صلب أيها الرجل . كان من الواجب عليك أن تحجم عن أن تناقشها فى الأمر وهى على هذه الحال . وانى لاصارحك بأن زوجك ليست فى حالة تسمح لها بالانتقال . انها لا تستطيع الوقوف على رجليها لحظة واحدة . وانى لن أعجب اذا سمعت أنها ماتت فى الطريق . ولكن اذا كنت لاتزال عازماً على هذا ، فأنت حر فى أن تفعل ما تشاء . وأزيد على هذا أنك اذا لم تعطها مرق العجل ، فانى لن أخاطر بأن أقبلها فى بيتى يوماً واحداً » .

على هذا صممنا على أن ننقلها ونترك بيت الدكتور تواء . وكانت المطر ينزل رذاذاً ، والمحطة بعيدة بعض الشيء . وكان علينا أن نأخذ القطار

من دوربان الى مستعمرة العنقاء ، فاذا نزلنا من المحطة القريبة منها ، بقى علينا أن نقطع ميلين وبصفا. ولا شك في أنى كنت أخطر محاطرة عظيمة وأقذف بنفسى فى مأزق حرج ، ولكنى كنت كثير الثقة بالله ، فمضيت أتم واجبى . فأرسلت رسولا الى المستعمرة ليتقدمنا ومعه رسالة الى مستر « وست » لينتظرنا فى المحطة ومعه « همك » - سرير من شبك - وزحاجة من اللبن الساخن وأخرى من الماء الحار وستة رجال ليحملوا زوجى . واستأجرت « عربية يد » لاستطيع أن أنقلها فى أول قطار يغادر دوربان ، وأركتها القطار وهى على تلك الحال وسافرنا .

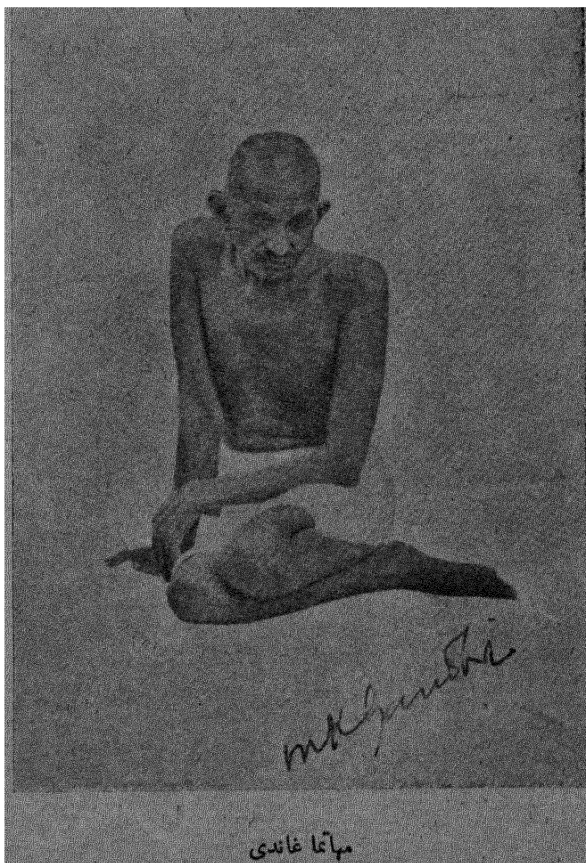
ولم تكن « كسترباى » فى احتياج لمن يشجعها . بل على الضد أخذت تسكن من روعى قائلة « لن يحدث لى أى حادث ، فلا تهتم » وكانت كأمها قفص من الحلد والعظام، ولم تكن قد جرعت شيئا من المغذيات لعدة أيام . ورصيف المحطة طويل ، وكان من المتعذر أن تدخل العربى داخل المحطة لتتنقل المريضة فكان علينا أن نسير مسافة طويلة لنصل إلى عربى القطار . فحملتها بين ذراعى حتى أجلستها داخل العربى . ومن المحطة حملناها على « الهمك » وهناك بدأت تسترد قواها بالعلاج المائى

- Hydorathic Treatment -

بعد مضى يومين أو ثلاثة من هبوطنا مستعمرة العنقاء زارنا « سوامى » - Swami - من رجال الدين . وكان قد سمع بمنادنا فى

رفض نصيحة الدكتور ، فحضر اشفاقا علينا ليغرينا بأن نسمع نصيحة الطبيب . وكان ابنائى الثانى والثالث ، مانيلال وردماس حاضرين لما زارنا ذلك الرجل . وأخذ يغرينا بأنه لا ضرر من الوجهة الدينية اذا تعاطينا اللحم، مستنداً إلى نصوص دينية اقتطعها من شريعة « مانو » وهى أقدم الشرائع الهندية . فكرهت أن أتمشى معه فى هذه المناقشة فى حضرة زوجى، ولكنى تركته يقول ما يريد أمامها احتراماً له . وكنت أعرف الآيات التى ذكرها عن « مانو » ولم أكن فى حاجة لأن تعاد على سمعى لكى أقتنع بجواز أكل اللحم . بل كنت أعرف أكثر مما يعرف من أن هنالك مدرسة دينية تعتقد أن هذه الأقوال مكذوبة . وحتى بفرض أنها غير مكذوبة ، فانى قد أخذت نفسى بالحياة النباتية بصرف النظر عن النصوص الدينية ، كما أن إيمان « كسترباى » كان ثابتاً لا يتزعزع . على أن النصوص الدينية كانت لغزاً لا تعرفه ، ولكن تقاليد أسلافها كانت كافية عندها لأن تحل من قلبها فى منزلة الايمان . وأقسم الولدان بعقيدة أبيهما أن اجازة أكل اللحم لن تكون . وفى ذات اللحظة أجابته كسترباى قائلة :

« سيدى السوامى . مهما يكن فى أقوالك من حق ، فان ذلك لن يحلمنى على أن أطلب الشفاء بأكل اللحم . وانى لأتوسل اليك أن لاتزعجنى بأكثر من هذا . ولك أن تناقش فى الأمر مع زوجى وولدى، أما أنا فقد صممت وانتهيت » .



وكنت قد قرأت في بعض الكتب التي تعالج الحياة النباتية ان الملح ليس عنصراً أساسياً في غذاء الانسان، وانه على الضد من ذلك تفيد الأغذية الخالية من الملح أكثر مما تفيد الأغذية التي يضاف اليها الملح . ومن هنا استنتجت كيف أن أحد البرهشاريين قد استفاد من الأعذية الخالية من الملح . وقرأت كذلك أن ضعاف الأجسام يجب أن يتفادوا تعاطي البقول، وكنت من الغمرين بها. وحدث اذ ذاك أن كسرت راي بعد أن أجريت لها العملية استراحت قليلا ولكن النريف عاودها ، وظهر المرض في مظهر خبيث حاد، ولم يفد فيه العلاج المائي وحده . ولم تكن واثقة في أنواع العلاج التي أستعملها ، ولكنها لم تكن معارضة في شيء . ولم تسألني أن أستعين بالمساعدة الخارجية . فلما فشلت كل أنواع العلاج ، سألتها أن تتفادى أكل الملح والبقول . فلم تقبل بادىء الأمر ، على الرغم من توسلاتي اليها مستنداً على أقوال الثقة في هذا الموضوع . ولما بلغ منها الضيق ، جابهتني بأني أنا شخصياً لا أستطيع أن أقنع عن تعاطي هذه الأشياء لو طلب مني أن أقنع عنها . فتأملت وسررت في آن واحد . سررت لأنني أعطيت الفرصة التي أظهر لها فيها حبي لها وعطفي عليها ، فقلت لها .

ـ « انك مخطئة ـ فاني اذا كنت مريضاً ونصحني الطبيب بأن أتفادى هذه الاشياء أو غيرها في أغذيتي ، فاني لا أتردد في أن أعمل بمشورته . ولكن اليك . فاني من غير أى مشورة طبية سأقنع عن

أكل الملح والبقول سنة كاملة ، سواء أفعلت ، أنت ذلك أم لم تفعل .
 فتولها هزة عنيفة وقالت في حزن عميق - « ساحنى . عفر الله لك .
 فقد كان من الواجب على أن لا أتحدأك وأنا على علم بمن أنت . وانى
 أعدك بأن أقاع عن تعاطى هذه الأشياء . ولكن بحق السماء أن تخلل
 نفسك من هذا العهد . ان هذا كثير لا أستطيع احتماله » فأجبتها

- « ان فى افلاعك عن نعاطى هذه الأشياء خيرا لك ، ولا شك
 عدى مطلقا من أنك سوف تستفيد من ذلك وتحسن صحتك . أما
 أنا فانى لن أحل نفسى من عهد قطعه عليها جاداً لا هازلاً . ومن
 المؤكد أنى سوف أستفيد بتنفيذه لأن كل القيود التى يقيد بها المرء
 نفسه مهما كانت واعيها ، مما يعود عليه بالخير . ولذا أسألك أن تركبني
 وشأنى . ان هذا سوف يكون امتحانا لنفسى ، وتشجيعا أدبيا لك على
 أن تنفذى عزمك . » فتركتنى وشأنى قائلة

- « انك عنيد جداً . انك لن تصنى لأحد » . وفاضت عيناها

بدمع غزير .

انى أريد أن أعد هذا الحادث كمثل على قوة الستياجراها ، وهو بحو
 من أحلى الذكريات التى أذكرها فى حياتى .

بعد هذا بدأت كسترباى تسترد صحتها بسرعة . ولا أستطيع أن
 أقول أكان هذا راجعاً إلى الأغذية الخالية من الملح والبقول ، أم
 الى التغيرات الأخرى التى تترتب على مثل هذا العمل ، أو كان سببه

شدة مراسى فى متابعة قواعد محدودة أتبعمها فى حياتى ، أم إلى تأثير الصدمة العقلية التى استدعتها الحادثة . والواقع أنها أخذت تستعيد صحتها بسرعة ، ووقف الزيف ، وكسبت أنا شهرة أخرى بأنى طبيب روحانى .

أما أنا فشعرت بأن حالتى أحسن باتباع النهج الجديد . ولا أنذكر أنى رغبت فى الأشياء التى عاهدت نفسى على تركها . ومرت السنة فوجدت أن حواسى أشد خصوصاً لارادتى مما كانت . وكانت التجربة سبباً فى أن يزداد ميلى الى ضبط النفس فمضيت أراعى ذلك النهج مدة طويلة بعد عودتى إلى الهند .

ولقد فرضت علاج الاقلاع عن الملح والبقول على كثير ممن كانوا يعملون معى فى جنوبى افريقية فأتتج العلاج نتائج باهرة . أما من الوجهة الطبية فالرأى ينقسم ، ولكن أدبياً فأنى مقتنع بأن كل انكار للذات مفيد للروح . ان الغذاء الذى يعكف عليه الرجل الذى يضبط نفسه يجب أن يختلف عن الغذاء الذى يعكف عليه الرجل الذى ينشد الملذات . فهما يختلفان فى هذا اختلافهما فى بقية طرق الحياة .

ان الذين يتطلعون الى « البرهماشاريا » غالباً ما يهزمون ويفقدون القدرة على الوصول الى عايتهم ، باتخاذ طريق فى الحياة لا يعكف عليه الا المكبون على الملذات

الفصل الثالث عشر

تثقيف الروح

كان تثقيف الأولاد الروحي مهمة أشق بكثير من تربيتهم الجسمية وتثقيفهم العقلي . وقلما كنت ألجأ الى الكتب الدينية لابلغ الى ما أرى اليه من هذا التثقيف . وبالضرورة كنت أعتقد أن كل تلميذ لابد من أن يلم بعناصر دينه وأن يكون على معرفة بكتبه المقدسة . وعلى هذا أخذت أعد مثل هذه المعرفة والفنها لهم على قدر ما أستطيع . غير انى كنت أعتقد أن هذا جزء من التثقيف العقلي . وكنت قبل أن أشغل نفسى بتعليم الأطفال فى مزرعة تولستوى - بالقرب من جوها بسبرج وعلى غرار مستعمرة القنعاء - قد تحققت أن تثقيف الروح شىء مستقل بذاته . ومن أجل أن تقوى الروح ، عليك أن تنى الأخلاق وأن تكون لديك معرفة بالله وأن تعمل على تحقيق ذاتك . بل اوقن بأن ذلك أمر جوهرى فى تربية الأطفال . وأن كل ضروب التربية والتعليم من غير تثقيف الروح لغو بل عدم ، ان لم يكن ضررها أكبر من نفعها وكيف اذن وعلى أية قاعدة القن الصغار هذا التثقيف الروحي ؟ أخذت أقرأ لهم فصولا من كتب فى الثقافة الأدبية . ولكن كان هذا بعيدا عن

ان يرضينى . ولما بدأت صلتى بهم تشتد ونقوى ، وجدت أن تثقيف الروح لن يكون من طريق الكتب ، وكما أن التربية الجسمية لا تكون الا من طريق مراعاة الجسم ، وكما ان التثقيف العقلى لا يكون الا بالمرانة العقلية ، كذلك التهذيب الروحى لن يكون الا بالمرانة الروحية . وهذا يتوقف أكثره على حياة المعلم وأخلاقه . وانه لمن السخافة أن أكون كذوباً سم أحاول أن اعلم الأولاد الصدق . ومعلم جبان لن ينجح فى أن يعلم الأولاد الشجاعة والاقدام ، ورجل بعيد عن القدرة على ضبط النفس ، لن يتمكن من أن يعرس فى تلاميذه تقدير فصيلة ضبط النفس . فبدالى أن أكون للأطفال ذكوراً وانا نأ درساً عملياً ومثالاً حياً ينفذ ما يريد أن يغرس فيهم من الفضائل . ومن هنا انقلبت الآية فأصبح الأطفال لى معلمين عالموى ضرورة أن أعيس خيراً مستقيماً ، ولو من أجل أن أصرب لهم المثل الأعلا . وقد أقول ان مراعاة النظام والقيود التى قيدت بها نفسى فى مزرعة تولستوى، ترجع فى الغالب الى حكم هؤلاء الأطفال الذين كنت أقوم على تثقيفهم .

كان أحدهم وحشى الطبع ولا يخضع لنظام ، كثير الكذب والخصام . وغلب عليه طبعه مرة فانفجر وتبدل . وغضبت واهتاجت أعصابى . ولم أكن قد تعودت على أن أفرض عقاباً على تلاميذى ، ولكن هذه المرة امتلكنى الغضب . غير انى حاولت مع هذا أن اناقشه وأنفاهم معه ، فكان عنيداً ، وزاد تبذله بأن حاول أن يحتال على ويخدعنى . فلم

أطلق على هذا صراً وأمسكت بمسطرة كانت قريبة منى وضربته على ذراعه . بيد أنى انتفضت عندما صرته ، وانى لعل يقين من أنه لاحظ اضطرابى . ولا شك فى أن هذا الحادث كان جديداً عليهم أجمعين . فصاح الولد وأخذ يسألنى الصفح والمغفرة ، ولا رية فى انه لم يصح لان الضربة آلمته الى هذا الحد ، بل كان فادراً على أن يكيل لى من نفس ما كلت له وأزيد ، فقد كان ولداً مستوى الجسم قوى الاعصاب فى السابعة عشرة من عمره . ولكن الحقيقة انه صاح مقدراً قيمة الألم الذى شعرت به ، لأنى اضطرت الى اللجوء الى هذه الوسيلة . ولم يعد هذا الولد بعد ذلك الى عنادى وعدم طاعنى . وما أزال حتى الآن أستغفر عن هذا العنف الذى اضطرت اليه مرعماً . وانى لأحشى أن أكون قد كشفت له فى ذلك اليوم عن وحسى الكامنة ، لاعن روحى الشفافة الوديلة .

كنت على الدوام من الذين يعارضون فى العقاب البدنى . وأنذكر مرة واحدة اضطرت فيها أن أعاقب أحد أبنائى عقاباً جسانياً . ومنذ ذلك الحين حتى اليوم لم أستطع أن أستبين ما اذا كنت محقاً أو مخطئاً فى استعمال العصا . ومن الراجح ان ذلك كان مسلكاً غير قويم ، لأنى وقعت عقاب العصا تحت تأثير الغضب والرغبة فى ازال العقاب ، ولو أن ذلك العقاب كان مجرد تعبير عن ضيق صدرى وغمى ، اذا لا عبرت انه أمر مرر . ولكن الباعث فى الحال التى ذكرتها كان مزيجاً من

الاثنيين . من الغضب والاسى معاً . وحفزنى هذا الحادث الى التفكير
وعلمنى طريقاً أمثل من هذا فى تقويم الأطفال . ولست أعرف الى أى
حد تجدى هذه الطريقة المبكرة فى الحادث الذى رويته . فان ذلك
الفتى سرعان مانسى الحادث تماماً ، ولا أظن أن سلوكه تحسن تحسناً
ظاهراً . غير ان الحادث جعلنى أفهم على وجه أكمل ماهو واجب المعلم
ازاء تلاميذه . ولقد تكررت بعد ذلك الحوادث التى أظهر فيها الفتیان
سوء السلوك ، ولكنى لم ألحاً قط إلى العقاب البدنى . ولقد تحققت
أثناء محاولتى أن أثبت فى الأولاد والبنات مبادئ الثقافة الروحية ،
انى استطعت أن أفهم شيئاً بعد شىء قوة الروح وأثرها الاسمى .

كان فى مزرعة تولستوى ان وجه مستر كالنباخ نظرى إلى مشكلة لم
أكن قد فكرت فيها من قبل . فقد سبق لى أن قلت ان بعض الفتیان
فى المزرعة كانوا سيئى السلوك بعيدين عن مراعاة النظام والقواعد ،
وكان من بينهم كسالى وبلداء . ومع هؤلاء أخذ يختلط أولادى الثلاثة
كل يوم ، كما يختلط غيرهم من الأولاد الذين هم على شاكلتهم . وهذا جعل
مستر كالنباخ فى قلق . ولكن انبهاه انصرف الى انه من عدم الكياسة
ان أجعل أولادى يختلطون مع هؤلاء الفتیان . وقال لى يوماً :

« ان طرقتك فى أن تجعل أولادك يختلطون مع هؤلاء الفتیان لا
أوافق عليها . ان أولادك سوف تنحط أخلاقهم من طريق هذه العشرة
السيئة » . ولا أذكر ان هذا الاشكال الذى وجهنى إليه مستر

كالنباخ قد أقلقني حينذاك ، ولكنى أذكر ما قلت :
 « كيف أستطيع أن أفرق بين أولادى وبين هؤلاء الكسالى السيئى
 السلوك ؟ انى أعتز نفسى مسؤولا بدرجة واحدة عن الجميع . وهؤلاء
 الفتيان لم يحضروا إلى هنا إلا لأنى دعوتهم للحضور . والحق الذى لا
 أخفيه عليك انهم وأولياء أمورهم يعتقدون انهم بحضورهم الى هنا قد
 ألزمنى بواجبات ومسئوليات . وأنا وأنت تعرف، أو كنا نعرف، انهم
 بحضورهم الى هنا سوف يحدثون لنا بعض المتاعب . كان يلزمنى أن
 يحضر هؤلاء الفتيان الى هنا ، وعلى هدا يجب على أولادى أن
 يخالطوهم ويعيشوا معهم . ومن المحقق أنك لاتريدنى أن أغرس فى روع
 أولادى انهم مفضلون على غيرهم . ولئن تغرس فى عقولهم فكرة انهم
 أفضل من غيرهم، فان معناه أنك تقودهم فى طريق الغواية. واشترأ كههم مع
 بقية الأولاد يعودهم النظام ، فضلا عن انهم سوف يقتدرون من هذه
 الطريق أن يميزوا لأنفسهم بين الخير والشر ، وبين الصالح والطالح .
 ولماذا لا تعتقد انه اذا كانت فيهم ناحية من الخير فسوف تترك أثرها
 الثابت فى غيرهم من الصبيان ؟ ومهما يكن من الأمر ، فانى لا أستطيع
 أن أتفادى اختلاط أولادى بهم ، واذا كان فى هذا بعض المخاطرة ،
 فواجبنا أن نصمد لها . »

فهز مستر كالنباخ رأسه . ولكن النتيجة لم تكن سيئة على ما رأيت
 فيما بعد . فان أولادى لم يصبحوا أسوأ مما كانوا . فضلا عن أنى رأيت

أهم جنوا ثمرة ما . رأيت أنه اذا كان قد عرس فيهم الغرور شيئاً من شعورهم بالأفضلية فان هذا قد محى أثره ، وتعلموا أن يختلطوا مع كل الأولاد من غير مراعاة ليوهم أو نزعاتهم . رأيت أنهم مرنوا وعودوا النظام . وهذه التجربة وأسبأها علمتني أنه اذا نشأ أولاد حيرون مع أولاد شريرين واختلطوا بهم ، فان الخيرين ان يفقدوا شيئاً من نزعتهم، على شرط أن تقوم التجربة تحت أعين آبائهم وأولياء أمورهم .

ولا يستتبع ذلك ضرورة أن الأولاد الذين يتساون مختلطين يكون احتلاطهم حافظاً لهم من الغواية أو عدوى الأخلاق . والحى أنه عندما يختلط الصبيان والبنات على اختلاف نسلتهم وتعلمون فى سعيد واحد ، فان الآباء والمعلمين يواجهون من تلك الحال تجربة من أقسى التجارب . لأن الواجب يقضى عليهم أن يكونوا دائماً على حذر وانتباه .

أخذت اثنين شيئاً بعد شىء مقدار الصعوبات التى يواجهه الانسان اذ يعتمد أن يربى ويعلم صبياناً وبنات معاً على طريقة مثلى . فاذا كنت ذلك الرجل الذى يعهد اليه بتنشئتهم أو أنى كنت من أولياء أمورهم ، اذن لا أخذت أمتحن قلوبهم ، ولساهمت معهم فى المسرات والأحزان ولساعدتهم فى حل المشكلات التى تعرض لهم ، ولا تبعت معهم السبيل الأقوم فى أن أستشف آمالهم الفتية وأشارهم فيها . حدث عندما كنت فى جوها نسبرج أن وصلتني أخبار سقوط اثنين من أعضاء المدرسة

سقوطاً أدبياً . وان أخباراً تصلني عن سقوط رجال يمارسون « الستياجراها » وهم يجوبون معركتها لن تصدمني أو ترزعجني . ولكن هذا الخبر انقص على رأسى انقصاص صاعقة غير منتظرة . وفي نفس اليوم أخذت القطار إلى العنقاء . وصمم مستر كالنباخ على أن يرافقني فقد لاحظ اضطراري وحزى . ولم يسأ أن يتركني أذهب بمفردى لأنه هو الذى حمل إلى تلك الأخبار التى اهتاحتني وأحزنتني . وبينا أنا في الطريق استنارت بصيرتى فرسمت الحطة التى أتبعها . شعرت بأنه اما أن يكون المعلم أو يكون ولى الأمر ، مسؤولا الى درجة ما عن سقوط هذا التلميذ . وفي الحال تحددت مسؤوليتى ازاء هذا الحادث تحديداً وضح لى كآته الصبح الأبلج . وكانت زوجتى قد حذرتنى ، ولكن لما كان طبعى يميل الى النسيام وبأنف من المحادرة ، لم أحفل بتحذيرها . وكذلك شعرت بأن اللدبن ارتكما هذه الخطيئة قد يحققان شيئاً من حزنى وألمى ومقدار ما فى عملهما من شناعة اذا أنا فرضت على نفسى عقاباً أدبياً أستغفر لهما به عن ذنبهما . وسرعان ما نفذت . فنذرت صوم تسعة أيام وعهداً بأن لا أتعاطى الا وجبة واحدة أربعة أشهر ونصفا . واجتهد مستر كالنباخ فى أن يجعلني أقنع عن عزى ، ولكن ذهبت توسلاته سدى . وفي النهاية سلم بتنفيذ هذه الكفارة ، ولكنه لم يسلم بها الا ليشاركنى فيها . فلم أستطع أن أقاوم ارادته الحية وعطفه الحار . بعد أن عقدت عزى هذا شعرت بأن عبثاً ثقيلاً أزيح عن عقلى ،

وأحسست نأني راض مستريح الضمير الى حد بعيد ، ولطف عضبي على المجرمين ، وحل محله احساس بالعطف والشفقة عليهما . وعلى هذه الحالة النفسية وصلت مستعمرة القنعاء . وفمت بإبحاث أخرى وفحست الأمر وعرفت بعض التفاصيل التي كنت في حاجة الى معرفتها . غير ان كفارتي آلمت كل انسان ، ولكنها طهرت الحو وصفته من الأكدار . وأخذ كل انسان يشعر بمقدار البشاعة التي تنطوي عليها الخطيئة ، كما ان الرابطة التي كانت تربطني بالأولاد وبالبنات أصبحت أقوى وأصل . وتقد وقع بعد ذلك بقليل حادث له اتصال بهذه المناسبة ، أرغمني على أن اكفر عنه بصوم دام أربعة عشر يوماً ، فكانت النتيجة أعظم بكثير مما كنت أنتظر .

وليس من غرضي أن أستنتج من هذه الحوادث أنه على المعلم أن يفرض على نفسه صوماً لمدة تطول أم تقصر تكفيراً عن ذنوب تلاميذه . ولكني أحكم بأن هنالك بعض حوادث تستدعي اللجوء الى هذا الدواء القاسي العنيف . ان هذا النهج ينبيء بدياً بنفوذ البصيرة وقوة الروح . وحيثما يحدث أن يفقد الحب والعطف بين المعلم والتلميذ ، أو ان لاتمس خطيئة التلميذ أعماق المعلم النفسية ، أو حينما يفقد الاحترام بينهما ، فاني أعتقد ان الصوم لا يكون له من محل ، وربما كان ضرراً بالغاً . وعلى الرغم من أن تساورني الشكوك في ما يحتمل أن يكون من نتائج الصوم في مثل هذه الحالات ، فاني لأشك في أن المعلم انما يحمل مسؤولية

كبرى تلقاء الخطايا التي يقع فيها تلاميذه .

ان تنفيذنا لأول كفارة لم يكن صعباً علينا . ولم أشعر بأنى فى حاجة لأن أعطل شيئاً من أعمالى العادية ، ولى أن أذكر أى كنت فى ذلك الوقت أعيس على الفواكه الصرفة . أما الصيام الثانى الذى فرضته كفارة على نفسى ، فقد شعرت خلاله بكثير من التعب فى بصفه الأخير . والسبب فى هذا أنى لم أكن قد فقهت على صورة بينة قيمة « الرامانا » وأثرها ، فكانت فدرقى على احتمال المشقات أقل مما هى الآن . وفوق ذلك فانى لم أكن أعرف الطريقة العملية التى يجب أن تتبع فى الصوم وعلى الأخص ضرورة تعاطى كميات كبيرة من الماء ، مهما شعر الانسان مع نعاطيها من الغثيان وسوء الطعم . ولم أشرب أثناء صيامى الثانى الا قليلا من الماء ، فكان كره الطعم ، وكنت أشعر مع نعاطيه بغثيان . وبدأ مريئى يجف وأحس فيه بضعف ظاهر ، وفى خلال الأيام الاخيرة لم أستطع الكلام الا بصوت خافت جداً . وعلى الرغم من هذا كنت أؤدى أعمالى بطريق الاملاء عندما أحتاج إلى كتابة شىء . فلما اعتدت أن يقرأ لى بانتظام مقاطع من « الرامانا » وغيرها من الكتب المقدسة ، بدأت أشعر بأن عندى من القوة ما يكفى أن أناقش وأبدي رأى فى كل المسائل المستعجلة .

لقد وقعت لى فى حياتى حوادث كثيرة جعلتنى أحتك بكثير من الناس وبعدد غديد من الجماعات ، فلم أشعر فى خلال كل التجارب التى

وقعت لى معهم أنى أشعر بأقل فارق بينهم سواء أ كانوا أقارب أم أباعد ،
 من قومى أم أجنب ، بيضاً أو من ذوى الألوان ، هندوكيين أم من
 غيرهم من الطوائف ذوى العقائد الاخرى ، مسلمين أو فارسيين أو
 نصارى أو يهود . وأقول موقناً بأن قلبى لم يتسع يوماً ما فى حياتى
 للشعور بمثل هذه الفروق . على انى لا أدعى أن هذه فضيلة خاصة لى ، لاهيا
 كانت جزءاً من طبعى وقسماً من فطرتى ، ولم تكن نتيجة مراعاة عكفت
 عليها أو غرض سمعيت اليه ، على الضد مما كان شأنى فى مراعاة « الالهسا »
 (عدم العنف) والبراهما شاريا (العزوبة) وغيرها من الفصائل العليا .
 فان هذه فضائل مرنت عليها واكتسبتها اكتساباً

ولما كنت أستغل بالمحامة ، كان كتبة مكتبى يقيمون معى ، ومن
 بينهم هندوكيون ونصارى . وانى لا ذكر انى كنت أعاملهم دائماً كما لو
 كانوا من أهلى وذوى قرابتى ، بل كنت أتصرف معهم كما لو كانوا من
 أسرتى ، وكثيراً ما كنت أختلف وأعارك زوجى اذا هى حاولت أن
 تقف فى طريق معاملتى اياهم على هذا الاعتبار . وكان أحدهم نصرانياً
 منحدرا من سلالة من الانجاس Panchawa

كانت حجرات المنزل مشيدة على الطريقة الغربية ، وليس لها منافذ
 الى الخارج مباشرة . وكانت كل حجرة مهيأة بآنية الفسيل والأدوات
 الاخرى . وعلى الرغم من أنى كنت أعهد بنظافة هذه الأشياء الى خادم ،
 كنت دائماً الاحظها بنفسى أو تلاحظها زوجى . وكان الكتبة يقومون

بتنظيف أدواتهم بأنفسهم لأنهم كانوا يعتبرون البيت بيتهم . ولكن الكاتب النصراني كان جديداً في العمل، وكان من واجبه القيام بملاحظة حجرته . وكانت زوجي تلاحظ حجلات الآخرين ، غير أنها كانت ترى أن مدى قيامها بمثل هذه الواجبات تقف عند الحد الذي تكلف فيه بملاحظة أدوات شخص من الأنجاس، فاختلنا . ولم تكن تحتل أن تراني أعنى بتنظيفها ، في حين أنها تأنف أن تقوم هي بهذا العمل . واني ما أزال أذكر حتى اليوم صورتها وهي تحجدي بنظراتها، وقد احمرت عيناها من الغضب وتساقطت منها الدموع ، وقد أخذت تهبط السلم وفي يدها الطسوت . ولكني كنت زوجاً قاسياً في ذلك الوقت ، وكنت أعتبر أنني معلمها ومتفهمها ، فأخذت أوزيها وأولها من طريق حبي لها . ولا شك في أنني كنت بعيداً عن أن أقنع بأن أراها تحمل الطسوت في يديها . بل كنت أريد أن تقوم بهذا العمل مغتبطة مسرورة . فقلت لها رافعاً صوتي - « اني لا أستطيع أن أرى مثل هذه الترهات في منزلي » .

ولقد اخترقت هذه الكلمات قلبها كما لو كانت سهماً دامياً، فأجابني في غضب - « دع بيتك لك اذن واركض اذهب » . فنسيت في تلك البرهة نفسي، وجفت من روحي احساسات العطف والشفقة، وأمسكت بيدها وسحبت المرأة المسكينة نحو الباب الخارجى الذى كان يقع قبالة

(م - ١٥)

السلم ، وعالجت فتحه لأقذف بها إلى الخارج . وكانت الدموع تنهمر من عينيها غزيرة كثيرة ، والتفتت إلى قائلة - « ألا تشعر بخجل ؟ هل لزام عليك أن تنسى نفسك الى هذا الحد ؟ إلى أين أذهب ؟ ليس لى أب ولا أم ولا أقارب فى هذا الثغر . ولأننى زوجتك يخيل إليك أن علىّ أن أحتمل اهاناتك ، وردائك . فشب الى نفسك بحنى السماء واغلاق الباب . ووفر علينا أن نظهر أمام الناس بهذا المظهر » .

فتظاهرت بالشجاعة ، ولكن الخجل كان قد ملكنى وغلبنى ، فأقفلت الباب . وإذا كانت زوجى لم تستطع تركى ، فانى لم أكن لأستطيع تركها . ولقد كان لنا كثير من المشاحنات ، غير أنها كانت تنتهى بسلام . ولا أنكر أن زوجى بما كانت تظهر من القدرة على الاحتمال ومعالجة المسكاره ، كانت دائماً تنتصر علىّ .

انى اليوم فى مركز أسه تطيع فيه أن أروى هذه الحادثة بشيء من التفصيل ، لأنها انما وقعت فى عهد تحللت أنا من قيوده تماماً ، وخرجت من حماته لحسن حظى . انى لم أعد ذلك الزوج الأعمى المتشامخ ، ولم أعد معلمها ومثقفها ، وفى استطاعتها اليوم أن تسقينى بكأس أشد مرارة من الكأس الذى سقيتها به . لقد أصبحنا صديقين مجربين ، فلا ينظر أحدهما لصاحبه باعتباره موضعاً للشهوة . لقد خدمتنى ومرضتني أثناء مرضى باخلاص تام ، من غير أن تفكر فى أن أ كافئها بشيء تلقاء اخلاصها .

وليس لأحد أن يستخلص من كل الرواية التي أروىها عن ذكريات
أعتقد أنها مقدسة، أننا زوجين متماثلين أو أن بيننا توافق في الصفات التي
تعود كلا منا في الحياة . على أن زوجي لا تعرف ان كان لها في الحياة
آيات عليا غير الغايات التي أتطلع اليها . غير أن بعض أعمالى حتى اليوم
لا تحوز موافقتها ورضاها . وبرغم هذا فاننا قلما تتناقش فيها ، لأنى
لا أرى خيراً فى أن تتناقش . ذلك لأنها لم تتعلم . فلا أبواها عنيا بذلك
ولا أنا عنيت به عند ما كان الواجب يدعونى الى ذلك . ولكن المراحل
العلوية زودتها بصفة عليا تشترك معها فيها كل زوجة هندوكية . فانها
سواءً بارادتها أم رغما عنها ، وسواء أبوعيا أو بعقلها الباطن ، كانت
تتبع خطواتى ، ولم تقف يوماً واحداً فى وجهى لتحول بينى وبين اتباع
خطة فى الحياة أضبط فيها نفسى الضبط الذى أريد . ولذلك ترى أنه على
الرغم من أن بيننا فرقا كبيراً من حيث العقلية ، فانى كنت أشعر
دائماً أن حياتنا حياة قناعة ورضاً وسعادة وضرب الى الامام

الفصل الرابع عشر

الستيا جراها في ناتال

وقعت حادثة اضطررنا معها الى تطبيق مبدأ الستيا جراها في ناتال عقب مغادرة مستر « جوكهال » - Gokhale - لجنوب افريقية ^(١) . وظن « جوكهال » ان ضريبة الثلاثة جنيهات سوف تلغى في بحر سنة ران القانون بالغائها سوف يعرض على برلمان اتحاد جنوب افريقية في الدورة المقبلة . ولكن على الضد من ذلك صرح جنرال « سمطس » من فوق منصة البرلمان ان حكومة الاتحاد لاتستطيع أن تتقدم بقانون يرمى الى الغاء هذه الضريبة مادام الأوروبيون في جنوب إفريقيا يعارضون في الغائها . ولم يكن في هذا القول ظل من الحقيقة . ذلك لأن الأعضاء الذين كانوا يمثلون ناتال لم يكن لديهم من القوة ما يكفي للتأثير في الأعضاء

(١) مستر « حوكهال » محام وزعيم هدى حضر الى جنوب افريقية ليعاوض الحكومة في رفع صربية جائزة فرصت على كل هدى من الأجراء يسهى عقده ويصبح حراً في عمله وقدرها ثلاثة جنيهات على كل شخص رجل أو امرأة أو طفل . وكان العرض من هذه الضريبة أن يضطروا للعودة الى العمل بالعقود ، وفي هذه الحالة ترفع عنهم الضريبة . وقد غادر « جوكهال » جنوب افريقية وهو يعتقد ان هذه الضريبة ستلغى .

الذين يمثلون أربع الولايات معاً . ومن ناحية أخرى كان الواجب يدعو جنرال « سمطس » أن يتقدم بمشروع القانون عن الوزارة الى البرلمان ويترك الأمر تجرى به الظروف بما بقدر لها . ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا ، وزودنا في الوقت نفسه بفرصة كنا نترقبها تضمنت كل الأسباب المغرية على أن نعلن على الحكومة « الحرب » . ولقد اعتمدنا في اعلان الحرب على سببين . الأول أننا اذا فرض وأعلنت الحكومة خلال المعركة عهداً جديداً ثم أخذت تراوغ لسجبه ، فاننا لا نخسر شيئاً بأن نتابع الجلاذحتى ننال بغيتنا بالغاء القانون . والثاني : ان تحلل الحكومة من عهد قطعت له لزعيم مثل « جوكهال » هبط جنوب افريقية بصفته ممثلاً للهند ، لايعتبر اهانة شخصية له فقط ، بل يعتبر سباً علنياً للهند جمعاء وسخرية بها ، ولذا لا يمكن أن نقضى عنه ونهمله .

وأصبح من المستحيل علينا أن نقضى عن اهانة تلحق بوطننا ، ولذا دب فينا الشعور بأن على الذين يقومون بحركة الستيا جراها أن يدخلوا ضريبة ثلاثة الجنيهات في برنامجهم . وما دامت هذه الضريبة قد دخلت ضمن الأغراض التي نسعى اليها من وراء المعركة ، فان الاجراء ذوى العقود لا بد ان ينضوا تحت لواء « الستيا جراهيين » ويشتركوا في الحركة بقلوبهم . ولا ينسى القارىء ان هذه الفتة ظلت حتى ذلك الوقت بعيدة عن الاشتراك في الجهاد . ولا شك في ان هذا التوسع الذي أصاب سياستنا قد زاد المسؤولية التي نشعر بها من جهة ،

وفتح أمامنا ميداناً جديداً نحصل فيه على متطوعين يؤمنون بمبدئنا من جهة أخرى .

وحتى ذلك الحين لم تكن كلمة « الستيا جراها » من الأشياء التي تجرى على ألسنة الأجراء ذوى العقود ، كما انهم لم يكونوا قد تعلموا كيف ينفذونها من طريق عملي أو يشتركون فيها . ولما كان أكثرهم أميين ، لم يطلعوا على ما كان ينشر في جريدة «الرأى الهندى» أو غيرها من الصحف . غير انى مع هذا وجدت ان هؤلاء المساكين كانوا يرقبون المعركة عن كثب ، وكانوا يفهمون طرفاً منها ، فى حين أن بعضهم كثيراً ما أبدى أسفه لعدم قدرته على الاشتراك فيها والانتظام فى صفوفها . ولكن لما كسر وزراء حكومة الاتحاد كلمتهم ونقضوا عهدهم ، ودخات ضريبة ثلاثة الجنيهات ضمن برنامجنا ، خيل الى أن الجميع سوف ينضوون تحت، لوائنا .

وكتبت الى «جوكهال» ابنه بنجر النكوص عن العهد الذى عاهده عليه وزراء حكومة الاتحاد ، فكان ألمه بالغاً وأسفه شديداً . ولكنى عرفتة بأن يطمئن للحالة وأن لا يقلق علينا ، وأكدت له اننا سوف نحارب حتى الموت واننا سوف ننزع من حكومة الترنسفال قانوناً بالغاء الضريبة . وعلى هذا اثبتت عن عزمى الذى كنت عزمته على الرجوع الى الهند فى خلال عام ، وأصبح من المستحيل على أن أعرف متى أعود اليها . وكان « جوكهال » رجل حقائق لا رجل نظريات . فكتب الى

لكي أطلعه على أقصى وأقل ما يمكن أن نجد من رجالنا في جيش السلام، مع كشف مفصل بأسمائهم . وعلى قدر ما أستطيع أن أذكر الآن أرسلت إليه كشفاً يتضمن خمسة وستين أو ستة وستين اسماً كالحد الأقصى وستة عشر كالحد الأدنى ، وأخبرته اننى لن أنتظر أية مساعدة تأتى من ناحية الهند للقيام بمساعدة مثل هذا العدد الضئيل .

وبينما كنا نعد المعدات اللازمة لنقوم بالمعركة ، وقع حادث جديد زاد فى آلامنا وأمض نفوسنا ، ولكنه فتح باب العمل حتى للنساء كي يشتركن فى العمل ويغضن معنا المعركة ، على ان بعض المقدمات منهن كن قد وعدن بالاشتراك فى الحرب ، حتى ان الستيا جراهيين عندما سجنوا لانهم مارسوا بيع سلعهم من غير أن يكون معهم ترخيص ، عبر نساؤهم عن رغبتهم فى أن يحذون حذو الرجال . ولكننا لم نوافق على أن نرسل النساء الى السجون فى بلاد أجنبية .

ومن غير أن يستبين أحد منا أى شىء ، كان الله يعد لنا أسباب الانتصار ، فدفع الاوروبيين الى الظلم حتى ظهر جلياً واضحاً ، وحدث ما لم يدر فى روع أحد أن يحدث .

وفد على جنوب افريقية عدد عديد من الرجال المتزوجين من الهند ، بينما تزوج بعض الهنود فى جنوب افريقية . وليس فى الهند قانون يحتم تسجيل الزواج العادى ، ويسعناض عن تسجيل عقود الزواج بالاحتفالات الدينية التى تعطى العقد صبغته القانونية . فالواجب اذن يقضى بأن تحترم

هذه العادة في جنوب إفريقية . وبالرغم من أنها عادة محترمة فان الهنود نزلوا جنوب افريقية منذ أربعين سنة (قبل سنة ١٩١٣) وشرعية عقود الزواج التي عقدوها طوال هذه المدة لم تكن موضع مناقشة أو حوار يوماً من الأيام . ولكن حدث في ذلك الوقت أن نظرت قضية أمام القاضي « سيرل » Searle رئيس محكمة مقاطعة الكاب العليا ، وأصدر فيها حكماً بتاريخ ١٤ مارس سنة ١٩١٣ قضى فيه بأن كل زواج عقد في جنوب افريقية يكون خارجاً عن حدود الزواج الشرعى ، مالم يكن قد عقد على مقتضى المراسيم النصرانية وسجل أمام مسجل عقود الزواج .

ولقد قضى هذا الحكم المزعج بحجة قلم واحدة على كل زواج عقد في جنوب افريقية على مقتضى المراسيم الهندوكية والاسلامية والزرادشتية . وأصبح كل الزوجات الهنديات بمقتضى هذا الحكم لسن زوجات شرعيات لأزواج شرعيين ، ونزلوا الى مرتبة الجوارى والاماء ، بينما فقد أولادهم الحق في أن يرثوا ما يملك آبائهم ، فأصبحنا رجالاً ونساء في موقف حرج لا يمكن احتمال ما يترتب عليه من النتائج ، وحزت هذه السخرية في قلوب الهنود فهاجتوا وغضبوا .

وجرياً على عادتي كتبت للحكومة لاعرف رأيها في الأمر، وهل هي توافق على الحكم الذي أصدره القاضي « سيرل » ، وعما اذا كانت مستعدة ، في حالة ما اذا اعتبر تفسير القاضي صحيحاً ، أن تحور

القانون حتى يعترف بشرعية عقود الزواج الهندية التي عقدت حسب العادات الدينية التي يعتنقها المتزوجان في كل حالة من الحالات والتي تعتبر في الهند مشروعة معترفاً بها . وكانت الحكومة اذ ذاك في حالة نفسية يصعب عليها فيها ان تصنى وان تصيح بسمها للشكوى ، أو ان تستبين طريق الرشاد فتجيب ما طلب منها .

فعقدت جمعية « الستياجراها » اجتماعاً لتنظر هل تستأنف ضد الحكم الذي أصدره القاضي « سيرل » ، ولكن انتهت المناقشة بأنه يستحيل علينا أن نستأنف قانوناً في مثل هذه الحال . لأن الاستئناف لا يقبل في مثل هذه الحال إلا من طريقين . فاما أن تستأنف الهيئة الحاكمة اذا فضلت ذلك ، واما أن يستأنف الهنود أنفسهم ، اذا عاونتهم الحكومة علنا وأوعزت إلى المدعى العمومي أن يقوم بعمل الاستئناف . وفي احدى هاتين الحالتين يقبل الاستئناف قانوناً . أما ان نستأنف من غير أن نثق بأن أحد الطريقين ممهد ، فمعنى هذا أننا نقبل الاعتراف بعدم شرعية عقود الزواج المعقودة بين الهنود . واذن وجب أن نلجأ الى عمليات الستياجراها ، حتى ولو قمنا بعمل الاستئناف ورفض فعلا . وفي هذه الحال يحسن أن لا نلجأ الى الاستئناف لنحو به مثل هذه الاهانة الكبرى .

وساورتنا أزمة شديدة ، اذ شعرنا بأنه يستحيل علينا أن ننتظر يوماً أو ساعة معينة . وأضحى الصبر مستحيلاً ازاء هذه السبة الشديدة التي

وجهت الى شرف نساءنا . وعلى هذا عزمنا على أن نقوم بعمل « الستياجراها » وبعناد من غير أن نأبه لعدد الذين يخوضون المعركة منا كبر أم صغر . وهنا لم نفكر في أن نمنع النساء عن الاشتراك في المعركة ، بل صممنا على أن ندعوهن كي يشاركن الرجال في العمل . وبدأنا بدعوة الاخوات اللاتي يعشن في مزرعة تولستوى ، فوجدت أنهن مغتبطات بخوض غمار هذه الحرب . غير أنى فضلت أن أبين لهن المخاطر التي قد يتعرضن لها من جراء اشتراكهن في مثل هذا العمل ؛ وأظهرت لهن أن عليهن أن يفرضن على أنفسهن ضوابط خاصة من حيث الغذاء والملبس وبقية الضرورات الأخرى وعلى الأخص الكماليات . وحذرتهن من أن يفرض عليهن شغلا شاقا في السجن ، فيغسلن ملابس أو يشتمهن السجنانون . ولكنهن كن بإسلاط ولم يداخلهن خوف من مثل هذه التحذيرات . وكانت احداهن على وشك الوضع ، وكانت ست أخريات يحملن أطفالا على أذرعتهن . ولكنهن كن جميعاً صامدات للحرب والعراك مغتبطات بالاشتراك في الجلال ، فلم أرد أن أقف حائلا دون رغبتهن . وكن جميعاً من « التاميل » -

Tamilians

على أن من السهل أن يدخل الانسان السجن جانياً معتدياً ، ولكنه من أصعب الأشياء أن يسجن المرء رغم أنه برىء . والمجرم إذا خشي القبض عليه هرباً ، فيتعقبه رجال الشرطة ليقبضوا عليه . ولكنهم

انما يقبضون على الرجل البرى الذى يسمى لأن يقبض عليه حراً مختاراً، فى الوقت الذى لا يجدون فيه مناصاً من القبض عليه . ولم تفلح أول محاولة قمن بها . وانحصرت محاولتهن فى اجتياز حدود الترنسفال عند بلدة تدعى « فرينيجنج » - Vereeniging - من غير تصريح باجتياز التخوم . ثم عمدن إلى بيع السلع من غير رخصة ، ولكن البوليس لم يشأ أن يتعرض لهن . وأصبحن فى مشكلة كيف يقبض عليهن ؟ ولم يكن لدينا من الرجال عدد كاف على استعداد لأن يدخلوا السجن ، والذين كان عندهم هذا الاستعداد كانوا فى حيرة من أمر الطريق الذى يتبعونه ليدخلوه .

عند ما وصلت الأمور إلى هذا الحد عزمنا على تنفيذ خطة كنا استبقيناها لحين الحاجة إليها ، فنجحت وحقت رغباتنا . وكنت قد فكرت فى أن أضحي بكل المقيمين بمستعمرة العنقاء فى الوقت الذى تشتد فيه الحاجة إلى مثل هذا العمل . وكانت هذه الوسيلة آخر ما أقدم من قربان لآله الحق والعدل . والمقيمون فى العنقاء كانوا جميعاً من ذوى قرباى ومن الذين عاونونى فى العمل . واستقرت الفكرة على أن نرسل بهم جميعاً الى السجن ما عدا القليل منهم ليقوموا بشؤون « الرأي الهندى » والذين يعنون بالأولاد الذين هم دون السادسة عشرة من العمر . وكانت هذه هى التضحية الكبرى التى أستطيع أن أقدمها فى ذلك الوقت . ولقد ذكرت أسماء ستة عشر شخصاً لمستر « جوكهال »

باعتبار أن هذا العدد هو أقل عدد يمكن الاعتماد عليه في المراك المنتظر ،
وكانوا جميعاً من مؤسسى مستعمرة العنقاء . أما الخطة فكانت تنحصر
في أن يجتاز هؤلاء حدود الترنسفال فيقبض عليهم لأنهم اجتازوا
التخوم من غير ترخيص رسمى .

كان اجتياز حدود الترنسفال اعتداء . وكذلك كان اجتياز حدود
الناتال من الترنسفال اعتداء أيضاً . فاذا قبض على الأخوات وهن
يجترن حدود الناتال ، فحسن . أما اذا لم يقبض عليهن فكان عليهن
أن يتقدمن حتى يصلن الى نيوكاسل مركز مناجم الفحم فى ناتال
ويمسكن هنالك ، ويأخذن فى تحريض الأجراء ذوى العقود على أن
يقوموا باعتصاب عام . وكن يتكلمن بلغة « التاميل » ، ومنهن من
يتكلمن بالهندوستانية ولكن بغير اتقان . بيد أن أكثر الأجراء
الذين يعملون فى مناجم الفحم من مقاطعة مدارس وكلهم يعرف لغة
« التاميل » أو « التيلوغو » ، كما كانت البقية من سكان شمالى الهند .
فاذا اعتصب الأجراء اجابة لدعوة الأخوات ، فإن الحكومة اذ ذاك
تكون مضطرة لأن تقبض عليهن ومعهن الأجراء الذين من الجائر أن
ترداد حماستهم وتلهب حميتهم . هذه كانت المناورة التى فكرت فيها
وشرحتها لآخوات مزرعة تولستوى من الترنسفال .

وذهبت الى مستعمرة العنقاء وكلت نزلاءها فى الأمر وشرحت لهم
تصميمى . وكان أول ما فعلت أنى أخذت أتفاوض مع الاخوات

المقيات في المستمرة . وكنت أعرف أن فكرة ارسال النساء الى السجن فيها مخاطرة ومازق حرجة كل الحرج . وكان أكثر المقيات في العناء يتكلمن اللغة الكجراتية ، ولم يكن لديهن ما لدى أخوات الترنسفال من المراتة والتجارب . فاذا نكصن في وقت العمل أو اذا لم يستطعن تحمل أعباء السجن ، فرما طلبت منهن أن يعتذرن . فاذا فعلن ذلك ، فانهن بذلك لا يطعننى طعنة شديدة لا غير ، بل انهن يحدثن بذلك أقصى المضار للحركة نفسها . وعلى هذا عزمت على أن لا أفضى بالأمر لزوجى ، لأنها لم تكن تستطيع أن تقول « لا » فترفض أى اقتراح أعرضه عليها ، واذا قالت « نعم » فالى لا أستطيع أن أزن القيمة الحقيقية التى تختفى وراء موافقتها . هذا وانى أعتقد أن واجب الزوج فى مثل هذه الظروف انما ينحصر فى أن يترك زوجه حرة فى أن تتخذ الطريق التى تختارها متحملة فى ذلك المسؤولية كلها ، وأن لا يمتعض اذا هى لم تختر أن تشاركه فى أية سبيل يريد أن يلقي بنفسه فيها . فتكلمت مع بقية الأخوات ، فوافقن مسرورات على مقترحاتى ، وأظهرن استعدادهن للذهاب الى السجن ، بل أكدن لى انهن على اعتماد لآن يقضين بقية أيامهن فى السجن وليكن بعد ذلك ما يكون .

ولقد سمعتنى زوجى أتكلم معهن فبادرتنى قائلة

« انى لحزينة لأنك لم تفتحنى بهذا الأمر . فأية نقيصة رأيتها فى حتى تتصور أنى غير قادرة على احتمال مكاره السجن ؟ انى أريد أن

أنهيج نفس هذا النهج الذى تدعو اليه الاخريات » . فأجبتها : -
 « انك تعلمين أنى آخر شخص يفكر فى أن يجعلك تتألمين . وليست
 المسألة تنحصر فى انى لا أثق بك . وانى لأكون مسروراً جداً اذا أنت
 ذهبت الى السجن ، على أن لا يظهر بحال من الأحوال أن ذهابك اليه
 كان باغواء منى . وفى مثل هذه الأمور يجب على كل انسان أن لا يعتمد
 الا على قوته وشجاعته الشخصية . فاذا سألتك أن تشتركى فى الحركة ،
 فربما تتقدمين للاشتراك طوعية لطلبي . وعلى هذا اذا بدأت تنتفضين
 فى قاعة المحكمة أو اذا أزعجتك مصاعب السجن ، عجزت عن أن
 أعزو الخطأ اليك ، ولك أن تتصورى كيف يكون حالى ، وكيف يكون
 موقفى . كيف أستطيع أن أتستر على ضعفك أو كيف أستطيع أن أرى
 وجه الناس ؟ ان مخاوف كهذه هى التى حالت دون أن أسألك أن تذهبي
 مختارة الى السجن » . فذالت

- « ليس لك من شأن بى . فانى اذا لم أستطع أن أتحمّل مكاره السجن
 فانى أستطيع أن أسترّد حريتي باعتذار بسيط من غير أية مسئولية عليك .
 ومادمت أنت تستطيع أن تتحمل السجن وكذلك أولادى ، فلماذا لا
 أحتمله أنا ؟ انى ملزمة أن أشارك فى المعركة » .

- « واذن فأنا ملزم أن أدعوك اليها . أنت تعرفين أحوالى وكذلك
 تعرفين مزاجى وحتى هذه اللحظة لك أن تعمدى النظر فى الأمر وتتمعنى
 فيه طويلاً ، فاذا انتهيت بعد التفكير والتأمل الطويل الى أنك لا تشتركين

فى الحركة ، فانك حرة فى أن تنسجى . ولك أن تفهمى أنه ليس من موجب للخجل اذا أنت اثبتت عن عزمك الآن » . فأحابت
« ليس عندى ما أفكر فيه ، انى مصممة تماماً »

وكذلك اثبتت الى بقية نزلاء العنقاء وأوحيت اليهم أن لكل منهم
أو مسهن أن يصل الى النتيجة التى يرغب فيها بكامل الحرية ، ومن غير
أن يتأثر بحكم غيره . ولقد كررت عليهم هذا الوعى منتحياً طرقات شتى
ونبهتهم اليه وحذرتهم من أن ينكص أحدهم أو بعضهم فى منتصف
الطريق طالت المعركة أم قصرت ، وسواء عمرت مستعمرة العنقاء أم
خربت ، وسواء احتفظ الكل رحالاً وساء بصحة جيدة أم حطت
عليهم الأمراض فى السجن . فوطن الجميع أنفسهم على العمل وأطهروا
الاستعداد التام . وكان الرجل الوحيد الذى شارك فى العمل من غير
نزلاء مستعمرة العنقاء رجلاً يدعى « رستومجى جيفانجى جور كهودو »
وكان من الضرورى أن لا أخفى عنه شيئاً من مجمل هذا ، ولكن
« كا كاجى » كما كان يدعى ، لم يكن ذلك الرجل الذى يهتز أمام مثل هذه
الأشياء فقد زار السجن من قبل وشدد فى أنه يزوره مرة أخرى .
وبدأت الغزوة .

كان على الغزاة أن يذهبوا الى السجن بمجرد اجتياز التخوم ودخول
أرض الترنسفال من غير أن يكون لديهم ترخيص بذلك . ولم نشعر

أحداً بتحريك هذا الركب، وكنتمنا الخبر عن الصحف، وكنا قد زدونا
الغازيات بنصيحة محصلها ان لا يعطين أسماءهن حتى لو طلب منهن رجال
الشرطة ذلك، ويقلن لهم انهن لا يظهرن شخصياتهن الا أمام المحكمة .
وكان رجال الشرطة عارفين بمثل هذه الظروف . فبعد أن عكف
الهنود على اتباع خطة البحث عن طريقة يقبض عليهم بها ، كانوا
يتمنعون عادة عن اعطاء أسمائهم لمجرد التسلية واللهو ، وبذلك لم يجد
البوليس شيئاً جديداً في غازيات العنقاء ، فقبض عليهن جرياً على عادته
وقدمن للمحاكمة وحكم عليهن بالسجن ثلاثة أشهر مع الشغل . وكان
ذلك في يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩١٣ .

والآن بقى على الأخوات اللاتي لم يفلحن في الترنسفال أن يدخلن
ناتال ، ودخلن بالفعل ، ولكن لم يقبض عليهن . فيممن شطر
نيوكاسل وبدأن عملهن اتباعاً للتعليمات التي أخذنها . وهناك انتشر
تأثيرهن انتشار النار في الهشيم . فان الرواية التي رويها العمال عن الظلم
الفادح الذي توقعه عليهم ضريبة الثلاثة الجنيهات هزتهم من الأعمال
وحفزتهم للعمل ، فأضربوا . ووصلتني الأخبار بطريق البرق ، فارتبكت
بقدر ما سررت . وماذا كان على أن أعمل ؟ فاني لم أكن أتوقع مثل
هذه الصحوة العظيمة ، لأستعد لها . ولم يكن لدى الرجال ولا الاموال
التي أستطيع بها أن أواجه حالة كهذه . ولكنني حددت واجبي تحديداً

تاماً . فشعرت بأنه يجب على أن أذهب الى يوكاسل وأفعل كل ما أستطيع . فسافرت إليها في الحال
أما الحكومة فلم تستطع أن تترك أخوات الترنسفال الباسلات
متمتعات بحريتهن ليفعلن ما يردن ، وليراولن نشاطهن في الدعاية .
فحوكن وحكم عليهن بنفس ما حكم به على أخواتهن الأوليات ، وسجن
مع عازيات مستعمرة العنقاء .



من كتاب لندن تأليف أحمد عطية الله تعرف كل شئ عن لندن والانجليز

الفصل الخامس عشر

المقاومون السليبيون

لقد هزت هذه الحوادث قلوب الهنود من الأعماق . ولم تقتصر هذه الهزة على جنوبي افريقية ، بل تمدتها الى الهند . ولقد ظل سير « فيروز شاه مهتا » حتى ذلك الحين غير مهتم بقضيتنا العامة . وفي سنة ١٩٠١ نصحنى بشدة أن لا أهبط جنوبي افريقية ، واقتصرت حجته على أنه من المتعذر أن يعمل الانسان أى عمل يخدم به الهنود المقيمين في الخارج، مادامت الهند مستعبدة ولم تحقق حريتها ، كما أنه لم يتأثر بحركة « الستياجراها » في أدوارها البدائية الأولى . ولكن دخول النساء الى السجن حركه وهزه الى الدرجة التي لم تبلغها أية حادثة أخرى . ولقد أشار الى هذا في خطابه الذي ألقاه في قاعة محاضرات بومباي، فقال بأنه بكلا ذكر أن نساء الهنود يرقدن في سجون جنوبي افريقية ، يغلى دمه في عروقه .

كانت الشجاعة التي أبدتها النساء مما لا تعبر عنه الكلمات التعبير الصحيح . وكن قد سجن في سجن « مارتزبرج » ، حيث بولغ في ازعاجهن والكيد لهن بمختلف الصور . فأعطيت اليهن أسوأ الأطعمة، وعهد

اليهن بغسل الملابس . ولم يسمح لهن باحضار طعام من الخارج اللهم الا فى أواخر مدة الحبس . وكانت احداهن قد قطعت على نفسها عهداً دينياً بأن لا تتغذى الا بغذاء خاص . وبعد جهد جهيد ومحاولات كثيرة سمح لها رجال السجن بأن تتناول ذلك الغذاء ، ولكن المادة التى كانت تقدم لها منه كانت مما تعافه النفس ويأخذها من منظرها الغثيان . فلما أفرج عنها خرجت من السجن أشبه بهيكل عظمى ، حتى اننا لم نقتد حياتها الا بجهد شديد . وأفرج عن أخرى وهى مصابة بحمى شديدة لم نستطع انقاذها منها فماتت بعد الافراج عنها بأيام .

وأنى لى أن أنسى « فلياما » ؟ - Villiama - هى فتاة من جوها نسبرج لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها ، ولقد رأيتها وهى طريحة الفراش . وكانت طويلة القامة ، فكان منظر جسمها الأعجف الهزيل ، مما يشق المرأى ويصهر القلوب الرحيمة . سألتها :

- « أتندمين يافلياما على أنك دخلت السجن » ؟ فأجابتنى فوراً
- « أأندم ! انى لى استعداد الآن وفى هذه اللحظة أن أعود اليه لوقبض على . »

- « وماذا لو ينتهى الأمر بموتك » ؟
- « انى لا أهتم بهذا . ومن ذا الذى لا يحب أن يموت فى سبيل وطنه » ؟

وبعد بضعة أيام من هذا الحوار لم تصبح فلياما الا حديثاً يروى .

ولكنها خلفت لنا باسمها الخالد ميراثاً أبدياً عطياً. وعقد الهنود اجتماعات في أماكن مختلفة ليعبروا بها عن حزمهم عليها ولتقبل بعضهم من بعض العزاء فيها ، وبدأ الهنود يفكرون في إقامة قاعة يسمونها قاعة « فلياما » ليخلدوا بذلك ذكرى التضحية الكبرى التي قدمتها اليهم إحدى سات الهند . واني لأقول آسفاً ان هذه الفكرة لم تحقق الى الآن . فقد اعترض تنفيذها صعاب كثيرة . لان وحدة الجالية الهندية هنالك مزقتها الاختلافات الداخلية ، وترك المشتغلون بالقضية الميدان الواحد تلو الآخر ولكن مما يسليني انه سواء أسنيدت قاعة من اللبنات أم لم نسيد ، فان الخدمة التي قامت بها « فلياما » خالدة ولن نرول . لقد أقامت هيكلها الأبدى بعمل يديها . وان اسم « فلياما » سيظل مذكوراً في تاريخ حركة السياجراها في جنوبي افريقية ما بقى للهند اسم يذكر فوق الكرة الأرضية .

ان التضحية التي قدمها أوليائكن الاحوات لتضحية حالصة بعيدة عن التأثير بالأغراض . لأنهن كن جاهلات كل ما يترتب على الاجرات القضائية . وكثيرات مسهن لم يكن ليدركن معنى للوطن ، بل كانت وطنيتهن قائمة على مجرد الايمان . ومعصهن كن غير مثقفات ولا يستطعن قراءة الصحف . ولكنهن كن يدركن أن ضربة مميتة قد وجهت الى شرف الهنود ، وان ذهابهن إلى السجن ليس الا صرخة عالية يعبرن بها عن آلامهن ومواجهتهن ، بل صلاة يرسلنها من أعماق قلوبهن لن هو مطلع

على الأفئدة . فكانت هذه التضحية اسمى وأبقى التضحيات . وإن الصلاة التى تصدر من القلب لن تصلَّ طريقها الى الله . كما أن التضحية لن تثمر الا بقدر ماتكون صافية نقية . ان الله ليطالب من العبد أن يتورع ويتبتل . انه ليتقبل عطاء الثاكة ، دانقاً كان أو سحتوتاً نغبطة ، مادامت تهبه ورعة متنتلة ، أى مادامت تهبه غير مدفوعة عليه بغرض ذاتي ، فيرده عليها أصعافاً مضاعفة . لقد وهب « سوداما » ^(١) Sudama - الساذج حفنة من الأرز ، ولكن عطيته الصئيلة قد كفت الناس أعواماً من الشدة والعوز والموت جوعاً . لهذا أعتقد أن سجن الكثيرين ربما كان عملاً فائلاً وبلا ننيجة ، ولكن تضحية صافية نقية تقوم بها نفس تجردت من الأعراض ، لن تذهب سدى . ولن يستطيع أحد أن يقول تضحية من من الهنود الذين قاموا بالحركة فى جنوب افريقية ، كانت أكثر تقبلاً عند الله ، خملت الثمرة الأخيرة . ولكننا علم علم اليقين أن تضحية « فلياما » قد آتت أكلها . وكذلك كانت التضحيات التى قدمها بقية الأخوات .

لقد ذهبت أرواح لاعداد لها فى الماضى ، وتذهب الآن أرواح أخرى ، وستذهب غير هذه وتلك فى المستقبل ، خدمة للوطن والانسانية ، ولكن طبيعة الأشياء لن تجعلنا نعرف أيها كانت نقية صافية . ولكن

(١) « سوداما » فى الأساطير وهب السد « كريشا » ثلاث حفنات من الأرز كانت كل ما يملك . ولكنه استعاضها أضعافاً .

ليطمئن الستياجراهيون . فلو أن نفسا واحدة من بين نفوسهم كانت صافية شفافة كالبلور ، لكفى ذلك لأن يوصلهم الى الغرض الأخير الذى رموا اليه . ان العالم انما يقوم على أساس « الساتيا » - Satya - أى الحق . أما « الأساتيا » - Asatya - ومعناها الباطل ، فانها تؤدى أيضا معنى « العدم » . وكذلك تؤدى كلمة « ساتيا » معنى « ماهو كائن » . فاذا انتصر الباطل الذى هو « عدم » فترة ما ، فان انتصاره الموقوت ليس مما يعيننا . أما الحق الذى يفيد « ما هو كائن » فانه لن يعدم ولن يزول . وفي هذا مجمل ما نعنى بكلمة « ستيا جراها » ، محدودة غير مفصلة .

لقد كان لسجن النساء فعل السحر فى العمال الذين كانوا يعملون فى المناجم بالقرب من « نيو كاسل » . فآلقوا بمعاولهم وأدواتهم وأخذوا يفدون على المدينة زرافات متعاقبة . وعندما وصلتني هذه الأخبار عادت مستعمرة العنقاء الى نيو كاسل .

لم يكن لهؤلاء العمال بيوت يملكونها . لأن أصحاب المناجم كانوا يهيئون لهم المساكن وزودوهم بالنور الذى ينير لهم الطرق والماء الذى يحتاجون اليه . فكانوا بهذا فى حالة افتقار دائم لن يعملونهم . ومن قبل قال « تولاسيداس » - Tulasidas - ان الشخص المفتقر الى غيره ، لن يرى السعادة حتى فى الأحلام .

ولقد أبدى لى المعتصبون كثيراً من الشكاوى . فقال بعضهم ان

أصحاب المناجم قد حرموهم من النور والماء ، وذ كر آخرون ان أمتعتهم ألفت في عرض الطريق وأصبحوا بلا مأوى . وتقدم الى رجل من الباثيين - pathian - يدعى «سيد ابراهيم» وكشف لى عن ظهره وقال لى « انظر كيف أوسعونى جلداً . وانى لم أترك العلوج يفلتون من يدي الا خضوعاً لأوامرك . فانى بائى . وأنت تعرف أن الباثيين لم يتعودوا أن يضربوا ، بل تعودوا أن يكونوا البادئين » . فأجبتة

- « حسناً يا أحمى . انى أعتبر مثل هذا السلوك منتهى السجاعة . ولسوف نتنصر لو كثر بيننا أمثالك » .

بهذه الكلمات هأته وشكرته . ولكن قام فى روعى أن الاعتصاب لن يستمر إذا عومل كل المعتصين كما عومل هذا الأخ . واذا تركنا مسألة الجلد جانباً ، فان الشكوى من قطع تيار الضوء والماء وغير ذلك من الميزات التى كان يزود بها المؤاجرون عما لهم ، لم يكن لها من موضع . ولكن سواء أكان هنالك أى مبرر للشكوى أم لم يكن لدينا أى حق فى أن تشكو ، فان المعتصين لم يكن فى وسعهم أن يثبتوا فى موقفهم ، وأصبح من واجبي أن أفكر فى مخرج ينقذنا من هذه الشدة ، والا فانه يصبح من الاوفى أن يعترف المعتصبون بأنهم هزموا ، فيرجعون الى العمل توأ ، من أن يرجعوا اليه بعد أن يظلموا زمناً ينفقونه فى النرب الممل والانتظار المضى . غير أنى لم أكن قد وضعت فى خطى تصميا يحملنى على الانهزام . ولهذا حدثت أن المخرج الوحيد انما يكون فى

أن يترك المعتصون محلات مؤاجريهم ويخلوها ، وأن يهيموا على وجوههم كما لو كانوا مهاجرين .

ولم يكن المعتصون يعدون بالعشرات ، بل بالمئات . وربما زاد عددهم وتضاعف فصاروا آلافا . فكيف اذن أستطيع أن أهيب المأوى والمأكل لثل هذا العدد العديد الذى أخذ يتزايد ويتضاعف ؟ ولم أكن على استعداد لأن أهيب بالهند لتمد إلى يد المساعدة المالية . فان سئل الذهب الذى تدفق من الوطن لم يكن قد بدأ ينساب بعد . والتجار الهنود كانوا فى رعب ووجل ، ولم يكن فى استطاعتهم أن يساعدونى جهرة ، لما كان لهم من صلات مالية بأصحاب مناجم الفحم وغيرهم من الأوروبيين . وكانت عادتى أن أمر بهم كلما هبطت نيوكاسل . ولكننى فى هذه المرة أردت أن أوقفهم فى موقف حرج . فزلنا فى مكان آخر .

لم يكن عندى من المعدات ما يمكننى من أن آوى المعتصين . فكانت السماء غطاءهم . ولكن ساعدنا حسن الحظ بأن كان الجو معتدلا ، ليس بالمطر ولا بالزمهرير . غير أنى مع هذا كنت مقتنعا بأن فئة التجار لن تحجم عن أن تزودنا باليرة . وبالفعل أرسل الينا تجار نيوكاسل أوانى الطبخ وأكياس الأرز . وأرسل الينا كثير من الأرز « والدال » ^(١) « Dal » من أماكن أخرى ، وأمطرنا بوابل من الخضر والتوابل

(١) الدال Dal بقل قريب الشبه بالعدس

وغيرها من الحاجيات . وفاقت المساعدات الحد الذى كنت أنتظره . ولم يكن جميع المعتصبين على استعداد لأن يدخلوا السجن ، ولكنهم كانوا يشعرون شعوراً مشتركاً بالعطف على قضيتهم ، كما كانوا مجمعين على أن تقوم كل منهم بما يستطيع والى الحد الذى تنتهى عنده قدرته . أما الذين لم يكن فى قدرتهم أن عمدوا الحركة بأى شىء فأنهم تطوعوا لأن يندسوا بين العمال بصفتهم عمالاً ليكبر العدد ويتضخم . وكنت فى حاجة الى كثير من المتطوعين البارزين الأذكياء ليقوموا بمهمة ارشاد هؤلاء المترددين غير المثقفين ، فلم أنتظرهم طويلاً . وكانت مجديتهم فى مثل موقعي مما لا يقدر بأى تمن ، أو يوزن بأى وزن . ولقد قبض على كثير منهم وزجوا فى السجن ، وعلى الجملة أقول بأن كلا منهم أدى واحة كاملاً ، فمهد ذلك سبيل الانتصار وعبد طريق الفوز .

وتدفق علينا سيل من الرجال فكنا نقبل باعتباط الصمامهم الى صفوفنا غير أن مهمتنا أصبحت شاقة ان لم تكن مستحيلة ، اذ رأينا أنه من المتعذر علينا أن نحملهم فى مكان واحد ، وأن يعى بهم فى وقت نشاطهم . ومما زادنا رهبة ، أنهم جميعاً كانوا جاهلين بقواعد الصحة الأولية . وكان بعضهم من أضياف السجن حلوا بها للسرقة أو القتل أو الفسوق . ولا شك فى أنه من العبث أن يضع الانسان نفسه فى موضع الحكم الذى يقضى على المعتصبين من حيث السلوك والأخلاق . وأمعن من هذا فى العبث ، أن يحاول الانسان أن يفرق فى مثل هذه الحالة بين

الشيء والذئاب، بل حصرت كل همة في أن أقود الاعتصاب، وأوجهه إلى الناحية التي يرجى منها النفع . وهي مهمة بعيدة كل البعد عن أن تمتاز بمجهود توجه نحو الإصلاح . غير أنني على الرغم من هذا شعرت أنه من واجبي أن ألاحظ أن أصول الآداب لا بد من أن تظل مرعية في المخيم ، من غير أن أنظر في سوابق كل من المعتصبين .

وأخذت أفكر في حل أتخلص به من هذه الورطة . فتبادر إلى أن أقود هذا الحينس العرم إلى الترسفال وأسلم به في أمان إلى السجن كما فعلت من قبل سكان مستعمرة العنقاء . وتحوم الترسفال تبعد عن نيوكاسل ثلاثين وستين ميلاً . والقريتان الواقعتان على تحوم ناتال والترنسفال هما شارلستون في الأولى وفلكسرست - Volksrust - في الثانية . وفي النهاية صممنا على أن نسير على الأقدام . واستشرت العمال المعتصبين في ذلك الأمر . وكان معهم زوحاتهم وأولادهم ، فتردد البعض في قبول مقترحي . ولكن لم يكن أمامي من سبيل إلا أن أقسو قليلاً . فأعلن أن هؤلاء أحرار في أن يعودوا إلى العمل في المناجم . فلم يشأ واحد منهم أن ينتهز هذه الفرصة . لهذا قررنا أن الذين هم مصابون بمرض في أطرافهم يعوقهم عن متابعة السير مسافات طويلة ، يرسلون بالقطر الحديدية ، في حين أن كل الأقوياء القادرين على السير على القدم، أعلنوا أنهم مستعدون للذهاب مشياً إلى شارلستون . وكانت المسافة تستغرق يومين سيراً معتدلاً . ولم نكد نصل إلى نهاية السير

ونبلغ غرضنا ، حتى بدا الابتهاج على الجميع . أما الأوروبيون في نيوكاسل فقد توقعوا انتشار الطاعون ، وأخذهم الشفاق والوجل ، فكانوا على استعداد لأن يتخذوا من الاجراءآت كل ما من شأنه أن يحول دون وقوع مثل هذه الكارثة .

ولقد قابلت أصحاب المناجم في دوربان ورأيت أنهم متأثرون بعض الشيء من جراء الاعتصاب . ولكني لم أكن أستطاعة نتيجة كبيرة من وراء الاجتماع بهم . غير أنه يجب أن نذكر أن المؤمن بمبدأ الستياجراها لا يجب أن يعرف للتجرد أو الاستسلام حداً . من واجبه أن لا يترك فرصة يمكن أن تنتهز للتفاهم من غير أن يغتمها ، بدون أن يفكر في أن ينظر اليه أى اسان باعتباره جباناً أو أن السجاعة تعوزه . فان الرجل المؤمن الحائر لتلك القوة الكبرى الى بيعتها الايمان ، لن يضيره من شيء أن ينظر اليه الغير نظرة امتهان . انه لا يقيم لشيء وزنا اللهم الا قوته الذاتية . لهذا يجب أن يكون محتشماً مع الجميع وبذلك ييذر ذلك البذر الذى لن يكون له من جنى الا أن تتجه الفكرة الى قداسة قضيته . ولهذا تقبلت دعوة أصحاب المناجم بأحسن القبول ، فلما قابلتهم رأيت أن الجو متبع بكثير من الحرارة والشهوة الجارحة التى تبعثها مثل هذه المواقف . فبدلاً من أن يسمعون مندوبهم فأشرح له الموقف ، أخذ يستجوبني . ولكني أجبتة أجوبة تلائم مقتضى الحال : — « انه في مقدورك أن تنهى الاعتصاب » . فكان جوابي

— « اننا لسا بموظفين » .

— « فى استطاعتكم أن تعملوا كثيراً من العمل المنتج ، ولو انكم غير موظفين . وفى قدرتكم أن تقتحموا المعركة لصالح العمال . فاذا سألتهم الحكومة أن ترفع ضريبة ثلاثة الجنيهات ، فلست أظن انها ترفض الغاءها . كما ان فى وسعكم أن تثيروا رأى العام الآوروى فيما يختص بمسألتكم . »

— « ولكن ما شأن ضريبة الثلاثة الجنيهات بالاعتصاب؟ فانه اذا كان للمعتصبين مايشكون منه تلقاء أصحاب المناجم ، فهذا من واجبك أن تعملوا على تسويته على وجه مقبول . ولست أجد من سلاح يمكن أن يلجأ اليه العمال سوى الاعتصاب . وضريبة الجنيهات الثلاثة لم تسن الا خدمة لأصحاب المناجم الذين يريدون أن يشتغل لهم العمال، ولكن لا كعمال أحرار، بل كعبيد . فاذا أضرب العمال ليتوصلوا الى الغاء هذه الضريبة ، فلست أرى فى هذا العمل مايمكن أن يعتبر تحدياً أو طمأناً لأصحاب المناجم »

ولا أذكر بقية المناقشة الآن . ولكنى فهمت أن أصحاب المناجم قد فهموا جيداً ضعف موقفهم ، فأخذوا يفاوضون الحكومة . ولقد رأيت خلال سياحتى الى دوربان والعودة منها أن الاعتصاب وما وسم به من مظاهر السلام والمسألة كان له أكبر الأثر فى مراقبى سكة الحديد وغيره . وسافرت فى الدرجة الثالثة كما هى عادتى ، فقدم الى المراقب

وغيره من الموظفين وألقوا على كثيرًا من الأسئلة المتعلقة بالاعتصاب وتمنوا الى النجاح . ولقد أبدى هؤلاء الموظفون عجبهم واعجابهم من أن مثل هؤلاء الفقراء الجهلاء غير المثقفين، قد احتملوا مثل هذه الشدائد في سبيل أن ينجحوا ويفوزوا بغرضهم . ولاشك في أن الحزم والتسجاعة صفتان لا بد من أن تتركا أثرهما الثابت حتى في الأعداء والمنافسين

وعدت الى نيو كاسل . وكان العمال لا يزالون يفدون زرافات من كل مكان . وما ونييت، في أن أشرح كل الموقف لجيس العمال المعتصبين ، قائلاً في النهاية انهم ما يزالون أحراراً في أن يعودوا الى العمل اذا أرادوا . وابنت لهم عن التهديدات التي كان يهددهم بها أصحاب المناجم ، وصورت لهم المآزق التي قد يضطرون الى اجتيازها في المستقبل ، وأظهرت لهم مصاعب السجن وويلاته . ومع كل هذا فانهم لم ينكصوا على أعقابهم ، بل أجابوني بغير ما خوف أو وجل بأني لن أشغل نفسي بهم لأنهم اعتادوا الشدائد ومرنوا على الولايات .

لم يبق اذ ذاك لدينا من شيء الا أن نبدأ الزحف . وأعطينا للعمال الاشارة بأنهم سوف يبدأون السير في الصباح الباكر من اليوم القادم (٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٣) وقرأنا عليهم التعليمات التي يجب أن تراعى لدى السير . وليس من الهيئات أن ننظم جمعاً مكوناً من خمسة آلاف أو ستة آلاف رجل . ولم يكن في استطاعتى أن أزودهم بأكثر من رطل ونصف من الخبز وأوقية من السكر لكل جندي خلال المسير ،

واذا سهل على أن احصل على شىء آخر من التجار الهنود فى الطريق، فانى لأبخل به عليهم . ولكن اذا لم يتيسر ذلك فعليهم أن يرضوا بما قسم لهم . ولقد كانت تجاربي فى حرب البوير وثورة الزولو أكبر عون لى على معالجة الحالة . فأمرت بأن لا يحمل أحد من «الفزاة» من الملابس أكثر مما هو ضرورى ، وأن لا يمس أحد أمتعة غيره خلال الطريق . كما نهيت عليهم أن يهتموا بصبر واناة ما يمكن أن يوجهه اليهم الاوروبيون من الاهانات أو السباب، وأن يمشوا فى سلام حتى ولو ضربوا أو جلدوا . فاذا أريد القبض عليهم فليسلموا أنفسهم بغير مقاومة، ولقد أبنت لهم كل هذه التعليمات بجلاء ، ثم أعلنت عليهم أسماء الذين يخلفونى فى قيادتهم اذا قبض على . ولا شك فى أنهم فهموا ماقلت فهماً جيداً ، فوصلنا شارلستون بسلام . وهنالك أمدنا التجار بكثير من المعونة . ففسحوا لنا بيوتهم لنشغلها ، وسمحوا لنا أن نطهى الطعام فى صحن الجامع . وكانت الميرة لا بد من أن تنتهى باتهاء المسير الى حيث قصدنا ، وكنا فى حاجة الى أوان للطبخ ، فلم يتوان التجار فى أن يمدونا بها . وكان معنا مخزون كبير من الأرز وغيره من الحاجيات التى سارع التجار بامدادنا بها .

كانت شارلستون فى ذلك الوقت عبارة عن قرية صغيرة لا يزيد تعدادها على ألف نسمة . فلم نسمح لغير النساء والأطفال أن يحتلوا المنازل . ولذا خيم الباقون فى العراء . ولقد تمر بي كثير من الذكريات السعيدة

وقليل من الذكريات المؤلة ، وقعت حوادثها خلال اقامتنا بقرية شارلستون . أما الذكريات السعيدة فتتعلق بمصلحة الصحة والموظف المنوط به أمر الصحة في ذلك المركز وكان يدعى دكتور « برسكو » Dr. Briscoe فانه على الرغم من أنه أخذته الحيرة من تضاعف عدد السكان فجأة تضاعفاً مزعجاً ، سارع الى ملاقاتي ، وبدلاً من أن يتخذ أى اجراء عاجل ، اقترح على بعض المقترحات وعرض على المساعدة . ولا شك في أن الأوروبيين ذوى عناية بنظافة الماء والطرق والاحتفاظ بالأدوات الصحية في أحسن حال من الاناقة . على الضد منا، فاننا قلما معنى بهذا الأمر . لهذا رحاني مستر « برسكو » أن أمتع الفاء المياه القذرة في الطرقات وان احوالين رحالناوين تقدير المكان الذي يحتلونه أو لقاء الكناسة والفضلات حينما اتفق . وكان من الصعب على ان أحمل الهنود على مراعاة هذه الأوامر وتنفيذها ، ولكن المهاجرين والزملاء الذين رافقوني لدى بدء الاعتصاب هونوا على كثيراً من هذه المصاعب ولقد بان لى في كثير من المواقف أن العمل يسهل وينتج أحسن النتائج، اذا انصرف الخادم الى الخدمة بمجد وكد من غير أن يحاول أن يعلى ارادته على الذين يخدمون معه . فاذا أقدم على العمل بنفسه ، فلا بد من أن يتبعه الباقون . فلم تخطيء تجربتي لدى التطبيق في هذه الفرصة . فاني وزملائي لم تتأخر هنيهة على الاكباب عن الكنس ونقل الكناسة والفضلات وما يشابه ذلك من الأعمال . فكانت النتيجة ان اشترك الكل

فى العمل بحماسة وحرارة . وكان « كلنباخ » قد سبقنا الى ساراستون ، وكذلك مس « شلسن » التى لن أستطيع ان أوفى صفاتها فى الا كتاب على العمل والدقة والأمانة حقها من الوصف والمدح . ومن الهنود المعروفين الذين عملوا بكل حماسة وأمدونا بكل مايمكن من المساعدات، المرحومان مستر « مايدو » والبرت كرسنوفر .

كلما فكرت فيما أئدى الرحال من الصبر والاحتمال فى هذه المشقة . تملكنى شعور عميق بقدرة الله الشاملة . وكنت بين الطهارة رئيساً عليهم . وقد يحدث ان يضاف على بقل « الدال » كثير من الماء، كما يحدث أن لاتم بصبجه فى الطهى . وكثير ماكان الارز والخضروات تقدم غير مطبوحة طحناً كافياً . ولم أر فى أطراف الكرة الأرضية الى زرتها لقيت من الناس يستسيح ازدراد مثل هذا الطعام مثل ما شاهدت لدى المعتصمين من شهية . فقد رأيت فى سجون جنوب افريقية انه كثيرا مايفقد الذين نسمهم بأنهم متعلمون صبرهم، اذا قدم اليهم طعام أقل من اللازم، أو طعام سئ الطهى أو تأخر تقديمه اليهم .

كان من بين الأخوات احت من دوربان تدعى « باى فاطمة محتب » لم تستطع ان تحتمل معايشة احواتها التاميليات عند ما سجن فى نيو كاسل . ولهذا ذهبت الى فولكسبرست ليقبض عليها وتسجن بها مع أمها « حنيفة باى » وابنها الذى لم يكن يتجاوز السابعة من عمره . وقبض على الأم والبنت ولكن الحكومة لم تشأ أن تقبض على الابن .

ودعيت « فاطمة باى » لتؤخذ بصاتها فى المكان المعين لذلك ، ولكنها رفضت أن تخضع لمثل هذه الأهانة فحكم عليها وعلى أمها بالسجن ثلاثة أشهر .

وكان اعتصاب العمال فى ذلك الوقت قد بلغ أسنده . وكان الرجال والنساء حينذاك آخذين فى الرحف بين مقر المناجم وبين شارلستون . وكان من بينهم امرأتان ومعهما أولادهما مات أحدهم من التعرض للطقس ، وسقط واحد غيره من بين ذراعى أمه عند ما كانت تحتاز بحرى نهر ومات عريقاً . ولكن الأميين الباسلئين رفضتا ان تنكصا ، وتابعتا السير . بل لقد قالت احدهما « ليس لنا ان نحزن على الموتى الذين لن يعودوا إلينا مهما حرنا . ان الواجب يدعونا إلى العمل من أجل الاحياء » . ولقد وفعت بين الفقراء والمعوزين على أمثال هذه الصور المادرة من الشجاعة الهادئة والايمان الثابت والنظر الشامل لحقائق الحياة .

ولقد قام الرجال والنساء فى مركزهم الدقيق بقرية شارلسون بما يفرضه عليهم الواجب وروح التضحية . فان الذى حملنا على أن نهبط هذا المكان مهاجرين لم تكن روحاً سلمية . هذا على الرغم من أننا كنا فى سلام روحى نشعر به من أعماق نفوسنا . ولقد علقنا اعلانات كبيرة فى كثير من الأماكن كتبنا عليها « لا سلام هنا » . ولكن لا شك

أنه في مثل هذا الجو يمكن لثل « ميراباي »^(١) - Mirabai - أن تأخذ كأس السم الى فمها وتجرع ما فيه فرحة راضية ، وأن يذهب سقراط هادئاً الى أحضان الموت في سبجه السحيق المنفرد ، ويوجه الى أصدقائه والينا في شخصهم ذلك اللوم المقذع الذي ضمنه مذهب ان الذي ينشد السلام يجب أن يبحث عنه في نواحي نفسه . وعمل هذا السلام الذي نما في نفوس الستياجرايين عاشوا في مخيمهم غير آهين بما سوف يأتي به الغد .

وكتبت الى الحكومة أنبئها بأنه ليس من عرضا أن ندخل التر نسفال بقصد الإقامة، بل ندخلها احتجاجاً على أن ينقص الوزير عهده، وتظاهراً صارخاً على ياسنا من أن نسترد احترامنا الذي فقدناه . ولا شك في أن الحكومة كانت توفر علينا كثيراً من المتاعب اذا هي تفضلت وقبضت علينا حيث كنا، أي في شارلستون . ولم تكن حركتنا بالسر الذي لا يباح به . بل كنا نأنف من أن يدخل أحدنا أرض التر نسفال تسلاً وفي خفية . ولكننا لم يكن في وسعنا أن نحتمل مسؤولية ما يأتي أي شخص من عمل قد يروقه ، لأنه كان علينا أن ننظم آلافا من الناس الذين لا نعرفهم شخصياً ، ولم يكن في وسعنا أن نفرض عليهم من شيء اللهم إلا الدعوة للمحبة والصفاء . ولقد أكدت للحكومة في النهاية

أنها اذا ألغت ضريبة الجنيھات الثلاثة ينتھى الاعتصاب ويعود العمال ذوو العقود الى العمل ، لأننا سوف لا ندعوهم الى الجلاذ فى سبيل التغلب على بقية الأشياء التى نرفع أصواتنا بالشكوى منها .

كان موقفنا حينذاك غير مفهوم جيداً ، ولم نكن نعرف متى تقدم الحكومة على القبض علينا . وكان علينا أن لا نتظر فى مثل هذه الأزمة الشديدة جواباً من الحكومة الا بعد مضى بضعة أيام . لهذا صممنا على أن نغادر شارلستون وبدخل الترسفال توأ ، اذا لم تقبض الحكومة علينا . فاذا لم يلق القبض علينا خلال الطريق ، بقى علينا أن نمضى فى المسير فنقطع فى اليوم أربعة وعشرين ميلا ونستمر على ذلك ثمانية أيام لنصل الى مزرعة تولستوى وأن نظل هنالك حتى تنتهى المعركة ، وفى خلال الافامة بالمزرعة يعمل العمال فى فلحها ليقوموا بأودهم ، وكان مستر كلنباخ قد أكمل كل المعدات الضرورية . وكانت الفكرة أن نشيد أكواخاً من الطين يصنعها المهاجرون بأنفسهم . وكانت الصعوبة الوحيدة التى تعترض هذا العمل ، ان فصل الأمطار كان قد أظلنا إبانہ ، ومن الضرورى أن يكون لسكر انسان ملجأ يحتمى به اتقاء الأمطار . ولكن مستر كلنباخ كان يتوقع فى شجاعة ، أنه سوف يحل هذا المشكل بصورة من الصور .

وفولكسرست قرية قدر شارلستون مرتين . وأبدى صاحب مخبز أوروى بها رغبته فى أن يتعاقد معنا على أن يزودنا بما يلزمنا من الخبز ،

ولم ينتهز صاحب الخبز هذه الفرصة ليأخذ منا ثمناً للخبز أعلا من الثمن السائد في السوق ، كما أنه أخذ يصنع الخبز من أجود صنف من الدقيق . وكان الخباز يرسل الخبز في الوقت المناسب بطريق سكة الحديد فأخذ عمالها وكلهم من الأوروبيين يقومون بواجبهم نحونا، فكادت الارساليات تصلنا كاملة، وعنوا كل عناية بنقلها وحصولنا ببعض السهيلات . فقد كانوا يعرفون أن قلوبنا لا تنطوى على عدااء أو ضغينة . وأنه ليس من قصدنا أن نلحق ضرراً بمخلوق ، وأن عايتنا هي الوصول الى حقوقنا من طريق ما نعالى من آلام وما تحتل من مشقات . ولذا كان الجو الذى أحاطنا نقياً خالصاً من الشوائب، واستمر نقياً طوال أيام جهادنا . وما السبب في هذا الا أن الحب الكامن في النفس الانسانية قد شط وأخذ يظهر أثره . فكان الكل يشعر بأنهم احوان مهما اختلفت النحل بين نصارى ويهود وهندوكيين ومسلمين أو غير ذلك .

ولما خيم الظلام سكنت الأصوات واستقرت الأرواح ، وكنت على وشك أن آوى الى مصجعى عندما سمعت حلبة . ورأيت أوروبا يتقدم نحونا وفي يده مصباح . ففهمت معنى ذلك ، ولكن لم يكن عندي من المهام ما أوصى به قبل القبض على .

« لدى أمر بالقبض عليك . أريد أن ألقى عليك القبض » .

فأجبت الضابط:

= ٢٦١ =

- « الى أين سوف تذهب بي . »
- « الى أقرب محطة لسكة الحديد الآن ، ثم الى فولكسرست
عندما يصل أول قطار مسافر اليها » .
- « سأذهب معك من غير أن أخبر أى انسان ، ولكن على أن
أترك بعض التعليلات مع أحد الزملاء » .



الفصل السادس عشر

السجن والانتصار

أيقظت مستر « نايدو » الذى كان نائماً بالقرب منى ، وأخبرته بخبر القبض على ورجوته أن لا يذيع الأمر بين المهاجرين قبل أن يتنفس الصبح . وان عليهم عندما يبين النهار أن يتحركوا للمسير ، على أن يبدأوا به قبل بزوغ الشمس . وعندما يحين وقت الاستراحة ليتناولوا وجبتهم ، له أن يذيع بينهم خبر القبض على . وأبحت له فوق ذلك أن يلتقى بهذا الخمر لآى انسان يسأله عنى ، فيما لو قبض على المهاجرين ، والا فالواجب عليهم أن يتابعوا السير طبقاً للبرنامج الموضوع . ولم يداخل نايدو أى شك أو خوف على الإطلاق . فأملت عليه تعليماتى عما يتبعه فيما لو قبض عليه هو أيضاً . وكان مستر كلبناخ فى فولكسرسى فى ذلك الحين . ورافقت ضابط البوليس وسافرنا الى فولكسرسى . غير ان النائب العمومى أبى أن يستمر القبض على اذ لم تكن قد وصلته الأسباب التى يبنى عليها أمر القبض ، وعلى هذا أجل النظر فى أمرى وأطلق سراحى بعد وضع كفالة قدرها خمسين جنيهاً . وكان مستر كلبناخ قد أعد مركبة لى وسافر معى فى الحال لنعود الى مشاركة المهاجرين

فى زحفهم . وأراد مراسل جريدة « ترنسفال ليدر » أن يرافقنا . فأخذناه معنا فى العربة ، فنشر فى ذلك الحين وصفاً دقيقاً للحالة ووصف سياحتنا ومقابلتنا مع المهاجرين الذين تلقونى بمظاهر الحماسة وأبدوا أشد الفرح بعودتى . واستمر زحفنا . ولكن لم يرق للحكومة أن تتركنى حراً . ولذا صدرت الأوامر بإعادة القبض على ، وقض على فعلا فى ستندرتون فى الثامن من الشهر . ولقد زودنا بتجار ستندرتون ببيضة علب من مربى الشمس ، فاحتاج توزيعها على المهاجرين وقتاً أزيد مما يحتاج توزيع بقية الماء كولات

ولقد سألت المهاجرين أن يتابعوا السير ، ثم فارقتهم صحبة الحاكم الذى ألقى على انقبص بنفسه . وبمجرد أن وصلت قاعة الجلسة فى المحكمة وجدت أن بعض زملائى كان قد قبض عليهم . وجدت منهم خمسة هم : نايدو ، وبيهاريلال مهاراج ، وراماين سنهيا ، وراجونا راسو ، ورحيم خان . ولم ترعب الحكومة فى أن تؤدى قبضها الى سجننا معاً ، كما انها لم ترد أن يحمل الزملاء رسالاتى عندما يطلق سراحهم الى الخارج . ولهذا صممت السلطات على أن تفصل بين ثلاثنا ، أنا وكلساخ وبولاك ، فرحلتنا من فولكسرسست ، وأرسلت بى إلى مكان لا يمكن أن ألتقى فيه بأحد من بنى جلدتى .

لهذا أرسلت الى سجن « بلونفوتين » . ولم يكن بهذه البلدة أكثر من خمسين هندياً يشتغلون جميعاً خدماً فى الفادق . وكنت السجين

الهندي الوحيد ، في حين كان باقي ضيوف السجن من الاوروبيين والعبيد . ولم تأخذني هزة من جراء هذه العزلة ، بل تقبلتها كنعمة أنعمت على الحكومة بها ، فقد ومرت على أن اوقظ سمعى ونظرى لاراقب تصرفات بقية السجناء ، وفرحت لان سئحت لى فرصة التزود بتجاريب جديدة ، وفضلا عن هذا فانه لم تمر بى أوقات أستطيع أن أتفرغ فيها للدرس . وعلى الأخص منذ سنة ١٨٩٣ ، فكانت هذه الفرصة أحسن الفرص التى أنفقها فى الدرس والا كباب عليه سنة كاملة . وقد تمتعت فى سجن بلوفوتتين بأ كبير قسط من الانفراد كنت أتوف اليه . ولا شك فى أنه كان حولى كثير مما يقلقنى ويمضى ، ولكنه كان مما يمكن احتماله . وبتأت بينى وبين طبيب السجن صداقة . وكان السجنان لا يستطيع أن يفكر الا فى أن يظهر سلطانه وجبروته ، فى حين كان الطبيب تواقاً لأن يتمتع المسجونون بحقوقهم التى ينحولهم إياها قانون السجن . وكنت من ذلك الوقت أغتدى على الفواكه صرفاً ، فلا أتناول الا الموز والطماطم والجذور الخصرء وزيت الزيتون . ولم يكن لى مفر من الموت جوعاً اذا قدم الى شىء من هذه الأشياء فى حالة فساد أو كان منه صف غير جيد . لهذا عنى الطبيب كل عناية بانتقائها ، وأضاف اليها اللوز والجوز العادى والجوز البرازيلى لتكون من ضمن الأصناف التى تقدم الى . ولم يكن فى حجرة السجن التى خصصت لى طريق كاف للتهوية . فعمل الطبيب أقصى جهده فى أن تظل الحجرة

مفتوحة الباب ، ولكن لم يفز من ذلك بطائل ، وهدده السجن بالاستقالة اذا هو حمل على أن يترك باب الحجرة غير موصد . على انه لم يكن رجلا شريراً ، ولكنه كان يريد أن يتبع نظاماً واحداً لا يخالفه ولا يشذ عنه في حالة من الحالات ومهما كانت الظروف

وكان مستر كلنباخ قد حمل الى سجن بريتوريا ، وپولاك إلى سجن جرمستون . ولكن الحكومة كانت تستطيع أن تتق كل هذه المتاعب . لأن مثل رحلها في هذه الحال كان كمثل مسر بارتنجتون في الأقصوصة ، عندما أرادت أن توقف مد المحيط الخضم بالمكنسة التي كانت تحملها . ذلك لأن العمال في ناتال كانوا قد استيقظوا من غفوتهم ، وأصبح من المتعذر على اية قوة في الأرض أن تمنعهم عن عزمهم .

ان الصائع يمتحن ذهبه على المحك ، فان لم يستبن مقدار مافيه من النقاء أحماه ودقه بالمطرقة ، حتى اذا كان فيه شيء من المعادن الاخرى أو الأوساخ انفصل عنه وبقي الذهب الخالص . ولا شك عندى في أن الهنود مروا في جنوب افريقية بمثل هذه التجربة . فانهم صهروا ودقوا بالمطارق الثقيلة ، ثم دمنوا بطابع الذهب الصافي ، بعد أن مروا بهذه التجارب القاسية صابرين مصابرين . فقد شحن المهاجرون في قطر سكة الحديد لا ليتزهوا ، بل ليتطهروا بالار ، ويتعمدوا بها . فان الحكومة لم تكن حلال تسفيرهم مشحونين شحن البضائع والسلع حتى بأمر طعامهم ، وبمجرد ان وصلوا ناتال وجهت اليهم التهمة وحكم عليهم وسجنوا . على

اننا كنا ننتظر هذا العمل وزغب فيه . غير ان الحكومة كان عليها ان تتحمل نفقات كبيرة فتظهر في الوقت ذاته كأنها لعبة في يد الهنود اذا هي استمرت تعنى في سجونها بمثل هذا العدد الهائل من العمال. ناهيك بأن أصحاب المناجم كان عليهم ان يعطوا العمل في مناجمهم خلال المدة التي يقضيها العمال في السجن. ولاشك في ان الحال اذا ظل سائرا على هذا المنوال فترة ما من الزمن، فان الحكومة تكون مضطرة الى الغاء ضريبة ثلاثة الجنيهات. لهذا فكرت الحكومة في طريقة متكررة . خو طت منطقة المناجم بالاسلاك الشائكة وأعلنت ان هذه المنطقة أصبحت من ملحقات سجن دندى ونيوكاسل ، وعينت المستخدمين الأوربيين لدى أصحاب المناجم مراقبين عليهم . وبهذه الوسيلة استطاعوا أن يضعوا انوف العمال في الرغام على الصد من ارادتهم، وبدأت المناجم تزدحم بالعمال في الحال . على أن هنالك فرقا بين خادم وعبد . فان الأول اذا ترك عمله لم يكن في مستطاعك ان ترغمه على شيء الا من طريق التحاكم واستصدار حكم عليه . ولكن الثاني يمكن أن تعيده الى العمل بالقوة . وبهذا اعيد العمال الى العمل ولكن بصفتهم عبيداً من غير قيد ولا شرط .

وكان هذا العمل في جانب الحكومة أكثر مما ننتظر منه . ولكن العمال كانوا بسلاء فأبوا أن يعملوا في المناجم - وانتهى الأمر الى أن يجلدوا بقسوة ووحشية . وكان رقباؤهم الوحشيو الطبائع قد استعانوا بالسلطة التي خولتهم الحكومة فأخذوا يسيطرونها على العمال ويؤدونها اليهم ركلا

بالأرجل وصفعاً بالأف كف وساباً بالألسنة ، الى غير ذلك من ضروب القسوة والاهانة التى لم تسجل عليهم . ولكن على الرغم من هذا كله ظل العمال المساكين مستمسكين بموقفهم ، غير آبهين بما يقع عليهم من صنوف العذاب .

وأرسلنا الى الهند اشارات رقية ضمناها خبر هذه الاعتداءات وخصصنا لها الزعيم «جوكهال» الذى اهتم بالأمر واتصل بنا ، حتى أنه كان يستعلم عن الأحبار اذا أحرنا ما عه يوماً واحداً وأخذ «جوكهال» ينشر الأخبار رغم أنه كان ملازماً فراشه لمرض شديد ألم به . ولكنه على الرغم من مرضه أصر على أن يلحظ بنفسه أحوال الهنود فى جنوبى افريقية ويعنى بها حتى لقد شغل بها ليل نهار . ولقد اهتزت جميع أنحاء الهند فى تلك الآونة واستيقظت فأصبحت مسائل جنوبى افريقية حديث المجالس وشغل الساعة .

فى ذلك الحين ألقى اللورد هاردنج خطابه المشهور فى مدراس ، ذلك الخطاب الذى أزعج الأوروبيين فى جنوبى افريقية وفى انجلترا على السواء . ولم يكن من عادة حكام الهند أن يوجهوا انتقاداتهم الى التصرفات التى تأتيتها الحكومات الأخرى فى أنحاء الامبراطورية ، ولكن اللورد هاردنج لم يكتف بأن يوجه نقداً للحكومة الاتحاد الافريقى فقط ، بل دافع دفاعاً مجيداً عن تصرفات الستياجراهيين وخطتهم السلمية ، وأيد عصيانهم المدنى لقانون وحشى جائر . وعلى

الرغم من أن خطاب اللورد هاردنج قد لاقى كثيراً من التعليقات المعادية في إنجلترا ، فانه لم يحاول أن يعتذر أو يعدل موقفه ، بل على الضد من ذلك صرح للكثيرين بأنه مقتنع بصحة الموقف الذى اضطر أن يقعه . ولا شك في أن حزم اللورد هاردنج في خطته هذه قد أحدث أثراً طهرت نتائجه في كل مكان .

ولتترك الآن أولئك العمال البواسل التعساء مأسورين داخل حدود منطقة المناجم هنيهة ، لتتكلم قليلا عن حقيقة الموقف في أطراف أخرى من بلاد ناتال . فان منطقة المناجم تقع في الشمال الغربى من تلك البلاد ، ولكن الهنود كانوا يعملون في البقاع المجاورة للشواطئ في الشمال والغرب . وكنت متصلا قبل حدوث الاعتصاب بالهنود الذين يعملون على الشاطئ الشمالى ، لأن كثيراً منهم اشترك معى في حرب البوير . ولكنى لم أكن قد اتصلت بالعمال الذين يعملون في منطقة الشاطئ الجنوى اتصالى بالأولين ، ولم يكن لى هناك من الزملاء الا العدد اليسير ، ولقد باع كثير منهم أناث منزله مقدراً أن المعركة سوف يطول أمدها وانه سوف يحتاج للزاد الذى ربما يضمن به عليه أهل جلدته من الأغنياء . ولما ذهبت الى السجن حذرت زملائى في العمل من أن يصححوا غير المعتصبين من العمال أن يعلنوا اضرابهم عن العمل ، لأنى قدرت أننا نستطيع أن نتصر حتى لو اقتصر الاعتصاب على عمال المناجم ، ولأن عمال الهنود لو أضربوا جميعاً - وعددهم لا يقل عن ستين ألف سمة -

لأصبح من الاستحيل تدبير أمورهم من كل الوجوه . ناهيك بأنه لم يكن لدينا من الوسائل ما يمكننا من أن نصحب عدداً كبيراً كهذا خلال الهجرة . لم يكن لدينا الرجال الذين يرشدوهم ، ولا المال الذى نطعمهم به . وفضلا عن هذا فان عدداً كبيراً كهذا لا يمكن أن نضمن معه الاحتفاظ بالمهيج السلمى الذى كنا نشده . ولكن اذا فتحت الهواويس التى يحبس الماء ، فلا مناص ادن من حدوث الطوفان المحتاح . فأصر العمال فى جميع الأنحاء من تلقاء أنفسهم وتطوع كثيرون ليطروا فى أمورهم ويدروا موقفهم

وهنا بدأت الحكومة تمخذ سياسة الدم والنار . فأخذت تمنع العمال عن الاعتصاب بمحض القوة . فتصدى البوليس الحرنى الراكب للعمال ليحملهم على الرجوع الى العمل . وكان أقل اضطراب بين العمال كاف لأن يجاب عليه رصاص البنادق . وحدث أن قاومت فئة من العمال القوة التى أرادت أن يحملهم على الرجوع الى العمل ، وقذف بعضهم الحجارة على رجال البوليس ، فأطلقت عليهم يران البنادق فقتل منهم البعض ، وجرح كثيرون . ولكن العمال مع هذا رفضوا أن يخضعوا . وكذلك لم يتمكن المتطوعون من أن يمنعوا اعتصاباً كبيراً بالقرب من « فريولام » الابدجهد جهيد . ومع هذا أبى كل المعتصبين أن يعودوا الى العمل . حتى بلغ يبعضهم الأمر أن يخفوا عن الأعين رهبة ، وفضلوا أن يبقوا مختفين على أن يعودوا الى العمل .

ولابد لي من أروى وقائع حادثة لا أجد دون ذكرها مندوحة .
 فقد ترك كثير من العمال أعمالهم بالقرب من «فريولام» وأبوا أن يعودوا
 إليها رغم الجهد الذى بذله رجال السلطة معهم . وكان الجنرال «لوكن»
 Luk.n فى ميدان الاعتصاب ومعه جنوده ، وكان على وشك أن يأمر
 رجاله باطلاق النار ، عندما تقدم اليه هندی باسل هبط تلك المدينة من
 دوربان هو سواريجى ابن «بارسى رستوجى» ، ولم يكن يتجاوز الثامنة
 عشرة من عمره وأمسك بأعنة الجواد الذى كان يمتطيه الجنرال وقال له .
 «لا يجب عليك أن تأمر باطلاق النار . وعلى أن اقنع أبناء وطنى بأن
 يعودوا الى العمل» فأكبر الجنرال شجاعة هذا الشاب ، وسمح له أن
 يجرب طريقة التفاهم الحبى فى فترة حدها له . ففاوض سواريجى
 العمال وأقنعهم فعادوا الى العمل . ولقد حال هذا الشاب بعمله هذا دون
 قتل الكثيرين بحضور ذهنه وببسالته وشفقته

وأصبحت الحياة فى مزرعة العنقاء حرجة شديدة . ورغم ذلك قام
 كل بواجبه ، حتى ان الأولاد عهد اليهم بمهمات خطيرة فأدوها بشجاعة
 وقبض فى ذلك الحين على مستر «وست» على الرغم من أنه لم يكن هنالك
 أى سبب يبرر القبض عليه . وكانت خطتنا التى رسمناها أن يعمل مستر
 وست وماجنرال غاندى جهدهما أن يتفاديا القبض عليهما . وعلى هذا
 عمل وست على أن لايمطى الحكومة أية فرصة تبرر بها القبض عليه .
 ولكن الحكومة كانت بعيدة عن أن تنظر فى الأسباب التى تترك

للقائمين بحركة الستياجراها بعض الرضى عن حالتهم ، ولم تترث في القبض على أى شخص يمكن أن يكون فى تركه حراً تأثير على أعصاب رجالها ، غير منتظرة قيام الأسباب التى تجعل القبض على ذلك الشخص مبرراً بوجه من الوجوه . وأصبحت شهوة أصحاب السلطة فى القبض على الأشخاص كافية لأن تلقى بمن شاءت فى غيابات السجون بسبب وغير سبب .

ولما أن أبرقنا الى « جوكهال » ننبئه بخبر القبض على مستر وست ، فكر فى أن يرسل الى جنوبى افريقية بضعة من أقدر رجال الهند ليعالجوا الحالة . وفى اجتماع عقد فى « لاهور » لتأييد الستياجرايين فى جنوبى افريقية ، أعلن مستر « أندروز » أنه يتنازل عن كل ما يملك من النقود تأييداً لحركتهم ومساعدتهم . ومنذ ذلك الحين رفق « جوكهال » بعين الاجلال والاكبار . فلما وصله خبر القبض على « وست » أبرق الى « أندروز » يسأله ان كان على استعداد لأن يذهب الى جنوبى افريقية ، فلم يتردد أندروز لحظة فى قبول مقترحه . وأبدى صديق حميم من أصدقائه يدعى مستر « بيرسون » رغبته فى أن يصاحبه ، وترك الصديقان الهند الى جنوبى افريقية على ظهر أول باخرة قصدت بلاد حكومة الاتحاد .

ولكن المعركة كانت اذ ذاك فى أواخر أدوارها ، فان حكومة الاتحاد عجزت عن أن تحتفظ بألاف من الرجال والنساء فى سجونها . وأصبح

الحاكم العام في حالة نفسية لا تتحمل ذلك الحدث العظيم، وأخذت أنظار العالم تتجه نحو الجنرال « سمطس » ترى كيف يتصرف في الأمر . ولقد عملت حكومة الاتحاد نفس ما فعله أية حكومة أخرى تقف في مثل موقفها . ولم تكن هنالك من حاجة للقيام بعمل تحقيق ، فان الخطأ الذي أدى الى هذه الحالة كان معروفاً ظاهراً ، واتفقت كل الآراء على أن الواجب يدعو الى اصلاح هذا الخطأ . وكذلك رأى الجنرال « سمطس » أن هنالك ظالماً يجب أن يرفع . ولكنه كان في موقف أشبه بموقف ثعبان ازدد فأراً، فلا هو يستطيع أن يبتلعه، ولا هو يستطيع أن يلفظه . فانه كان قد قطع للأوروبيين في جنوبي افريقية عهداً بأن لا يلغى صرية الثلاثة الجنيهاً ولا أن يقوم بعمل أى اصلاح ينتفع به الهنود . ولكنه بدأ يشعر بضرورة الغاء هذه الضريبة ، وأن يلجأ الى تشريع يعالج الحالة ببعض الاصلاحات . ونحن نرى دائماً أن الحكومات اذا أخرج مركزها ونقصت حجتها أمام الرأي العام، تلجأ دائماً الى تعيين لجان تقوم بتحقيق شكلى ، لأن كل ماسوف توصى به من الاصلاحات يكون مقررراً بالفعل في الأذهان قبل أن تعرضه على الحكومة وعلى الناس . والسائد في مثل هذه الأحوال أن الحكومة تقبل دائماً ما توصى به مثل هذه اللجان ، وبهذه الوسيلة تقتنع الحكومات ، فتقبل التوصيات التي تقررها لجان التحقيق ، فتقر بذلك المعدل الذي كانت ترفض من قبل الا أن يستقوى عليه الظلم والجبروت . ولذا عين جنرال

« سمس » لجنة من ثلاثة ، أعلن الهنود بأنهم لن يثقوا بها مادام أن الحكومة امتنعت عن تلبية بعض طلبات كانوا قد تقدموا بها للحكومة كأساس للتفاهم . ومنها أن المسجونين من الستياجراهيين يجب أن يحل سبيلهم في الحال ، وأن يمثل الهنود في اللجنة عضو على الأقل . ولقد قبلت اللجنة الى حد ما قبول طرف من الطلب الأول ، فأوصت الحكومة أن تحل سبيل كلنباخ وبولاك وأنا ، بحجة « أن بذلك يمكن أن يسهل طريق التحقيق في مطالب الهنود بقدر المستطاع » . وأن يكون اطلاق سراحنا بغير قيد ولا شرط . وقبلت الحكومة هذا المقترح وأحلت سبيلنا بعد سجن دام ستة أسابيع . ولذلك أفرج عن مستر وست وكان قد قبض عليه من قبل ، لأن الحكومة لم تكن لديها من تهمة توجهها اليه .

واقعد وقع هذا كله قبل أن يصل مستر اندروز ومستر بيرسون ، فتلقيتهما في دوربان . وكما كانت دهشتها كبيرة عندما رأيتني ، لأنهما كانا يجهلان ما وقع من الحوادث التي تتالت خلال سياحتهما . وكانت هذه أول مرة ألتقي فيها بهذين الانجليزيين اللذين أقدر فيهما البسالة والقدرة الفائقة .

لما أفرج عن ثلاثتنا أخذنا العجب والامتعاض . فاننا لم نكن نعرف شيئاً من الحوادث التي وقعت . وهبطت علينا أخبار تعيين اللجنة

كشئ جديد له دهشة وجدة ، ولكننا رأينا أننا لا نستطيع أن نتعاون معها على أية صورة من الصور ، وأول ما بدا لنا في الأمر هو أن الهنود يجب أن يعطوا حق تعيين ممثل واحد على الأقل لشرح مظالمهم للجنة . فلما وصلنا نحن الثلاثة الى دوربان حررنا خطابا الى جنرال « سمطس » مؤرخا في ٢١ ديسمبر سنة ١٩١٣ جاء فيه :

« نحن نرحب بتعيين لجنة التحقيق . ولكننا نعترض بشدة على تعيين مستر اسلن ومسترايلى عضوين بها . وليس بيننا وبينهما أى عداة شخصي ، فانهما رجلان لهما شهرتهما ولا نفكر بمقدرتهما . ولكن لما كان كلاهما قد أعلن في مواقف كثيرة عداةهما للهنود ، فقد يحتمل أن يقعا فى شئ ينال الهنود منه ظلم من غير أن يكونا شاعرين بأنهما يظلمانهن . والانسان قلما يستطيع أن يغير مزاجه تغييراً كلياً . وانه لما يضاد قانون الطبيعة أن نفرض أن هذين السيدين يمكن أن ينقلبا الى ضد ما كانا دفعة واحدة . ولكننا مع ذلك لا نطلب أن يخرجنا من اللجنة . بل نطلب أن يضم اليها فى اللجنة رجال عرفوا باستقلالهم فى الرأى وعدم تحيزهم ، نذكر منهم سير جيمس روز إيز والنبيلى و . ب . شرينر كلاهما معروف بعدله ووجهه للانصاف . وطلبنا الثانى ، ينحصر فى أن يطلق سراح الستياجراهيين جميعا ، فاذا لم يحدث هذا ، فانه يصعب علينا أن نبقى خارج السجن اذ ليس هناك أى مبرر يحيز بقاء الستياجراهيين فى السجن الى الآن . وثالثاً اذا طلب منا أن نبحث عن الاستعلامات

الضرورية للتحقيق ، وجب علينا أن نذهب الى المناجم والمعامل التي يعمل بها العمال المتعاقدون لنتم عملنا . فاذا لم تجب هذه الطلبات ، فاننا نأسف أن نصارحكم بأننا سوف نبحث عن وسائل أخرى تؤدي بنا إلى السجن » .

ولما سمع « جوكهال » أننا نتأهب لحذف آخر أبرق الينا برقية مطولة قال فيها أننا إذا خطونا هذه الخطوة أوقفنا لورد هاردنج وأوقفناه في موقف حرج ، ونصحنا بشدة أن نعدل عن هذا الحذف ، ونعاون اللجنة بأن نعرض عليها البيانات التي تسهل مهمتها .

ولقد وقعنا بذلك في معضلة كبرى . فان الهنود كانوا قد تعاهدوا على مقاطعة اللجنة اذا لم ينضم إليها أفراد يرضيهم أن يكونوا بين رجالها . وقد يتمتع لورد هاردنج أو بتألم جوكهال من تصرفنا ، ولكن كيف نرجع عن عهد قطعناه ، وكيف ننكص عن خطوة خطوناها ؟ وتقدم الينا مستر أندروز ينبهنا الى صحة مستر « جوكهال » التهيدة ، ويبين لنا عن مقدار ما يؤثر فيه عملنا اذا صدمناه تلك الصدمة القوية بأن نستمر في خطتنا . والحقيقة ان هذه الاعتبارات لم تغب عن ذهني أبداً . ففقدنا اجتماعاً من الزعماء وخرجنا من البحث بقرار أن مقاطعة اللجنة يجب أن تستمر مهما كانت النتائج اذا لم تسمح الحكومة باضافة أعضاء آخرين الى هيأتها . وبهذا القرار أرسلنا برقية مطولة الى « جوكهال » وافق عليها مستر أندروز وقد جاء فيها

« اننا نعرف مقدار ألمك الذى تتحملة فى سيلنا ، وعلى هذا كنا نرغب فى أن نتبع مشورتك ولو ضحينا فى سبيلها أكبر تضحية . كما أننا نعتز بأن لورد هاردنج قد أمدنا بمساعدة لا تقدر قيمتها ، ونود أن نكون جديرين بأن نحظى بمثلها حتى النهاية . ولكننا مع هذا نرغب فى أن نقف على حقيقة مركزنا . وينحصر الأمر فى أن ألوفنا من الرجال قد قطعوا على أنفسهم عهداً لا يمكن أن يرجعوا عنه فى حين أن المعركة التى خضنا غمارها من المبدأ إلى النهاية قد قامت على قاعدة احترام العهود التى كنا نقطعها . ولا سنك فى أن الكثيرين منا كانوا ولا شك يتركون الميدان لولا قوة العهود التى كنا نتعاهد عليها . كما أن الروابط الأدبية لا شبهة تنحل تواءاً اذا نكص آلاف من الرجال دفعة واحدة عن موقف وقفوه وكلمة أجمعوا عليها . على أن العهود التى نتعاهدنا عليها ، لم نجمع عليها إلا بعد أن قتلنا الموقف بحثاً وتأملاً ، ووجدنا أن تمسكنا بعهودنا لا ينافى أى شرعة من شرائع الآداب المرعية . ولا يخفى أن الجالية الهندية لها الحق المطلق فى أن تقاطع اللجنة من غير أن يوجه لها أى لوم . والذى نرغب فيه رغبة أكيدة هو أن تكون نصيحتك لنا أن لا نرجع عن عهد كهذا يجمع بين ارادة الآلاف من الرجال وأن نقف جميعاً موقف الوحدة التامة مهما ترتب على موقفنا من النتائج . وأنا نلرجو أن تطلع لورد هاردنج على هذه البرقية . وأملنا أن لا نقف من

جرائها في موقف ضعيف . اننا بدأنا هذه المعركة متخذين من الله شاهداً ومرسداً .

ولقد أثرت هذه البرقية في صحة « جوكهال » أسوأ تأثير . ولكنه ظل يساعدنا ويمدنا بأكثر مما أمدنا به من التأييد والحماية . وأبرق الى لورد هاردينج يشرح له حقيقة الموقف . فلم يرفض بذلك أن ينفض عنا ويلقى بنا في خضم المعترك ، بل ثبت على تأييدنا ووافق على وجهة نظرنا وكذلك كان شأن لورد هاردينج معنا . فانه ثبت على تأييدنا .

وذهبت إلى بريتوريا مصطحباً مستر أندروز . ولقد وقع في هذه الآونة بالذات اعتصاب قام به عمال سكة الحديد الأوروبيون مما جعل الحكومة تشعر شعوراً تاماً بمخرج موقفها . ودعيت الى أن ابدأ الزحف بجنودى الهنود في تلك الفرصة الساححة ، وبذلك أساعد المعتصبين في عمال سكة الحديد ، وأربح المعركة بأن أملى على الحكومة شروطى . ولكنى بادرت بأن أعلن أن الهنود لا يساعدون بهذا العمل عمال سكة الحديد ، لأنهم لم يعتصبوا ليربكوا الحكومة ، وان خوضهم المعركة ليقترحوا ميدانها اما يرمى الى غرض غير هذا . وانه اذا كان ولا بد من أن نبدأ الزحف ، فاننا لن نبدأ به الا بعد أن ينتهى اعتصاب عمال سكة الحديد . ولقد أحدث هذا القرار أثراً عميقاً في النفوس ، ونقله روتر الى إنجلترا . فأبرق الينا لورد « أمبيل » يهنئنا على هذا القرار . وصارحنى أحد مساعدينا « ... » انه لا أحد ، أهاه طنك ، لا من

أن أمد اليهم يد المساعدة بحال من الأحوال . ولكن كيف أستطيع أن اتصرف ازاء ما تعمل ؟ انك تساعدنا في وقت الحاجة . فكيف نفكر في أن نقبض عليك أو نأسرك . اننى أود لو أنك تنزع الى أعمال العنف كما يفعل عمال سكة الحديد ، وبذلك تؤدى لنا أكبر خدمة بأن تفتح لنا طريق التصرف معك . ولكنك تحض على ترك العنف وتوصى بعدم فعل الشر حتى بالاعداء . انك تنشد الانتصار من طريق المشقة والاحتمال وتعذيب النفس ، وتراعى في خطتك حدود الآداب المرعية والبسالة . وهذا مايوقفنا موقف العاجز مكتوف اليدين » - وكذلك عبر جنرال سمطس عما يشابه هذا من العواطف .

ولم تكن هذه هى الحادثة الأولى التى عبر فيها أناس من مضاديننا عن عواطفهم العميقة تلقاء ماييدي الستياجراهيون من ضروب البسالة النادرة . فانه عند ماأضرب العمال الهنود فى منطقة الشواطىء الشمالية ، تعرض المزارعون فى جبل « إدجكومب » الى خسارة فادحة اذا لم ينقل القصب الذى قطع إلى العامل ليعصر حالا . فرجع ألف ومائتا هندي الى العمل، ولم يرجعوا الى اخوانهم المضربين الا بعد أن قاموا بهذا الواجب . واذكر أيضا أنه عند ماأضرب العمال الهنود فى بلدية دروبان، أرجعنا العمال الذين كان يعهد اليهم بالعمل فى المجارى الصحية والمرضى فى المستشفيات . فلم يرفضوا الرجوع الى أعمالهم . ولا شك فى أن الأعمال الصحية اذا تمّت ، فإنها لم تضأ احد اءاعلى ان لا اكمن الذين كانت تنه

بهم المستشفيات ، فان المدينة كانت تجتاحها الأمراض ، ويحرم المرضى من المساعدات الضرورية . ولم يقبل مؤمن بمبدأ الستياجراها أن يكون سبباً في مثل هذا أو يتحمل مسؤولية مثل هذه الكارثة . ولذا استئينا العمال الذين يعملون في مثل هذه المهام . فانه على الستياجراهي أن ينظر في كل خطوة يخطوها موقف عدوه ومركزه . وكنت أستطيع أن ألحظ ان كل عمل من أمثال هذه الأعمال الباسلة كان يترك أثره غير الظاهر في القلوب ويرفع من قدر الهنود ويهيئ الجو للتفاهم على قاعدة معقولة . ولقد تهيأ الجو للتفاهم بالفعل . وكان سير بنيامين « روبرتسون » الذي أرسله « لورد هاردنج » في سفينة خاصة على وشك الوصول الى جنوب افريقية في ذات الوقت الذي ذهبت فيه مع اندروز الى بريتوريا . ولكننا لم ننتظر مقدمه وسافرنا ، لأنه كان علينا أن نصل الى بريتوريا في اليوم الذي حدده جنرال سمطس . ولم يكن هنا لك سبب حقيقي يدعونا الى انتظاره ، لأن النتيجة التي نرغب فيها ، لا سبيل اليها الا بقوة إيماننا .

ووصلت ومعى اندرو الى بريتوريا . ولكن كان على بمفردى أن أفاوض جنرال سمطس . وكان الجنرال في ذلك الحين مشغولاً باعتصاب عمال سكة الحديد ، وقد كان اعتصاباً ذا مظاهر خطيرة، حتى لقد اضطرت حكومة الاتحاد أن تعلن الأحكام العرفية . فان العمال الأوروبيين لم يقتصروا في مطالبهم على زيادة الاجور ، بل بدؤوا يعتدون

على السلطات محاولين أن يقبضوا على عنان الأمور دون الحكومة . وكانت أولى مفاوضات مع جنرال سمطس قصيرة ، ولكنى رأيت منها أن الجنرال لم يمتط فيها نفس الأشهب الذي كان يمتطيه من قبل ، عند ما بدأنا بالزحف الأول . فانه لم يبد من الاستعداد لمناقشتى ما أبدى الآن . ذلك فى حين أن سلاح الستياجراها الذى لجأنا اليه فى الأولى كان هو نفس سلاحنا الذى نهدد به فى الثانية ومع هذا فقد رفض فى الاولى أن يدخل معنا فى مفاوضات ، أما فى الثانية فقد أبدى استعداداه لأن يبحث معنا الموقف من جميع وجوهه .

ولقد وصلت مع الجنرال الى اتفاق مبدئى ، وأوقفت حركة الستياجراها لآخر مرة . لقد فرح بذلك كثير من أصدقائى الانجليز . ووعدوا بأن يمدوا يد المساعدة فى اتمام الاتفاق النهائى . ولقد لافيت بعض المصاعب فى أن أحمل اخوانى الهنود على قبول هذا الاتفاق . فذكرنى بعضهم بما كان من خاف سمطس لوعده سنة ١٩٠٨ بل قالوا « ان جنرال سمطس قد تلاعب بنامرة من قبل ، ويؤسفنا أنك لم نفذ فيك ذلك الدرس وونقت به مرة أخرى . ولا شك فى أن الرجل سوف يخونك مرة اخرى ، كما أننا لانشك فى أنك ستضطر الى اعادة الدعوة للقيام بحركة الستياجراها مرة أخرى . ولكن من من بنى جلدتك سوف يجيب دعاءك ؟ وهل تتصور ان الناس يكونون مستعدين دائما لأن يذهبوا الى السجن كلما دعوا لذلك ؟ وان لا يكون لهم من وراء ذلك الا

الفشل مع رجل كالجنرال سمطس لا يلبث ان ينكث عهده بمجرد أن يعاهد عليه ؟ » .

و كنت على يقين من أن مثل هذا الاعتراض سوف يوجه الى ، ولذلك لم أؤخذ بالعجب ولا بالاندهاش عند ما واجهني به اخواني . فليس من المهم أن يغس الستياجراهي ويخدع ، بل عليه أن يثق بمناقشه مادام بعيداً عن ان يجد أسباباً لعدم الثقة به . والألم للمؤمن بمبدأ الستياجراها كاللذة تماماً . ولذا لا يجب عليه أن يرتبك بمجرد أن يتصور الألم أو يخاف الشدة ، فيلقى بنفسه في أحضان الشك وعدم الثقة . ومن جهة أخرى فان الستياجراهي مادام معتمداً على قونه الذاتية ، فلا يهمه اذن أن يخدعه منافسه . فان عليه أن يثق مما تكررت الخيانات وتنوعت المكائد وتلونت الحدع ، ويؤمن أنه بثقته هذه انما يزيد الحق قوة وبطشاً ويقرب أوان الانتصار .

وعقدت الاجتماعات في محال متفرقة ، ونجحت في النهاية في أن أحمل الهنود على قبول مبادئ الاتفاق . وهنا بدأ الهنود يفهمون معنى الستياجراها فهما أدق وأعمق . وكان اندروز هو الوسيط والشاهد الأوحده على مواد الاتفاق . ولو أنني كنت تشددت وعاندت في قبول هذا الاتفاق ، فلا شك في أن عنادى كان يتخذ وسيلة لاتهم مراعى الهنود، وسلاحاً يستعمل ضدّهم بشدة وعنف ، ولما استطعنا أن نصل الى النصر النهائي الذى فرنا بناره في خلال ستة الأشهر التالية ، الابدع من

طويل . ان الحكمة السنسكريتية القائلة بأن «الغفران تاج الباسل» -
قد تقضى على الستياجراهى بأن لا يترك لأى انسان أية وسيلة لأن يجد
فى تصرفه منفذاً للخطأ . وعدم الثقة دلالة على الضعف ، ومبدأ
الستياجراها إنما يتقى كل أسباب الضعف ومعه عدم الثقة والشك ،
مادام أن الستياجراهى لا يرمى الى تحطيم خصمه بل يرمى الى اجتذابه
نحوه ورده الى المعقول .

ولما انتهت هذه المعركة كان «جوكهال» فى انجلترا وأرسل الى
طالباً أن الاقيه هنا لك . وفى شهر يولية سنة ١٩١٤ سافرت مصحوباً
بمستر كلنباخ وكوسترباى الى ثغر «سوزمبتون» بانجلترا .

وعند ما بلغنا جزر «ماديرة» بلغنا أن الحرب العظمى على وشك أن
تنشب . ولما وصلنا بحر المانش سمعنا أنها نشبت بالفعل ، وتعطل سفرنا
حيناً من الزمن . وكان من الصعب أن تقاد السفينة فى البحر بعد أن
بثت الغواصات فى أنحائها ألغامها الفتاكة ، فلم نصل الى سوزمبتون الا
بعد يومين قضيناها فى سياحة شاقة .

ولقد أعلنت الحرب يوم ٤ أغسطس ، غير أننا لم نصل لندن إلا فى
اليوم السادس من ذلك الشهر .

ولما وصلت لندن علمت أن «جوكهال» فى باريس لا يستطيع
العودة ، ولما كانت كل المواصلات قد قطعت بين لندن وباريس ، لم
يتيسر لى أن أعرف متى يعود . ولم أكن أرغب فى العودة الى وطنى

قبل أن أراه ، ولكن لم يستطع أحد أن يعرف بالضبط متى يعود .
 بقى على أن أفكر فيما أعمل فى تلك الفترة ؟ وما هو واجبى نحو
 الحرب ؟ وكان « سورايجى أدا جانيا » رصيفى فى السجن وأحد زملائى
 فى حركة الستياجراها يدرس القانون فى لندن . ولما كان هذا الشاب
 من أخص المؤمنين بمبدأ الستياجراها ومن أوقف الناس على روحها ،
 أرسلناه الى لندن ، حتى اذا فاز بشهادة المحاماة حل محلى فى جنوبى
 افريقية . وفى طريق اتصالى به قابلت « جفراج مهتا » وغيره من
 الهنود الذين كانوا يدرسون فى انجلترا ، وبعد المناقشة عقدنا اجتماعا
 حضره كل الهنود المقيمين فى انجلترا وايرلندا ، ليستمعوا مقترحاتى .

فقد كنت أشعر بأن الهنود المقيمين فى لندن يجب أن يأخذوا بضلع
 فى الحرب ، فان الطلاب الانجليز قد تطوعوا فى الجيش ، فعلى الهنود أن
 لا يكون حظهم أقل من حظ اخوانهم . فاعترض على مقترحاتى ، وقيل
 بأن الفاصل بين الهنود والانجليز ازاء الحرب واسع فسيح . واننا البعيد
 وهم الأسىاد . فكيف يمكن للبعد أن يعاون سيده ومالك رقبته فى وقت
 حاجته اليه ؟ وان واجب البعد يدعوه وهو يريد أن يتحرر أن ينتهز
 فرصة احتياج سيده وشدته ؟ ولكن هذا رأى لم يقنعنى . وكنت
 أعرف الفارق البعيد بين الهندى والانجليزى من حيث المركز والعلاقة ،
 ولكنى لم أكن أعتقد أننا أصبحنا عبيدا بالفعل . بل كنت أعتقد أن

متابعينا انما ترجع الى سفاهة الموظفين الانجليز ، أكثر من رجوعها الى الأسلوب الانجليزى فى مجموعه ، وان هؤلاء يمكن أن نربحهم لصفنا بالعطف والحب . فاذا أردنا أن نحسن مركزنا معهم من طريق معاونتهم ومساعدتهم فى الحرب ، فان من واجبنا اذن أن نقف بجانبهم فى وقت حاجتهم القصوى . على أننى وان كنت أعتقد اذ ذاك أن أسلوب الاستعمار الانجليزى فيه نقص وظلم ، الا أنه لم يكن قد بدالى كل ما فيه من العيوب والنقائص التى أدركها الآن الادراك كله . أما وقد فقدت نقى بأسلوب الاستعمار البريطانى ، فانى أرفض الآن أن أعاون الحكومة الانجليزية بأى وجه من وجوه التعاون . ولذلك أعجب كيف أن أصدقاء كثيرين ، على الرغم من اقتناعهم بفساد ذلك الأسلوب بل وبالموظفين ، وعلى الرغم من فقدانهم كل ثقة به وهم ، ما يزالون يعاونون الحكومة ويمدون لها يد المساعدة .

وكان من رأى الذين قاوموا فكرتى فى معاونة الانجليز فى الحرب ، أن باعلان الحرب قد حانت الساعة التى يعلن فيها الهنود مطالبهم الوطنية ليفوزوا بما يحسن مركزهم وطنياً وسياسياً . ولكن فكرى كان يتجه الى أنه لا يجب علينا أن نتخذ من حاجة بريطانيا وشدتها فرصة ننتهزها ، وان من حسن السياسة وبعد النظر ، أن لا نعرض مطالبنا مادامت الحرب قائمة . ولذلك اتبعت رأى ودعوت كل قادر من الهنود على

التطوع أن يشترك في الحرب. وأجيبته دعوتي ، بأن اشترك فيها هنود من مختلف الأقاليم ومن مختلف النحل .

وحررت خطابا للورد « كرو » أخبره بهذه الحقائق وأعرفه بأننا على استعداد لأن نتلقى دروساً في الاسعاف الحربى ، وإن خطابى هذا يعتبر قبولاً منا للقيام بهذا العمل . ولقد قبل لورد « كرو » ما عرضنا عليه بعد قليل من التردد ، وشكرنا اذ أظهرنا استعدادنا لخدمة الامبراطوية فى مثل هذا الموقف الحرج .

وكانت لندن فى ذلك الحين تعج بالمناظر التى يروق للمرء أن يراها ، فلم يكن هالك ذعر ، ولكن كان الجميع فى شغل شاغل وكل منهم يعمل على قدر ما تصل استطاعته . فبدأ الأصحاء يتمرنون على الحرب وحركات الميدان . وبقى على الضعفاء والشيوخ والنساء مهام كثيرة ، أهمها تجهيز الملابس والضادات للجرحى فى الميدان ، والعائدين منه الى الوطن .

(ملحوظة — « اضطر مهاتما غاندى أن يعود الى طقس حار بعد اصابته بالتهاب « البلوره » — Pleurisy — فغادر انجلترا الى الهند فى شهر ديسمبر سنة ١٩١٤ » . س . ف . أندروز)

= ٢٨٦ =

فهرس الكتاب

الصفحة	
٤	قصيدة المرحوم شوقي بك في مهاتما غاندى
٧	ديباجة - صورة بقلم المترجم
١١	الفصل الأول - المولد والسكن
٢١	الفصل الثانى - أيام المدرسة
٣٥	الفصل الثالث - باكورة الشباب
٤٧	الفصل الرابع - فى لندن
٧١	الفصل الخامس - العودة الى الهند
٩٠	الفصل السادس - فى ناتال
١٠٨	الفصل السابع - فى برتوريا
١٣٧	الفصل الثامن - عنف الغوغاء فى دوربان
١٥٩	الفصل التاسع - حرب البوير
١٦٩	الفصل العاشر - الطاعون الاسود
١٨١	الفصل الحادى عشر - حتى هذه النهاية
١٩٦	الفصل الثانى عشر - ثورة الزولو
٢١٥	الفصل الثالث عشر - تثقيف الروح
٢٢٨	الفصل الرابع عشر - السداجراها فى ناتال
٢٤٢	الفصل الخامس عشر - المفاومون السليبيون
٢٦٢	الفصل السادس عشر - السجن والانتصار

تنبيهان

١ - جاء فى ص ١٤ أن غاندى ولد سنة ١٨٩٦ وحقيقة ميلاده سنة ١٨٦٩

٢ - نشرت خمسة الفصول الاولى من هذا الكتاب بمجلة المقتطف الفراء ،

وقد أعدنا نشرها فى هذا الكتاب .

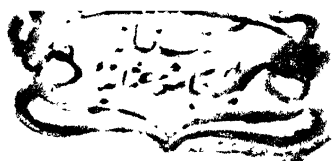
ملوك المسلمين المجرأين ودرولهم

بقلم الكاتب الشرق الكبير

الاستاذ أمين سعيد

أول كتاب في باب اللغة العربية

جامع لسيرة ٢٠ ملكا وأميراً من ملوك الشرق وأمرائه ،
ومزين بصورهم ، وفيه بيان عن أحوال كل منهم ومعيشته اليومية ،
ونشأته وعلومه وتاريخ بلاده السياسي . وفي الكتاب ١٥٠
وثيقة ومعاهدة سياسية ، وبيان مفصل عن القضية المصرية
والسورية ، والثورات التركية والعربية والایرانية والمغربية
والأفغانية وغيرها



ملوك الطوائف

ونظرات في تاريخ الإسلام
لِلْعَلَمَةِ دُوزِي مَرْجَمَةِ بِقَامِ

كامل كيتلاني

عرف العلامة المستشرق دوزي باخلاصه ودقته في بحوثه
عن الأندلس والمسلمين وقد ترجم هذا الكتاب الخالد بدقة
وأمانة وعلق عليه المترجم تعليقات نفيسة فأصبح لا يستغنى عنه
باحث عربي يعني بتاريخ الأندلس والإسلام

